محمد سعيد رمضان البوطي
دكتور في الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر

أحسن الحديث

تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل

منشورات المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فهذه تأملات علمية وأدبية سريعة في كتاب الله تعالى ، أردت أن أوضح من ورائها بعض ماينطوي عليه هذا الكتاب من روعة البيان واعجازه ، ومدى تأثيره في مختلف العلوم العربية التي تزخر بها المكتبة العربية اليوم ، مما لابد للأديب ودارس العربية من الوقوف عليه .

وهي كما قلت . لا تزيد على أن تكون تأملات .. فلم أقصد منها استقصاء لبحث ، ولا تحقيقاً جامعاً لفن، ولو قصدت إلى ذلك لضاقت بي السبل واستعصى عليّ البحث ، ولاحتاج الأمر إلى مجلدات واسعة عظيمة ؛ وأنّى لمثلي أن يأتي بتحقيق جامع لفنون هذا الكتاب المبين ، أو أن يستقصي البحث في آدابه وبلاغته وعلومه؟!

وإنما الذي قصدت إليه ، هو أن أنال رشفة من بحر هذا البيان الإلهي ، وقبضة من كنز علومه ، أمتّع بها الخاطر والنفس ، وأسعد بها الفكر والخيال . وحسبي ، وحسب القارىء ، أن نقف من وراء ذلك وقفة المتأمل الخاشع عند شاطىء هذا اليمّ .. نمتع البصر فيما عجز عن إدراك كنهه العقل ، ونرهف السمع لهذا الذي سجد لبيانه البيان .

وكم من جمال تذوب تأثراً به النفس ، ولا يحدّه الفكر والعقل . وكم من حقيقة جاثمة وراء حدود دلالة النطق والكلام ، فلا يعبر عنها إلا الحيرة الخاشعة ولا يتبيّنها سوى صادق الاحساس .

★ ★ ★

ثم إن هذا الكتاب الإلهي العظيم ، ينطوي على علوم مختلفة هامة ، تتعلق بمضمونه وتاريخ نزوله ، كما ينطوي على صور رائعة من الجمال في تعبيره وأسلوبه . وإنما يتعلق الغرض هنا بعرض سريع موجز لكلا الجانبين . إذ لا معنى لدراسة الأدب العربي بدون أي دراسة لينبوع هذا الأدب كله ، وهو القرآن . ولا قيمة لدراسة فنون العربية وعلومها بدون الرجوع إلى ميزان هذه العلوم ومعتمدها الأول ، ولا اعتبار لأدب أديب يتورطن في تلاوة القرآن ولا يكاد يبين .

وهذا يعني أن الغرض إنما يتناول من ذلك كله ، القدر الذي يخص العربية وعلومها وآدابها ، أما ما يمتد من وراء ذلك إلى علوم الفقه وأصوله أو التفسير وعلم الكلام ، فلا شأن لنابه في هذا المقام .

وهذه الحاجة المحدودة بهذا الشكل والقدر ، هي التي ألجأتني إلى الكتابة في هذا الفنّ ، رغم كثرة الشواغل والصوارف المختلفة . فقد رجعت إلى كل ماوقع تحت يدي من كتب هذا البحث مما ألف قديماً وحديثاً ، فما وجدت فيه شيئاً يفي بحاجة من يقبل على دراسة الأدب العربي ، وإن كان كلٌ منها يقع موقعاً من حاجته ويسدّ مسداً فيها . فالبعض منها يتناول زاوية صغيرة محدودة من مجموع ما يتعلق به الغرض في هذا المقام ، والبعض منها يطنب ويتوسع في ابحاث علوم القرآن حتى يتجاوز الأمر بالقارىء حدود العربية وآدابها إلى الإسلاميات وعلومها .

ولقد انتهى الضعف بطلاب العربية وعلومها في عصرنا هذا إلى حد ، لا يكادون يستطيعون التعرف فيه إلى شيء من هذه الكتب أو الأمهات القديمة ، ولا يكادون يملكون صبراً على قراءتها أو تصفحها ، ويبدو أننا (ويالأسف) لم ندرك بعد سرّ هذه الغاشية ولا علاجها .

فمن أجل كل ذلك اضطررت إلى أن أكتب بضع صفحات في هذا الفن ، أتيمم فيها حاجة الأدب العربي وكفايته ، واستهدف من وراءها أن يتذوق طلاب

العربية هذا السموّ الرائع في البيان القرآني ، تذوقوا جيداً ، فإنهم إذا تذوقوه طربوا له ، وإذا طربوا له أقبلوا إليه قراءة وفهما وإذا أقبلوا إليه بهذا الشكل ، استقامت ألسنتهم وتخلصت من عوج العامية ورطانتها وتذوقوا الأدب العربي في كل فروعه وجوانبه .

وتحقيقاً لهذا الهدف ، فقد قسمت هذا الكتاب بعد المقدمة والتمهيد إلى ثلاثة أقسام :

(**القسم الأول**) ويتناول خلاصة من تاريخ القرآن وعلومه ، وهي تشمل:

١ ــ القرآن : تعريفه وحقيقته .
٢ ــ نزول القرآن منجماً والحكمة في ذلك ..
٣ ــ اسباب النزول ..
٤ ــ كيفية جمع القرآن و كتابته .
٥ ــ رسم القرآن .
٦ ــ الأحرف السبعة : خلاصة جامعة عنها .
٧ ــ المكي والمدني .
٨ ــ التفسير نشأته وتطوره ومذاهبه .
٩ ــ المبهم والمتشابه في القرآن .
١٠ ــ القراآت والقراء : لمحة دراسية عنها .

(**القسم الثاني**) ــ ويتناول دراسة موجزة لمنهجه وأسلوبه ، وتشمل هذه الدراسة الابحاث التالية :

١ً ــ أسلوب القرآن : نظرة عامة ، ثم دراسة لخصائصه
٢ً ــ اعجاز القرآن : بيانه ودليله ووجوهه
٣ً ــ موضوعات القرآن وطريقة عرضه لها : دراسة مختصرة سريعة
٤ً ــ التصوير في القرآن : مظهره ووسائله

٥ – القصة في القرآن : أغراضها ومنهجها
٦ً – المنهج التربوي في القرآن
٧ً – النزعة الانسانية في القرآن
٨ً – فلسفة القرآن عن الكون والانسان والحياة
٩ً – هل من الممكن ترجمة القرآن

(**القسم الثالث**) – ويتناول نماذج من النصوص القرآنية في بعض مواضيعه ، نتبعها بشرح أدبي مركز ، يكون تطبيقاً للدراسات النظرية التي تناولها أبحاث القسم الثاني ، ومثالاً يحتذيه القارىء في شرح بقية آي الكتاب الكريم ، مستعيناً على ذلك بالرجوع إلى مختلف تفاسير الكتاب الكريم .

وأسأل الله رب العالمين ، أن يوفقنا لأن نجعل دراستنا للعربية خدمة لكتابه ، ولا يتركنا ندرس كتابه خدمة للعربية ، وأن يبصّر عقولنا بالحق ، ويحبب إلى قلوبنا اتباعه والتمسك به .

وحسبي الله ونعم الوكيل

* * *

تمهيد

أهمية القرآن في الأدب العربي
ووجوه ذلك

لعل البعض يتساءل عن وجه الحاجة إلى دراسة القرآن ، في الأدب العربي ، ولعله يحسب أن في ذلك خلطاً بين الآداب والاسلاميات ، لا وجه له ولا ضرورة إليه .

والجواب ، أن لهذا الكتاب العظيم أهمية بالغة من جوانب مختلفة متعدده . فإن له جانباً تشريعياً هاماً ، لاينفك عن الحاجة إلى دراسته كل متطلع إلى دراسة الفقه والتشريع . وإن له مع ذلك أيضاً جانباً متعلقاً بالعقيدة والفلسفة والأخلاقيات ، لا ينفك عن الحاجة إلى دراسته كل مقبل الى دراسة العقائد أو الفلسفة أو الأخلاق . كما أن له إلى ذلك جانباً أدبياً أصيلاً بعيد الجذور في تاريخ الأدب العربي ، عظيم الأثر في توجيهه وتطويره وتقويمه ؛ فمن أجل ذلك كان لا بد لمن أراد العكوف على دراسة العربية وآدابها من أن يعكف على دراسة القرآن وعلومه ؛ وكلما ابتغى مزيداً من التوسع في العلوم العربية وثقافتها ، احتاج إلى مزيد من التوسع في دراساته القرآنية المختلفة .

وإليك ملخصاً من وجوه وأسباب هذه الحاجة :

السبب الأول ـ أن هذا الكتاب العربي المبين ، هو أول كتاب دوّن

وظهر في تاريخ اللغة العربية [1] وإنما نشأت كل حركات التدوين والتأليف بعد ذلك على ضوئه وسارت بإشراقه ، وتأثرت بوحيه وأسلوبه . وهو من أجل ذلك ، كان مظهراً هاماً للحياة العقلية والفكرية والأدبية التي عاشها العرب فيما بعد . فكيف يتأتى أن يكون هذا الكتاب مع ذلك بمعزل عن العربية وعلومها وآدابها ؟!

السبب الثاني – أن اللغة العربية إنما استقام أمرها على منهج سليم موحد ، بسرّ هذا الكتاب وتأثيره ، وهي إنما ضمن لها البقاء والحفظ بسبب ذلك وحده. فقد كانت اللغة العربية من قبل عصر القرآن أمشاجاً من اللهجات المختلفة المتباعدة ، وكان كلما امتد الزمن ، ازدادت هذه اللهجات نكارة وبعداً عن بعضها .

وحسبك أن تعلم أنّ : المعينية ، والسبئية ، والقتبانية ، واللحيانية والثمودية والصفوية والحضرمية ، كلها كانت أسماء للهجات عربية مختلفة ، ولم يكن اختلاف الواحدة منها عن الأخرى محصوراً في طريقة النطق بالكلمة ، من ترقيق أو تفخيم أو إمالة أو نحو ذلك ، بل ازداد التخالف واشتد إلى أن انتهى إلى الاختلاف في تركيب الكلمة ذاتها وفي الحروف المركبة منها ، وفي الابدال والاعلال والبناء والاعراب .

فقضاعة مثلاً كانت تقلب الياء جيماً إذا كانت ياء مشددة أو جاءت بعد العين ، وكانت العرب تسمى ذلك : عجعجة قضاعة . ومن ذلك قول شاعرهم :

خالي عويف وأبو علجّ ... المطعمان اللحم بالعشجّ
وبالغداة قطع البرنجّ ... يؤكل باللحم وبالصيصجّ

وحمير كانت تنطق بـ « أم » بدلاً من « ال » المعرفة في صدر الكلمة ، وكانت العرب تسمي ذلك : طمطمانية حمير ، ومن ذلك قول أحدهم لرسول الله ﷺ يسأله :

---

(١) مضمون هذا الكتاب ، كلام الله الأزلي القديم . وهو من هذا الجانب لايبدأمن تاريخ ، وليس له ميلاد ظهور أو تدوين ، ولكنا نقصد بالكتاب في هذا المجال هذه الكلمات والأحرف والصفحات التي تضبطه وتحده والتي ظهرت ودونت في حقبة معينة من الزمن .

أمن امبر امصيامّ في امسفر ؟ يريد أن يقول : هل من البر الصيام في السفر ؟

وهذيل كانت تقلب الحاء في كثير من الكلمات عيناً ، فكانوا يقولون أعلّ الله العلال بدلاً من أحل الله الحلال ..

وهكذا دواليك .. فقد كانت كل قبيلة تختلف في النطق عن الأخرى بوجوه من الاختلافات كثيرة ، حتى باعدذلك بين ألسنة العرب وأوشك أن يحوّل اللغة الواحدة إلى لغات عـــدة متجافية لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها .

ولقد بلغ من تخالف هذه اللهجات وتباعدها ، أن كثيراً من وفود هذه القبائل التي أخذت تفد في صدر الاسلام إلى رسول الله ﷺ ، كانوا يلقون كلمات وخطباً لا يكاد يفهمها القرشيون من أصحابه عليه الصلاة والسلام . ولقد قال عليّ رضي الله عنه مرة لرسول الله ﷺ ، وقد سمعه يخاطب بني نهد : يارسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره !.. فقال عليه الصلاة والسلام : أدبني ربي فأحسن تأديبي [1] .

فلما نزل القرآن ، وتسامعت به العرب ، وائتلفت عليه قلوبهم ، أخذت هذه اللهجات بالتقارب ، وبدأت مظاهر ما بينها من خلاف تضمحل وتذوب ، حتى تلاقت تلك اللهجات كلها في لهجة عربية واحدة ، هي اللهجة القرشية التي نزل بها القرآن وأخذت ألسنة العرب على اختلافهم وتباعد قبائلهم تنطبع بطابع هذه اللغة القرآنية الجديدة . فكان ذلك سّر هذا الشريان السحري العجيب الذي امتدّ في أجلها ، فاستصلبت بعد ميعة ، وقويت بعد تفكك ، واتحدت بعد تناثر ؛ ثم مرّت على مصرع أعظم لغة عالمية شاملة هي « اللاتينية » بينما تغلي هي حيوية وقوة وإشراقاً

---

(١) هذا الحديث مروي بطرق مختلفة كلها تدور على السدّي عن ابن عمارة الجواني عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه . وصححه أبو الفضل بن ناصر ، وقال عنه ابن حجر : غريب ، وقال عنه السخاوي سنده ضعيف ولكن معنـــاه صحيح . وانظر المقاصد الحسنة للسخاوي : ٢٩ وفيض القدير على الجامع الصغير : ١/٢٣٥ .

فكيف يمكن مع ذلك دراسة شيء من أدب هذه اللغة دون دراسة روحها التي تعيش بها وشريانها الذي يمتدّ فيها وينسأ من أجلها ؟

السبب الثالث : أن البلاغة والبيان وجمال الكلمة والتعبير — كل ذلك كان قبل عصر القرآن أسماء لا تكاد تنحط على معنى واحد واضح متفق عليه . وإنما بلاغة كل جماعة أو قبيلة ما تستسيغه وتتذوقه؛ ولذلك كانت المنافسات البلاغية تقوم فيما بينهم وتشتد ثم تهدأ وتتبدد ، دون أن تنتهي بهم إلى نتيجة ، إذ لم يكن أمامهم مثل اعلى يطمحون اليه ولا صراط واحد يجتمعون عليه ، ولم يكن للبلاغة العربية معنى إلا هـذا الذي يصدرون هم عنه من كلام في الشعر والنثر ، وهم إنما يذهبون في ذلك طرائق قدداً ، ويتفرقون منه في وديان متباعدة يهيمون فيها .

وهيهات ، لو استمر الأمر على ذلك ، أن توجد للبلاغة والبيان العربي حقيقة تدرك أو قواعـــد تدرس ، أو قوالب أدبية تهذب العربية وتحافظ عليها .

فلما تنزل القرآن ، والتفتوا إليه فدهشوا لبيانه ، وسجدوا لبلاغته وسمو تعبيره ، وأجمعوا على اختلاف أذواقهم ومسالكهم ولهجاتهم أن هذا هو البيان الذي لا يجارى ولا يرقى اليه النقد — كان ذلك إيذاناً بميلاد مثلهم الأعلى فيما ظلوا يختلفون فيه ويتفرقون عليه ، وأصبحت بلاغة هذا الكتاب العزيز بعد ذلك هي الوحدة القياسية التي تقاس اليها بلاغة كل نص وجمال كل تعبير ، ثم تعاقبت الدراسات عليه من أرباب هذا الشأن وعلمائه ، فاستخرجوا منه قواعد البلاغة ومقومات البيان ومسالك الاعجاز فكانت هذه العلوم البلاغية التي امتلأت بها المكتبة العربية ، وأصبحت فناً عظيماً مستقلاً بذاته . ولولا القرآن لما عرف هذا الفن ولا استقامت تلك الأصول والقواعد ، ولتبدّد المثل البلاغي الأعلى في أخيلة فصحاء العرب وشعرائهم ... فكيف يستقيم مع ذلك ، أن يدرس هذا الفن وأصوله بمنأى عن مثله الاعلى ومصدره العظيم الأول ؟

السبب الرابع : أن متن هذه اللغة ، كان — مليئاً قبل عصر القرآن بالكلمات الحوشية الثقيلة على السمع المتجافية عن الطبع . ولو ذهبت تتأمل فيما وصل الينا من قطع النثر أو الشعر الجاهلي ، لرأيت الكثير منه محشواً بهذه الكلمات التي وصفت، إلا أنك قلما تجد ذلك في لغة قريش .

وإليك هذه القطعة النثرية نموذجاً لكلامهم في الجاهلية ، أو لكلام الأعراب الذين أدركوا الاسلام ولكن ألسنتهم ظلت على ما انطبعت عليه في نشأة الجاهلية، وهذه القطعة كلمات قالها أعرابي وقف بين الناس يستجدي مالاً .

(أما بعد ، فإني امرؤ من المِلْطاط الشرقي المُواصِي أسيافَ تِهامة ، عكفت علينا سنون مُحْش ، فاجْتَبَّتِ الذُرى وهمشت العرى وجَمَشت النجم وأعجّت البهم ، وهمّت الشحم ، والتَحَبَتِ اللحم ، وأحْجَنَتِ العظمَ ، وغادرت التراب موراً ، والماء غوْراً ، والناسَ أوزاعاً والضّهِيل جِراعاً ، والمقـــام جَعْجَاعاً ، فخرجت لا أتلفّع بوصيدة ، ولا أتقوّت بهيدة ، فالبَخَصات وقْعة والركبات زَلِعَـة ، والجسم مُسْلَهِمّ ، والنظر مُدْرَهِمّ ، فهل من آمر بِمِيْر أو داع بخير) [1] .

---

(١) المِلطاط ، حرف من أعلى الجبل أو جانب منه . والمُواصي ، أي المتصل . وأسياف جمع سيف يقال لساحل البحر ومُحْش جمع ماحش بمعنى محرق أي أحرقت الزرع والكلأ . وفاجتبت بمعنى قطعت . والعرى جمع عروة وهي القطعة من الشجر وجَمَشت بمعنى حلقت ، والنجم النبات الذي لايستقيم على ساق ، وأعجت البُهم أي جعلتها عجايا وهي جمع عَجِيّ وهو مافقد أمه من الإبل ، وهمت الشحم : أذابتــه ، والتحبتِ اللحم إي قشرته عن العظم أي عوجته فصيرته كالمحجن. وغادرت التراب موراً أي يمور موراً بمعنى يجيء ويذهب ، والغور : الغائر ، والأوزاع : الأقسام المشتتة ، والضهيل : الماء القليل ، وجراعاً جمع جرع وهو مالا يروي من الماء ، والجعْجاعُ : المكان الذي لايطمئن من قعد فيه ، لا أتلفع : لا أشتمل ، بوصيده : أي بأيّ شيء منسوج ، والهيدة : حب الحنظل ، والبخْصاتُ جمع بخص : لحم باطن القدم ، ووقعه من قولهم وقع الرجل إذا اشتكى لحم باطن قدمه ، والزلعة : جراحـــة فاسدة تكون من تشقق اللحم في القدم أو الركبة ومسْلهم : ضامر متغير ومدرهم : من ضعف بصره بسبب جوع أو نحوه ، والمير : العطية من الطعام. هذا وراجع المزهر للسيوطي لتقف على نماذج كثيرة من هذا القبيل .

فما تنزل القرآن ؛ وأقبلت اليه الآذان ، أخذت هذه الكلمات الجافية تختفي عن ألسنة العرب رويداً رويداً ، وأصبح متن اللغة العربية كلها مطبوعاً بالطابع القرآني ، وما ذوق عربي جديد في نفوس العرب أنبتته لديهم الطبيعة القرآنية .

ومردّ ذلك إلى أن كلمات هذا الكتاب المبين ، رغم أنها كلمات عربية لم تتجاوز حدود هذه اللغـــة وقاموسها ، تمتاز ، في صياغتها وموقع كل منها ممّا قبلها وبعدها بجرس مطرب في الآذان لم يكن للعرب عهد به من قبل ، هذا إلى أن كثيراً من الاشتقاقات والصيغ الواردة فيه ، تكاد تكون جديدة في النطق العربي ، وهي مع ذلك توحي بمعناها الى بالفطرة والطبع ، قبل أن يهتدي السامع إليها بالمعرفة والدرس . وسنسهب في ايضـــاح هذا إن شاء الله عنـــد حديثنا عن اعجاز القرآن .

فكان من أثر ذلك أن انصرفت الأذواق الى الاستفادة من كلماته والجديد من صياغته ، وهجرت تدريجياً ما استثقل وغلظ من الالفاظ والتراكيب .

وإنك لتدرك هذا جيداً حينما تعرض للمقارنة نصاً ادبياً من العصر الجاهلي وآخر من العصر الاسلامي ، فستجد أن الأول يمتاز بتضاريس من الجمل والكلمات الثقيلة الخشنة وأن الثاني قد صقلته البلاغة القرآنية في كل من الاسلوب والجمل والكلمات . .

• • •

فهذه خلاصة عن وجوه أهمية دراسة هذا الكتاب العظيم وأثرها في دراسة الادب العربي .

وإذا كنت تؤمن اليوم بهذا الذي ذكرناه من الناحية النظرية والعقلية المجردة ؛ فلسوف تؤمن بذلك على أساس من البرهان التجريبي والتطبيقي عندما تمارس هذا الكتاب الآلهي تلاوة مستمرة ودراسة دقيقة وتأملاً هادئاً .

القسم الأول

تاريخ القرآن وعلومه

القرآن

تعريفه ، وحقيقته

القرآن هو : **اللفظ المعجز الموحَى به إلى محمد ﷺ المتعبد بتلاوته والواصل الينا عن طريق التواتر** .

وإنك إذا تأملت في هذا التعريف ، وجدت فيه قيوداً أربعة ، هي :

المعجز ، الموحَى به ، المتعبد بتلاوته ، المتواتر .

فلنشرح كل واحد منها على حدة ، لنتبين حقيقة القرآن الكريم من وراء هذا التعريف ، ونقف على ضبطه وحدوده .

أولاً المعجز : ويقصد به ما اتصف به القرآن من البلاغة والبيان الذين أعجزا بلغاء العرب كافة عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، رغم التحدي المتكرر، ورغم التطلع الشديد لدى الكثير منهم إلى معارضته والتفوق على بيانه .وللقرآن وجوه غير هذا الوجه في اعجازه ، ولكن الوجه المقصود به منها عند التعريف هو هذا . ولن نطيل هنا في شرح معنى الاعجـــاز القرآني وتحليله ، فإن لذلك موضعاً خاصاً به في هذا الكتاب إن شاء الله .

ثانياً الموحى به : ومعناه ، المنزل عليه من الله عز وجل بواسطة جبريل ، وهذا أهم قيد في تعريف القرآن وتحديد ما هيته .

وإذا كان « الوحي » عنصراً هاماً في حقيقة القرآن وتعريفه ، فلا بدّ من دراسة وافية – وإن كانت موجزة – لهذه الكلمة ، وتحليل صادق لحقيقتها . ومن أهم أسباب ذلك أن دراسات مختلفة حديثه حامت حولها لا قصداً لتفهمها ، بل بغية مدّ غاشية من الغموض عليها ، ثم الوصول بها إلى المعنى الذي يراد ربطها به ، وإن لم تكن ليست منه في شيء .

فلننتبه بفكر موضوعي مجرد وعقل علمي متحرر ، ولنتساءل مع المتسائلين : ماهو هذا الوحي الذي جاء بهذا القرآن فوضعه بين يدي محمد عليه الصلاة والسلام؟

هل هو نوع من الإلهام النفسي أو أي حركة فكرية داخلية ؟

أم هو إشراق روحي جاءه عن طريق الكشف التدريجي ؟

أم هو ضرب من الصرع والجنون كان ينتابه كما قد قيل ؟

أم هو استقبال لحقيقة ذاتية مستقلة عن كيانه يتلقاها من خارج فكره وشعوره ؟

ونحن لا نملك سبيلا علمياً صحيحاً للإجابة على هذه الأسئلة إلا بالرجوع الى حقائق التاريخ الثابتة الواصلة إلينا عن طريق النقل الصحيح . وإذا رجعنا نسأل حقائق التاريخ فإنها تضعنا أمام حديث قصة بدء الوحي الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

والحديث طويل ، لا داعي في هذا المجال لسرده كله ؛ ولكنا نجتزىء منه ما يكشف لنا سبيلًا صحيحة للاجابة على هذه الأسئلة .

ففي الحديث أن ملكاً فاجأه وهو في غار حراء يتعبد ، فقال له : إقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه الملك فغطّه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال : إقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، وتكرّر هذا من الملك والرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وفي المرة الثالثة قال له الملك : (إقرأ باسم ربك الذي

خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرمُ الذي علّم بالقلمِ ، علم الانسان ما لم يعلم) فكان ذلك أول ما نزل من القرآن .

وفي الحديث أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام نزل عقب ذلك من الغار عائداً إلى البيت وإن فؤاده ليرتجف خوفاً . وفي الحديث أيضاً أن خديجة أخذت به الى ورقة بن نوفل ، وكان شيخاً كبيراً قد تنصّر في الجاهلية ، فأخبره بالأمر ، فقال له ورقة : إن هذا هو الناموس (أي الوحي) الذي نزل على موسى ، وطمأنه أنه ليس بشرّ . وفي الحديث أيضاً أن الوحي قد انقطع بعد ذلك مدة طويلة من الزمن ، وأن الضيق والألم قد استبدا به ﷺ من ذلك ، خوفاً من أن يكون قد أساء فتحوّل عنه الوحي لذلك . ثم إنه رأى ذلك الملك مرة أخرى ، وقد ملأ مظهره ما بين السماء والأرض ، قال : فرعبت منه ورجعت فقلت : زملوني زملوني . . فنزل عليه قوله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر) الى قوله (والرجز فاهجر) ثم تتابع الوحي بعد ذلك .

هذه الحقائق الواردة في هذا الحديث لا يمكن أن نتجاهلها أو نردها بشكل ما لسببين :

أولها – أن ظاهرة الوحي التي نتحدث عن حقيقتها إنما وصلت الينا عن طريق هذا الحديث ونحوه ، فإذا ضربت صفحاً عنه فاضرب صفحاً عن هذه الكلمة نفسها ، إذ لا معنى للبحث في شيء غير موجود ولا واقع من أساسه .

ثانيها – أن الحديث ليس من قبيل هذه الاستنتاجات النظرية أو التاريخية التي يجنح اليها كثير من باحثي هذا العصر ويبنون عليها أحمالاً وأثقالاً من الأحكام الخطيرة الهامة ، بل هو خبر نقل بواسطة سند متصل من الرواة ، خلا أصحابها – بعد الدراسة لترجمتهم وأحوالهم – عن أي تهمة تبعث الشك في كلامهم .

وإذا فرضنا أن يكون الوحي ليس إلا شعوراً نفسياً أو اشراقاً روحياً أو

إلهاماً داخلياً ، ثم عدنا الى هذا الحديث ، وجدناه يناقض هذا الفرض مناقضة صريحة صارخة ، لأسباب كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ً — ان شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي، لا يستدعي الخوف والرعب واصفرار اللون ، وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحيـــة ، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى ؛ وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين والملهمين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة !.

وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون — كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل الى اصطناعها والتمثيل بها ، حتى لو فرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه عليه الصلاة والسلام ، وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة الى عكسها تماماً .

٢ — ان صاحب الإلهام والاشراق النفسي والروحي ، ليس من شأنه أن تتجسد إلهاماته أمام عينيه فجأة ، فيرتعد منها ثم يحسبها أتيّاً من الجن . ولقد فوجيء عليه الصلاة والسلام بالملك يخاطبه ويكلمـــه ، ولقد ارتجف خوفاً منه وذهب في محاولة معرفتـه كل مذهب ، حتى ظنه أنه قـد يكون من الجان ، وذلك معنى قوله لخديجة (لقد خشيت على نفسي) .

٣ — لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء ، مدة طويلة ؛ ولقد استبد به القلق والضجر من أجل ذلك ، ثم تحول القلق لديه الى خوف في نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قـلاه ، بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه ، وراحت تحدثه نفسه كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقي بنفسه منها.. إلى أن رأى بنفســـه الملك الذي رآه في حراء وقد ملأ شكلـه ما بين السماء

والأرض يقول : يا محمد أنت رسول الله الى الناس .

إن هـذه الحالة التي مر بها محمد عليه الصلاة والسلام ، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ضرباً من الهوس والجنون . إذ إن من البداهة أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لايمكن أن يمر إلهامه أو تأملاته بشيء هذه الأحوال .

وأنت إذا تأملت في هذا الذي ذكرناه ، اتضحت أمامك الحكمة الإلهية العليا في أن يولد الوحي والنبوة في حياة محمد ﷺ بهذا الشكل الذي ورد به الحديث .

فقد كان الله عزوجل قادراً على أن يربط على قلب رسوله ، ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله الى الناس ، ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة ، وشخصيته بعدها ؛ وبيان أن شيئاً مما قد نزل اليه من هذا الكتاب لم يطبخ في ذهنه مسبقاً ، ولم يتصور الدعوة الى شيء منه سلفاً .

غير أن هذا وحـــده لا يكفي جواباً على كل شيء في الموضوع . فقد يسأل سائل : فلماذا كان ينزل عليه ﷺ الوحي بعد ذلك ، وهو بين الكثير من أصحابه ، فلا يرى الملك أحد منهم سواه ؟

والجواب أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار ، إذ إن قوة الإبصار فينا محدودة بحد معين ، وإلا لاقتضى ذلك أن يكون الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . على أن من اليسير على الله عزوجل — وهو الخالق لهذه العيون المبصرة — أن يزيد في قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى . ولعلك تعلم أن هنالك ألواناً لا تراها كل العيون ، وهنالك أيضاً (كما يقول مالك بن نبي) مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء

البنفسجي لا تراها أعيننا ، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون . فلقد توجد عيون تكون أقل أو أكثر حساسية (١) .

ثم إنك إذا ذهبت تحلل الوحي بانه ظاهرة نفسية داخلية ، لامتزج القرآن بالحديث ، ولما أمكن أن يكون ثمة أي فرق بينهما ، مع أن الفرق بينهما ظاهر واضح ، يتمثل في أسلوب كل منهما ويتمثل في علاقته ﷺ بكل منهما .

فقد كان يرسل ألفاظ الحديث إرسالاً ، مكتفياً بان يستودعه ذاكرة أصحابه ، على حين يأمر بتسجيل كل مايوحى إليه من آي القرآن ويظلّ يكرره ويعيده خوفاً من أن ينساه فلا يذكره .

وكان يُسأل عن كثير من الأمور فلا يجيب عليها ، وربما مرّ على امساكه عنها زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ؛ طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأنه ، وربما تصرف هو نفسه في بعض الأمور على نحو معيّن ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه بل وربما انطوت على عتب ولوم له .

ثم انه عليه الصلاة والسلام كان يعلن في كل مرة أن القرآن كلام الله ، وأنه ليس إلاّ أميناً على نقله وتبليغه ، وأنه يتلقاه من جبريل عليه السلام . ولقد ظل عليه الصلاة والسلام صادقاً أربعين سنة مع قومه ، حتى كان بينهم مثال الصدق والأمانة . وبدهي أن مثل هذا الانسان لا بدّ أن يكون قبل كل ذلك صادقاً مع نفسه ، يتحرى الدقة في كل مشاعره وأقواله واحساساته .

وبعد ذلك كله ، فهو على ما أجمع عليه المؤرخون ، كان أمياً لم يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه ، ولم يدرس تشريعاً ولا تاريخاً ولا شيئاً من قصص الرسل والأنبياء السابقين ، فمن أيّ نافذة طبيعية يمكن لهذه الالهامات كلها أن تنزل عليه ، وكيف لها بأن تنبع هكذا من داخل قلبه وعقله ؟

---

(١) انظر الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي

لا جرم أن الوحي القرآني إذاً ، **إنما هو استقبال منه ﷺ لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي ، وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العملي .**

أما قول بعض المستشرقين بأنه لم يكن إلا نوعاً من الصرع ينتابه بين الحين والآخر ، فما هو من النظريات العلمية الموضوعية في شيء حتى نضعه تحت مجهر البحث والنقاش ، ونضيع وقتاً قصيراً أو طويلًا في الكلام عنه .

ونعود بعد هذا إلى شرح القيود المأخوذة في تعريف القرآن الكريم :

ثالثا ـ التعبد بتلاوته : والمقصود به أن من خصائص هذا الكتاب الكريم أن مجرد قراءته تكسب القارىء أجراً ومثوبة عند الله ، وأن ذلك يعتبر نوعاً من العبادة المشروعة ، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءة شيء منه ولا يغني عنه غيره من الأذكار أو الأدعية أو الأحاديث .

رابعاً ـ وصوله عن طريق التواتر : ومعناه أن قرآنية آية من القرآن لا تثبت حتى تصل إلينا بطريق جموع غفيرة لا يمكن اتفاقها على الكذب ، ترويها عن جموع مثلها إلى الناقل الأول لها وهو محمد عليه الصلاة والسلام .

فإذا تأملت هذه القيود الأربعة في التعريف تصورت حقيقة القرآن خالية عن شوب أيّ لبس بالحديث النبوي أو القراءآت الشاذة أو الحديث القدسي أو الترجمة الحرفية أو غير الحرفية للقرآن . إذ الحديث ليس بمعجز والقراءآت الشاذة غير متواترة والحديث القدسي غير معجز ، واللفظ فيه من الرسول عليه الصلاة والسلام ، والترجمة ليست هي اللفظ المنزل .

نزول القرآن منجماً
والحكمة في ذلك

يقول الله تعالى في كتابه : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا) .

وقال أيضاً : (وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا) .

تعلم من دلالة هاتين الآيتين ، ومما ثبت ثبوتاً قاطعاً في التاريخ عن طريق السند الصحيح ، أن القرآن لم ينزل على رسول الله ﷺ جملة واحدة كما نزلت التوراة على سيدنا موسى ، بل كان نزوله متدرجاً ، فتارة تنزل عليه الآية أو الآيتان أو الثلاث ، وتارة تنزل عليه سورة بجملتها ، كالفاتحة ، والمدثر ، وهذا معنى أنه كان ينزل منجماً ، وقد ظلت آيات هذا الكتاب المبين تتابع في مهل وتدرج ، حتى نزلت آخر آية منها قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال . وهي قوله تعالى :

(واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)[1]

وذلك على بعض ما روي في ذلك[2].

---

(١) البقرة : ٢٨١

(٢) أنظر مناهل العرفان ١/٢٠٨ وتفسير القرطبي ١/٢٧

حكمة نزول القرآن منجماً :

هنالك حكم هامة وكثيرة تتعلق بنزول القرآن منجماً ، نذكر منها ما يلي:

أولاً - لقد قضت سنة الله تعالى في عباده أن يلاقي النبي عليه الصلاة والسلام أذى كبيراً من قومه من أجل نهوضه بينهم بتبليغ رسالة ربه ، ولقد لاقى من ذلك أنواع الشدائد التي جعلته بينهم مدة طويلة غريباً لا ناصر له .

ولقد كان لاتصال الوحي به إذ ذاك وتتابع نزول الآيات عليه تشدّ من أزره ، وتحمله على الصبر والمصابره ، وتعده بالنصر والتأييد في النهاية - كان لذلك أبلغ الأثر في مواساته وتخفيف تلك الشدة عنه وإزاحة معاني الغربة والضعف عن نفسه . فمن هذه الآيات مثلاً قوله تعالى :

(فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود). ق : ٣٩ ، ٤٩

ومن ذلك قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) الحجر : ٩٤ - ٩٩ .

فلو أن القرآن نزل عليه كله جملة واحدة ، لكان لانقطاع الوحي عنه بعد ذلك أثر كبير في استشعاره الوحشة والغربة . ومهما يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتي من العزيمة والصبر ، فإن لبشريته أيضاً أثراً بيناً في حياته ما دام أنه بشر .

ومهما يكن عنده من الإيمان ما يكفي لأن يحمله على تبليغ دعوة ربه والجهاد

في سبيلها ، فليس به غناء عن المواساة والمعونة والتصبير إذ يأتيه كل ذلك من ربه المرة تلو المرة يعيده إلى الأمن والإنشراح والأنس والرضى .

وهذا المعنى هو ما عبر عنه القرآن بالتثبيت في قوله تعالى : (كذلك لنثبّت به فؤادك) .

ثانياً – كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فليس لديه من الوسائل الكسبية ما يضبط ويحفظ به كل ما ينزل عليه إلا وسيلة التكرار والحفظ . فكان لا بدّ من نزول الآيات بتدرج وخلال فترات متقطعة من الزمن حتى يكون السبيل إلى حفظه ووعيه أيسر . ورغم ذلك فقد كان من عادته عليه الصلاة والسلام إذا نزلت عليه الآية من القرآن أن يأخذ في تكرارها ويستعجل في محاولة حفظها ويظل يحرك لسانه بها خشية أن تتفلت من حفظه إلى أن نزل عليه قوله تعالى (لا تحرّك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه) .

ثالثاً – احتوى القرآن على متن الفقه الاسلامي كله ، أي على عامة أحكامه في الجملة سواء منها مايتعلق بالمعاملات المدنية او الأحوال الشخصية أو العقوبات أو النظم الدستورية والمالية .

وكان العرب قبل الإسلام متفلتين عن كل قيد ، لا يخضعون لقانون ، ولا يرتبطون بأي تنظيم ، فكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة في طفرة مفاجئة ، إلى التقيد بعامة أحكام الاسلام ونظمه وقوانينه .

فمن أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التربوية التي لا بدّ منها ، وهي وسيلة التدرج في نقلهم من حياة الفوضى والتفلت ، إلى حياة النظام والتقيد بالمعايير التي لا بد منها في المجتمع الصالح . فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها ، حتى إذا آمن الناس وثابوا إلى عقيدة التوحيد ، نزلت آيات الحلال والحرام وعامة الأحكام في مهل وتدرج .

وفي ذلك يروي الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إنما نزل

أو ما نزل من القرآن سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا .

رابعاً ـ اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون عامة أحكامه التي تضمنها كتابه المبين ، جواباً على أسئلة أو حلاً لمشاكل واقعة ، حتى تكون أوقع في النفس وألصق بالحياة . وتلك وسيلة تربوية ظاهرة لا تحتاج إلى مزيد بيان لها . وإنما سبيل ذلك أن تتدرج هذه الأحكام وآياتها في النزول تنتظر مناسباتها وظروفها .

ولذلك تجد أن أكثر آي القرآن إنما نزل جواباً على سؤال أو حلاً لاشكال ، فمن الأول قوله تعالى :

(ويَسألونَكَ عن اليتامَى ، قُلْ إصلاحٌ لهُمْ خيْرٌ ، وإنْ تُخَالِطُوهُمْ فإخوانُكم ..)

وقوله تعالى : (يَسألونَكَ عن المحيض قُلْ هُوَ أذىً ، فاعتَزِلوا النّساءَ في المحيض ..)

وقوله جل جلاله : (يَسألونَكَ عن الأنفال ، قل الأنفالُ للهِ والرّسول ..)

ومن الثاني قوله تعالى :

(ولا تَنكحوا المشركات حتى يُؤْمِنَّ ، ولَأَمَةٌ مُؤمِنةٌ خَيرٌ مِن مُشركةٍ ولو أعْجَبَتْكم) .

وقوله تعالى : (إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ لتحكُمَ بين الناسِ بما أراكَ اللهُ ولا تكُنْ للخائِنينَ خَصيما) .

فقد نزل كل منها حلاً لمشكلة حدثت ، ويطول بنا الحديث لو سردنا لك قصة كل منها .

خامساً ـ اقتضى التدرج بالناس في التشريع أن يوجد ثمة ناسخ ومنسوخ ، إذ رب حكم كانت المصلحة والرحمة بالناس تقتضي أخذهم به على مراحل ، كتحريم

الخمر مثلاً ، فقد اكتفى القرآن في أول الأمر بالإلماح إلى أن أضراره أكثر من فائدته ، وذلك في قوله تعالى : (يسألونَكَ عن الخمْرِ والميْسِرِ ، قُلْ فيهما إثْمٌ كبيرٌ ومنافِعُ للناس وإثْمُهما أكبرُ من نفعهما) ، حتى إذا استقر في النفوس ذلك نزلت آية تنهى الناس عن السكر في أوقات الصلاة ، وذلك في قوله (يا أيُّها الذين آمنوا لا تقْرَبوا الصّلاةَ وأنتم سُكارى حتّى تعلموا ماتقولون ..) وهو كما ترى تحريم جزئي في فترات متقطعة من الزمن . فلما أخذ الناس أنفسهم بذلك واعتادوا الامتناع عن الخمر في تلك الأوقات ، نزلت آية قاطعة تحرمه تحريماً كلياً . فذلك هو قوله تعالى : (إنما الخمرُ والميْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفلحون) . المائدة : ٩٠

وأنت خبير أن كل مرحلة من هذه المراحل السابقة إنما هي نسخ لما قبلها ، وتصعيد بالناس إلى طور جديد نحو تكامل التشريع واستقراره .

وهذا لايتم – كما تعلم – إلا بنزول القرآن منجماً على فترة طويلة من الزمن .

وثمة حكم أخرى جليلة لهذه الظاهرة في نزول القرآن ، نمسك عن سردها والإطناب فيها استغناء بما ذكرنا ، واكتفاء بالنماذج عن الاستقصاء .

أسباب النزول

تبيّن لك مما ذكرناه من نزول القرآن منجماً وأسباب ذلك ، أن كثيراً من آيات القرآن كان ينزل بمناسبات ولأسباب .

والواقع أن آيات القرآن تنقسم إلى طائفتين بالنظر لأسباب النزول ، فأما طائفة منها – وهي التي تتعلق بالتشريع والأحكام والأخلاق – فمعظمها كان نزوله مرتبطاً بأسباب ووقائع ؛ وأما الطائفة الأخرى – وهي التي تتحدث عن الأمم الغابرة وما حلّ بها أو عن وصف الجنة والنار والقيامة – ففيها الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب أو واقعة معينة .

وسنتحدث أولاً عن حكمة هذا الأمر ، ثم عن أمثلة ونماذج لذلك ، ثم عن أهمية معرفة أسباب النزول للتمكن من تفسير الآيات على وجهها الصحيح ، ثم عن أهمية « أسباب النزول » من حيث إنه علم مستقل من علوم القرآن وعن اهتمام العلماء بالكتابة فيه وافراد التآليف عنه .

أولاً – حكمة ارتباط الآيات بأسباب النزول :

ولقد علمت أن في القرآن الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب . واذا تأملت ، وجدت أن معظم ما نزل ابتداء إنما هو من نوع الوصف والإخبار ، وأن معظم ما نزل بسبب إنما هو من نوع الأوامر والنواهي والتوجيه والإرشاد .

وهذه الظاهرة تدلك على الحكمة في هذا الأمر .

فهذا النوع الثاني من الآيات ، إنما شأنه تحويل حياة الناس إلى الأفضل وصدّهم عن السيّىء والقبيح ، وهدايتهم إلى الأقوم . وأنت خبير أن الأفكار التوجيهية والأحكام التشريعية تكون نظرية بمقدار بعدها عن ظروفها ووقائعها المعدة لها ، وتكون حقائق تطبيقية بمقدار قربها الى ظروفها وارتباطها بأسبابها العملية . ولن تجد وسيلة الى ترسيخ حكم من الأحكام في الأذهان وتنبيه الأفكار الى مدى صلاحه وقيمته ، خيراً من أن تعرضه على الناس في مجال تطبيقه وتقدمه عند الحاجة اليه . وإنها لطريقة تربوية معروفة لا تحتمل البحث والمراء .

فمن أجل ذلك قدّم القرآن الكريم الى الناس أحكامه التشريعية ومعظم توجيهاته الأخلاقية منثورة ومقسمة على الوقائع والأحداث أو الأسئلة والاستشكالات ، حتى تمتزج هذه الأحكام مع الوقائع وتغرس في تربة التطبيق فور ظهورها وولادتها ، فيكون ذلك أدعى لحفظها وأبين لقيمتها وصلاحيتها .

أما النوع الأول ، وهو ما يتعلق بوصف القيامة والجنة والنار ، وذكر القصص ، فليس الشأن في ذلك متوقفاً على ما ذكرناه ، فسيّان في تبليغها للناس واخبارهم عنها أن تنزل آياتها ابتداء أو لمناسبة وسبب .

أمثلة لأسباب النزول :

١ً — روى مقاتل والكلبي أن رجلًا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال ، فمنعه عمه ، فترافعا إلى النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية :

(وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حُوباً كبيراً) النساء[1] : ٢

٢ً — روى البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه قال : عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة يمشيان ، فوجداني لاأعقل ، فدعا بماء فتوضأ ثم رشّ عليّ منه فأفقت ، فقلت كيف أصنع في مالي يارسول الله ؟ فنزل قوله تعالى[2] :

(١) انظر اسباب النزول الواحدي : ص ٨١

(٢) البخاري كتاب التفسير : ج ٨/١٦٨ مع شرحه فتح الباري

(يوصيكمُ الله في أولادكم للذكر مثلُ حظ الأنثيين ،فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك .. » . النساء الآية : ١١

٣ً ــ ذكر علماء التفسير أن أبي ابن خلف وعقبة ابن أبي معيط كانا متحالفين فصنع عقبة طعاماً دعا الناس إليه ودعا رسول الله ﷺ أيضاً، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: ماأنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأكل من طعامه ، وكان أبي بن خلف غائباً ، فلما أخبر بقصته قال: صبأت ياعقبة؟! فقال أبي: والله ماصبأت ولكن دخل علي الرجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له ،فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فقال أبي: ماأنا بالذي يرضى منك أبداً حتى تأتيه فتبصق في وجهه وترد عليه دينه . ففعل ذلك ، وقال الضحاك : لما بصق في وجه رسول الله ﷺ عاد بصاقه في وجهه فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه وكان أثر ذلك فيه حتى الموت (١) . ففي ذلك نزل قوله تعالى :

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا ، ياويلتي ياليتني لم أتخذ فلاناً خليلًا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً) . الفرقان : ٢٧

٤ً ــ أخرج الحاكم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها ، أنه جاء عبد الله بن أم مكتوم ــ وهو ضرير ــ فقال يارسول الله أرشدني ، وعند النبي ﷺ بعض عظماء المشركين ، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخرين ، فنزل قوله تعالى (٢)

(عبس وتولّى أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزّكى ، أو يذّكر فتنفعه الذكرى ..) الآيات .

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٩١

(٢) انظر فتح الباري على صحيح البخاري : ٨/٤٨٩ .

أهمية معرفة أسباب النزول :

لمعرفة أسباب نزول الآيات ، أهمية كبرى في تجلية معانيها ، والوقوف على حقيقة تفسيرها ، إذ رب آية من القرآن يعطي ظاهرها دلالات غير مقصودة منها ، فإذا وقفت على مناسبتها وسبب نزولها إنحسر عنها سبب اللبس وظهرت فيها حقيقة المعنى ومدى شموله واتساعه .

فمن ذلك قوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب ،فأينما تولّوا فثمّ وجه الله ، إن الله واسع عليم) البقرة : ١١٥

فالمتبادر من ظاهرها أن الإتجاه في الصلاة إلى كل الجهات سواء ، فللمصلي أن يتجه إلى حيث يشاء في صلاته . ولكنك إذا وقفت على سبب نزول هذه الآية علمت أنها لاتحمل هذه الدلالة المطلقة ، وسببها على ماروواه الواحدي في كتابه أسباب النزول ؛ عن جابر عن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأصابتهم ظلمة ، فلم يعرفوا القبلة ، فاتجه كل منهم ناحية حسب ظنه واجتهاده ، فلما قفلوا عائدين سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فسكت ، فأنزل الله تعالى ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله [١] .

ولولا معرفة سبب النزول لتمسك الواهمون بمثل قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها) دليلاً على عدم حرمتها لما فيها من المنافع .

فمن أجل ذلك يقول الواحدي في مقدمة كتابه أسباب النزول (.. إذ هي – أي أسباب النزول – أوفى مايجب الوقوف عليه وأولى ماتصرف العناية إليه ، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها) [٢] .

إهتمام العلماء بالكتابة في « أسباب النزول »

ونظراً لهذه الأهمية التي ذكرناها لمعرفة أسباب نزول الآيات ومناسباتها، إهتم الأئمة

---

(١) أسباب النزول : ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤ .

رحمهم الله بالكتابة فيها وتجميع الروايات والأخبار المتعلقة بها ، بل أخذ العلماء يفردون المؤلفات في هذا الموضوع حتى غدا « أسباب النزول » إسم علم مستقل برأسه من علوم القرآن .

فأقدم من كتب في هذا الفن المحدث علي بن المديني شيخ الإمام البخاري ، المتوفي عام (٢٣٤).

وممن ألف فيه ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى عام (٤٦٨ هـ) ، ومنهم الحافظ بن حجر العسقلاني المتوفى عام (٨٥٢ هـ) ، ومنهم الإمام السيوطي المتوفى عام (٩١١) [١]

★ ★ ★

وبما أوضحناه لك من تدرج القرآن في النزول ، ونزول الكثير منه لأسباب ومناسبات ، تعلم أن القرآن لم تنزل آياته على الرسول ﷺ طبق هذا الترتيب الذي تراه وهو الترتيب الذي كان في مكنون علم الله تعالى ، وتنزل به جملة واحدة الى السماء الدنيا وإنما كان ينزل من ذلك ماتدعو إليه الحاجة ويتناسب مع تدرج التشريع ، حتى تكامل كله .

---

(١) انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٤٧ .

كيفية جمع القرآن وكتابته

والأدوار التي مرّت على ذلك

أولاً – ترتيب القرآن وكتابته في عهد رسول الله ﷺ :

استغرق نزول القرآن من الزمن ثلاثة وعشرين عاماً ، هي جملة العمر الذي تكامل فيه هذا الكتاب العظيم نزولاً وترتيباً بين سوره وآياته . روى البخاري عن عائشة وابن عباس أنهما قالا : لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشراً[1] .

فكيف تم ترتيبه وتنسيقه بهذا الشكل ، وهل كان ثمة من يكتب كل ماينزل منه في عهده ﷺ ؟

أما الترتيب والتنسيق فإن الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أن ترتيب الآيات إلى جانب بعضها ، حسبما عليه المصحف الآن ، إنما هو ترتيب توقيفي ، لم يجتهد فيه رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة في عهده أو من بعده ، وإنما كان يتلقى ترتيبها الى جانب بعضها وحياً من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام .

روى أحمد بإسناده عن عثمان بن ابي العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ ، إذ شخص ببصره ثم صوّبه ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع

---

(١) صحيح البخاري : ٩٦/٦

هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة (إن اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى) الآية .

وروى القرطبي بسنده عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : (واتّقوا يوماً تُرجَعونَ فيهِ إلى الله ثُم تُوَفّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمون) . فقال جبريل : « يا محمد ، ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة[1] » .

وروى البخاري بسنده عن ابن الزبير ، قال قلت لعثمان : هذه الآية التي في البقرة (والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويَذَرُونَ أزواجاً) – إلى قوله (غيرَ إخراجٍ) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ قال : يا ابن أخي ، لا أغير شيئاً من مكانه .

وبناء على ذلك فقد تم إجماع العلماء ومختلف المؤرخين والباحثين على أن ترتيب آيات القرآن عمل توقيفي من قبل الله عز وجل .

وما يقال عن ترتيب الآيات ، هو الذي يقال أيضاً في ترتيب السور ووضع البسملة في الأوائل . قال القاضي ابو بكر بن الطيب ، رواية عن مكي رحمه الله في تفسير سورة « براءة » إن ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو توقيف من النبي ﷺ ، ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة . وروى القرطبي عن ابن وهب قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلها بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا في المدينة ؟ فقال ربيعة : قد قُدّمتا وألّف القرآن على علم ممن ألّفه[2].

إلاّ أنه وقع بحث بين علماء هذا الشأن في حكم من أحب أن يرتب سور

---

(١) تفسير القرطبي : ٦١/١ وانظر صحيح البخاري ج : ٥ كتاب التفسير ص : ٦٥

(٢) انظر تفسير القرطبي : ٥٩/١ و : ٦١/٨

القرآن طبقاً لتاريخ نزولها لا لترتيبها الأخير الذي مرأ به الرسول ﷺ ، هل هو عمل جائز أم لا ؟ وليس لنا في هذا المجال غرض يتعلق بهذا البحث .

وإما كتابته فأنت تعلم أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ؛ أجمع على ذلك عامة المؤرخين والباحثين . قال الله عزوجل : (وما كنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتابٍ ولا تَخطُّهُ بيَمينِكَ ، إذاً لارْتابَ المُبْطِلون) .

إلاّ أنه كان يعهد بكتابة ما يتنزل عليه من القرآن الى أشخاص من الصحابة بأعيانهم ، كان يطلق عليهم اسم كتاب الوحي ، وأشهرهم الخلفاء الأربعة ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبه والزبير بن العوام وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن رواحة[1] .

وقد كانوا يكتبون القرآن فيما تيسر لهم من العظام والسعف والواح الحجارة الرقيقة . وقد كانوا يضعون هذا الذي يكتبونه في بيت رسول الله ﷺ ، ثم يكتبون منه لأنفسهم صوراً أخرى يحفظونها لديهم .

فعمل كتاب الوحي في عهده ﷺ لم يكن جمعاً لكتاب الله تعالى بين دفتين ، وإنما كان مجرد تسجيل كتابي له على متفرقات العظام والحجارة وغيرها ، مع ترتيب سوره وآياته حسب ما يوحى به الى رسول الله ﷺ .

ولقد كان في الصحابة من يتتبع آيات القرآن وترتيبها فيحفظها عن ظهر قلب ، حتى حفظوا بذلك القرآن كله ، فمن مشاهيرهم : عبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت .

وكان سائر الصحابة يشتركون بحفظ مقادير كبيرة من القرآن ، حسب ما يكون كتب منه لنفسه أو حسب ما يتيسر له . وظل الصحابة يعكفون على حفظ القرآن غيباً حتى ارتفعت نسبة الحفاظ منهم الى عدد لا يحصى ، يدلك على ذلك ما يذكره الرواة من أن موقعة اليمامة التي وقعت في زمن أبي بكر رضي

---

(١) أنظر فتح الباري : ١٨/٩

الله عنه قد قتل فيها سبعون صحابياً من حفظة القرآن ، وروى القرطبي أنهم سبعمائة ، وهي رواية ضعيفة ولا شك[1] ، إلا أنك تستطيع أن تفهم من ذلك نسبة الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن في صدورهم .

ويتضح لك من هذا الذي ذكرناه أن القرآن وعاه الصدر الأول من الصحابة وبلغوه إلى من بعدهم بطريقتين :

إحداهما : الكتابة التي كانت تتم بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام لأشخاص بأعيانهم وكل إليهم هذا الأمر .

الثانية : حفظه في الصدور عن طريق التلقي من كبار قراء الصحابة وحفاظهم الذين تلقوه عن رسول الله ﷺ ، وأقرّهم على كيفية النطق والأداء .

كما يتضح لك أن القرآن رغم ذلك لم يجمع في مصحف على عهده ﷺ ، والسبب هو ضيق الوقت بين آخر آية نزلت منه وبين وفاته عليه الصلاة والسلام ، فقد علمت مما ذكرناه أن الفترة بينهما لم تزد على تسع ليال في أكثر الروايات وأقربها الى الاعتماد .

★ ★ ★

ثانياً ـ ما جدّ من ذلك في عهد أبي بكر :

قلنا إن القرآن كتب كله في عهد الرسول ﷺ ، ولكن متفرقاً دون أن يجمع في مصحف واحد بين دفتين كما هو اليوم .

فلما توفى النبي ﷺ وتولى الخلافة من بعده أبو بكر رضي الله عنه ، ووقعت معركة اليمامة التي قتل فيها كما قلنا عدد كبير من حفظة القرآن ، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن وحفظه بين دفتين

(١) انظر تفسير القرطبي : ١/٥٠

مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبيّ وابن مسعود فيختلف الناس في قراءته اذ لا يكون عندهم إمام يجتمعون عليه .

ولننقل لك نص ما رواه البخاري في ذلك . روى البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أي عندما قتل أهل اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه ، إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد : قال أبو بكر ، إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن . . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه (١) .

فالجديد الذي أمر به أبو بكر رضي الله عنه ، هو جمع ما تفرق من الرقاع والعسب وغيرها ، ثم استنساخها منها إلى صفحات مرتبة مجتمعات ، تكون محفوظة في دار الخلافة ومرجعاً للمسلمين في كيفية القراءة والأداء .

وإذا وقفت على النهج الذي كان يسير عليه زيد رضي الله عنه في الاستيثاق من الآية عند كتابتها ، أدركت مدى الدقة العظيمة التي امتدت مع المراحل التاريخية المختلفة لكتابة القرآن وجمعه . فقد كان لا يكتب الآية من القرآن

---

(١) البخاري : ٩٨/٦

إلا بشاهدين يجتمعان عليها من حيث اللفظ والأداء وهما الحفظ والكتابة ، رغم أنه كان هو نفسه في مقدمة حفاظ القرآن غيباً ، فكان في غنى عن أن يحمّل نفسه هذا الجهد ، ولكن الورع في الدين والحيطة في النقل حملاه على أن يضع نفسه ـ من أجل أنه هو تولى الكتابة ـ في الموضع الأخير بعد عامة الصحابة .

وهذا المنهج الشديد الذي اتبعه زيد ، هو الذي يفسر لك معنى قوله أنه لم يجد الآيات الأخيرة من سورة التوبة إلاّ مع أبي خزيمة الأنصاري . فليس معنى كلامه هذا أنه اعتمد في كتابتها على خبر الواحد فقط وهو أبو خزيمة ، وإنما هو مزيد في الحيطة منه ، فهو لا يكتفي بحفظه وحفظ بقية الصحابة لها باللسان ، بل ولا يكتفي بما كتب أيضاً إلا بالذي كان داخلاً منه تحت إشرافه عليه الصلاة والسلام وتولى كتابته أحد كتاب الوحي أنفسهم . فمن أجل ذلك ظل متوقفاً عن تسجيل هذه الآيات رغم حفظه لها ورغم وجودها في صدور عامة الصحابة إلى أن عثر لها على الشاهد الثاني أيضاً ، وهو الكتابة الموثوقة الصحيحة .

. . .

ثالثاً ـ ما جد من ذلك في خلافة عثمان :

وقد ظلّ الأمر على ما قام به أبو بكر رضي الله عنه ، مدة خلافته ، ثم مدة خلافة عمر رضي الله عنه ، وفي صدر من خلافة عثمان رضي الله عنه . إلا أنه حدث بعد ذلك أمر نبّه المسلمين إلى ضرورة وجود نسخ متعددة من هذا المصحف الإمام الذي اعتمده الخلفاء ، لتوزيعها في الأمصار وجمع الناس عليها ، كي لا يكون للعجمة واللهجات المختلفة سبيل إلى اختلاف الناس في القراءة أو إلى تحريف شيء من آي القرآن لفظاً أو أداء .

ولننقل لك مرة أخرى ما رواه البخاري بسنده في ذلك : (عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفةَ اختلافهم في

القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردّها اليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف الى حفصة ، فأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[1] .

وإنك لتدرك من هذا النص أن هنالك فرقاً من ثلاثة وجوه بين ما فعله عثمان رضي الله عنه وما كان قد فعله من قبله أبو بكر رضي الله عنه .

الأول – أن السبب فيما فعله عثمان إنما هو ما رآه من اختلاف بعض المسلمين في قراءة القرآن ، من أثر اتساع الفتوحات ودخول قدر كبير من الأعاجم في الإسلام ، يدلك على ذلك ما قاله حذيفة بن اليمان وقد أفزعه ما رآه من بادرة الاختلاف في قراءة القرآن ، وهذا ما حمله رضي الله عنه على أن يتشدد في المسألة فيأمر باحراق كل ما قد يوجد من صحف ومصاحف أخرى في أيدي الناس ، حصراً للاعتماد وحيطة في الضبط ، وانما كان ذلك منه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلّه أهل الاسلام وشاورهم في الأمر ، فاتفقت كلمتهم على استنساخ المصاحف المتعددة من الأصل المعتمد واطراح ما سواها . روى القرطبي عن عمير بن سعيد قال قال عليّ رضي الله عنه : لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان[2] .

---

(١) صحيح البخاري : ٩٩/٦

(٢) انظر تفسير القرطبي : ٥٢/١ و٥٥ والبرهان : ٢٣٠/١

أما ما فعله أبو بكر فإنما كان ذلك بسبب مصرع كثير من حفاظ القرآن ، كما قد رأيت .

الثاني : اعتمد عثمان رضي الله عنه في كتابة المصاحف على لجنة مكونة من أربعة أشخاص من كبار القراء والحفاظ ، من بينهم زيد بن ثابت . أما الجمع الأول فقد اعتمد فيه أبو بكر كما قد رأيت على زيد بن بن ثابت فقط ، ولعل ذلك لمضاعفة الجهد هنا بسبب كتابة النسخ المتعددة .

الثالث : الصحف التي جمعت في المرة الاولى ، إنما كان المراد منها أن تبقى في دار الخلافة كمعتمد ومرجع للدولة ، اذ لم يكن في البال ما تسرب الى بعض الألسنة أخيراً من الاختلاف في قراءة القرآن بسبب شيوع العجمة واتساع الرقعة الاسلامية . أمّا هذه الكتابة الثانية فإنما أريد منها اعتمادها ثم توزيعها في الامصار لتتوحد القراءة على أساسها .

إلا أن الباحثين اختلفوا في عدد المصاحف التي استنسخها ، والراجح الذي عليه اكثر الباحثين أنها سبعة مصاحف ، استبقى واحداً منها عنده وهو الذي سمي بالمصحف الإمام ووزع سائرها على الكوفة والبصرة والشام واليمن ومكة والبحرين [1] .

ثم انك اذا تأملت في قصة هذا الجمع الثاني وقفت على حقيقتين لا بد من ادراكهما :

الأولى : أن ترتيب مصاحف عثمان ورسمها انما كان على نسق ما كتبه زيد ابن ثابت في الجمع الأول ، اذ ان الصحف التي اعتمد عليها انما كانت كما علمت من كتابة زيد بعد أن أمره كل من أبي بكر وعمر بذلك ، وزيد بن ثابت هذا هو أشهر الصحابة ضبطاً للقرآن وحفظه ، وهو صاحب العرضة الاخيرة للقرآن على رسول الله ﷺ قبيل وفاته ، فأقره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمر الناس بأخذ القرآن عنه . ومن هنا قطع كافة العلماء والباحثين بأن هذه المصاحف

---

(١) البرهان : ١/٢٤٠

التي وزعها عثمان في الاقطار هي الصورة المحققة الدقيقة للقرآن الذي نزل على رسول الله ﷺ والذي كان يتلى به .

الثانية : أن القرآن إنما نزل بلهجة قريش فينبغي أن يكتب أيضاً برسمهم وطريقة كتابتهم ، تفهم ذلك من قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن – أي إملاء ولهجة – فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم .

وقد تم هذا العمل العظيم الذي قام به عثمان بن عفان رضي الله عنه في عام ٢٥ للهجرة

أما ما قام به أبو بكر رضي الله عنه فقد كان بعد موقعة اليمامة في العام الثاني عشر للهجرة .

تم إن الصحف التي أعادها عثمان رضي الله عنه إلى حفصة بقيت عندها إلى وفاتها . ومن هنا تعلم أن هذه الصحف لم تكن من بين الصحف أو المصاحف التي أحرقت . قالوا وقد حاول مروان بن الحكم في عام ٦٥ أن يأخذها منها ليحرقها ، فأبت ، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأحرقها ، وقال مدافعاً عن وجهة نظره : إنما فعلت هذا لأن مافيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام ، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب [١] .

وما هو إلا أن توزعت هذه المصاحف في البلدان الإسلامية حتى أحرق كل امرىء ما كان عنده من قبل ، وأقبلوا يعكفون على استنساخ المصاحف من هذه الأصول الوثيقة المعتمدة ، إلى جانب دراستها وتلقيها مشافهة من كبار القراء الذين كان يبعثهم عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار ليتلقى الناس منهم كتاب الله عز وجل .

هذا ونستطيع أن نقطع بأن واحداً من المصاحف العثمانية كان باقياً في دمشق بمسجد بني أمية الكبير حتى القرن الثامن الهجري ، حيث يقول ابن كثير في كتابه فضائل

(١) مباحث من علوم القرآن للدكتور صبحي الصلح نقلا عن كتاب المصاحف لابن أبي داود ص : ٨٤

القرآن : (أما المصاحف العثمانيـة الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامـع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله) [١] .

أما بعد ذلك،فالحديث عن تحقيق هذه النسخ وتنقلها بين المكتبات والمتاحف والبلدان، أمر يطول ولسنا بصدده في هذا البحث .

فإذا تأملت في هذه الخلاصة التي سردناها على تاريخ هذا الكتاب العظيم ، منـذ نزوله على قلب المصطفى ﷺ إلى وصوله إلينـا اليوم من حيث الأدوار التي تدرج فيها كتابة وجمعاً ، وتلقياً ودرساً — تصورت أنك من هـذا الكتاب المبـين أمام شمس واضحـة مشرقه تسير أمام عينك في قبة السماء الصافية ، ليس من حولهـا مزقة سحاب تغشّي عليها وليس بينك وبينها أي زوبعة أو ضباب يحجبها عنك .

سلسلة متصلة من التدوين الكتـابي الدقيق ، والتلقي الشفهي السليم ، يسيران جنبـاً إلى جنب في مطابقةواتفاق ، منذ بزوغ فجر هذا التنزيل إلى هذه الساعة من يومنا هذا ، لاترى فيها حلقة مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلافاً يبعث على الريبة .

فأي خبر أو كتاب سـار عبر القرون في مثل هـذا النفق المحكم العجيب من الحفظ والوقاية ؟ اللهم إن العقل لايفهم من ذلك إلا أنه تصديق الدهر والقرون لقوله تعـالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقوله تعالى : (كِتَابٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ عَزِيزٍ حَمِيدٍ) .

---

(١) انظر السابق : ٩٠

رسم القرآن

والمراحل التحسينية التي تدرّج فيها

مما لاشك فيه ، أن الصحف التي كانت قد كتبت على عهد النبي ﷺ ، والمصاحف العثمانية التي وزعت على الأمصار ، كانت كلها خالية عن الشكل والنقط . وكان العرب إذ ذاك يهتدون إلى النطق السليم بوسيلتين :

إحداهما السليقة العربية الأصيلة التي كانوا يتمتعون بها ، والأصالة اللغوية التي كانت فطرتهم مطبوعة عليها ، فلم يكن لما عرف بعد ذلك باسم اللحن أي سبيل إلى ألسنتهم ، وليس لديهم أي فقر في فهم المعنى الصحيح للفظ من الألفاظ العربية أو في الشكل السليم للنطق بها .

الثانية : التلقي والمشافهة ، وقد قلنا إن القرآن كان يضبط ويحفظ ، بكل من وسيلتي الكتابة والتلقي ، فلا الكتابة وحدها كانت معتمداً كافياً لهم ، ولا التلقي وحده كان أساساً معتمداً عندهم ، بل الأمر إنما يعتمد على كلا الوسيلتين .

فكان التلقي يزيد من وضوح الكتابة ، ويزيل ما قد يتصور من اللبس في النطق ببعض الكلمات ، كتلك التي تحتمل عدداً من وجوه الأداء والقراءة ، بسبب عدم توفر النقط فيها. على أن رخصة النطق بالأحرف السبعة في أول عهد العرب بالقرآن ساهمت كوسيلة ثالثة ، في تسهيل ضبط القرآن دراسة وحفظاً ، والحيطة في عدم الوقوع في أي لبس أو وهم ، عند النطق بهذه الكلمات المحتملة .

ومما لاريب فيه أيضاً ،أن رسم المصاحف العثمانية التي نسخت على هدي الصحف الأولى ،

يقوم على إملاء خاص به في ذلك العصر وفيما بعده أيضاً . وإنك لتجد في إملائه من أنواع الزيادات والحذف للحروف والمدود وطريقة الرسم ، ما لم يكن معهوداً حتى عند كثير من القبائل العربية اذ ذاك .

إلا أنه كان يتفق في جملته مع الرسم القرشي في ذلك الوقت ، ومن هنا قال عثمان رضي الله عنه للكاتبين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كلمة من كلمات القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ؛ فإن القرآن أنزل بلسانهم (١) .

ولقد ظهر تطبيق هذه الوصية ، عندما اختلف الكتاب الأربعة في كيفية رسم « التابوت » في قوله تعالى (وقال لهم نبيهم إن آية مُلكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ..) البقرة : ٢٤٨ ، فقد قال زيد « التابوه » وقال القرشيون « التابوت » ، وترافعوا الى عثمان فقال : اكتبوا « التابوت » فإنما أنزل القرآن على لسان قريش(٣).

فقد علمت اذاً ، أن في الرسم القرآني في عهده الأول ، ظاهرتين :

الظاهرة الأولى : أن له إملاءاً خاصاً به من حيث كيفية كتابة الهمزة مثلًا أو الأحرف اليائية والواوية ومن حيث الزيادة والنقص وما شابه ذلك .

الظاهرة الثانية : أنه كان مجرداً عن الشكل الذي يوضح اعرابه ، وعن النقط الذي يميز الأحرف المعجمة من المهملة .

فأما المظاهرة الأولى ، فقد استمرت فيما بعد ، ولم يطرأ عليها تغيير أو تحوير يذكر ، فقد أخذ الناس يعتبرون الرسم القرآني رسماً معيناً خاصاً به ، ولم يجدوا ما يدعو الى مد يد التغيير إليه ، بعد أن وصل اليهم بهذا الشكل كصورة طبق الأصل للكتابة المعتمدة الأولى ، بل لقد رأى العلماء أن الحيطة في حفظ القرآن تدعو الى وجوب إبقائه على شكله الأول ، وتحريم أو تكريه أي تطوير كتابي فيه ، تطبيقاً للقاعدة الشرعية الكبرى : سد الذرائع .

---

(١) صحيح البخاري : ٩٨/٦

(٢) البرهان : ٣٧٦/١ والاتقان : ٩٨/١

روى أبو عمرو الداني عن أشهب ، قال : سئل مـــالك رحمه الله : هل تكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء ؟ فقال : لا إلا على الكتبة الأولى . وسئل مالك مرة أخرى عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف : أترى أن تغير من المصحف إذا وجدوا فيه ذلك ؟ فقال : لا .

وذهب أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك [1] .

وليس يعنينا هنا ، أن نعرض لتحقيق الحكم الشرعي في هذا الأمر ، خصوصاً في مجالات التعليم والتدريس ، إنما الذي نقصد اليه هو أن نتأمل في مدى الحيطة والشدة العجيبتين اللتين صين بهما القرآن خلال تاريخ وصوله إلينا .

أما الظاهرة الثانية فقد دخلها التطوير والتحسين فيما بعد ، كما نجد أثر ذلك في رسم المصاحف الموجودة في عصرنا هذا .

وأصح ما قيل عن تاريخ أول طور تحسيني دخل رسم القرآن ، أنه كان في عهد التابعين ، في منتصف القرن الأول للهجرة ، وأصح مـا قيل فيمن باشر بذلك أنه أبو الأسود الدؤلي الذي توفي عام تسع وستين . فقـد أجمعت رواية الثقات — كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي — على أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من وضح النحو باشارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولعلك تقول : فما علاقة وضع النحو بتحسين رسم القرآن ، وهل يلزم من أن أبا الأسود الدؤلي هو الواضح للنحو أن يكون هو أول مباشر لتحسين الرسم القرآني ؟

والجواب : أن عامة روايات هؤلاء الثقات تتفق على أن سبب وضعه النحو هو ما رآه أو قيل له من شيوع اللحن في قراءة القرآن ، كما تتفق معظم هذه الروايات ، (ومنها رواية أبي الطيب اللغوي وابن النديم وابن عساكر) على

---

(١) انظر البرهان : ٣٧٩/١

أن وضعه للنحو كان مصحوباً بتنقيط المصحف[1] .

ولعل الرواية التي ساقها ابن خلكان تجمع القدر المشترك بين مختلف تلك الروايات ، وإليك ما يقوله في ذلك : كان أبو الأسود الدؤلي لا يخرج شيئاً أخذه من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أحد (يقصد به الرقعة التي كان قد أعطاه إياها وفيها قواعد أولية للنحو) حتى بعث اليه زياد بن أبيه (والي العراق يومئذ) أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله عز وجل ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ إن الله بريء من المشركين ورسوله ، بالكسر ، فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا فرجع الى زياد فقال : أفعلُ ما أمر به الأمير ، فليبغني كاتباً لبقاً يفعل ما أقول له ، فأتي بكاتب من عبد القيس فلم يرضه ، فأتي بآخر ، فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فيّ بالحرف ، فانقط نقطة فوقه ، وإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت ، ففعل ذلك[2] .

فإذا تأملت في هذا الخبر – وهو كما قلت لك قدر مشترك للروايات التي ساقها ابن عساكر وابن النديم وأبو الطيب اللغوي – علمت أن الذي بدأ بتحسين رسم القرآن هو أبو الأسود الدؤلي ، وعلمت أن هذا التحسين هو وضع النقط للقرآن ، وأنه لم يكن يقصد به تمييز الحروف المهملة عن المعجمة كما هي وظيفة النقط فيما نعلم ، وإنما كان يراد به الشكل الذي يقوم مقام الفتح والكسر والضم منعاً عن اللحن في القراءة . وعلمت أيضاً أنه إنما وضع النحو من حيث نَقّط القرآن وأن الذي دفعه إلى وضع النحو وتقعيد قواعده وابراز الرقعة التي كان قد اعطاه إياها علي بن أبي طالب هو ما أفزعه من سماع اللحن في تلاوة القرآن .

---

(١) انظر وفيات الأعيان : ١/٢٤٠ ، وانظر كتاب « النحو العربي » للاستاذ الدكتور مازن المبارك ص : ١٠ – ٢٩ فقد عرض فيه لتحقيق واسع فيما روى من خبر أول واضع للنحو وقارن بين مختلف الروايات في ذلك ،

(٢) وفيات الأعيان : ١/٢٤٠

ولعلك تسمع بعد هذا ، عن روايات تقول بأن يحيى بن يعمر (ت: ١٢٩) هو أول من نقط القرآن ، أو أن الذي بدأ بذلك هو نصر بن عاصم الليثي (ت : ٨٩) . وهي في الحقيقة لاتنافي ما نقلناه ، فقد كان كل من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم تلميذين لأبي الأسود الدؤلي ، وقد كان يحيى بن يعمر قاضياً بمرو فلعله عمد فنقط مصحفه على نحو ما فعل أستاذه ، قبل أن يفعل ذلك هناك أحد غيره ، وأما عمل نصر بن عاصم فهو في أغلب الظن انما باشر طوراً آخر من التحسين بعد العمل الذي قام به أبو الأسود ، يدلّ على ذلك الرواية التي ساقهـــا ابن خلكان ، إذ يقول : (ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ؛ ففزع الحجاج بن يوسف الى كتّابه ، فسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك) [١] فأنت ترى أن الحجاج انما أمر كتابه أن يعملوا شيئاً تنميز به الحروف المشتبهة في القرآن والحروف المشتبهة انما هي المهملة والمعجمة كالحاء والجيم والعين والغين . فيكون عمل نصر بن عاصم ان صحت الرواية تنقيطاً لتمييز المتشابه من الحروف لا لضبط الشكل والإعراب كما فعل أبو الاسود .

ثم ان هذا التحسين الذي ذكرناه ، دخل طوراً ثانياً ، بل أخذ يتدرج في أطوار متلاحقة ، لا يمكننا أن نضبط كلًا منهـا في تاريخ دقيق صحيح ؛ وأن ننسبه الى شخص معين في رواية موثوقة .

ولكن مما لاشك فيه أن للحجاج عملًا عظيماً في ذلك بقطع النظر عن تفاصيل ما قام أو أمر به كما يقول الدكتور صبحي الصالح [٢] . ومما لاشك فيه أيضاً أن النقط والشكل تكامل وجودهما في القرآن على عهد الخليل بن أحمد (المتوفى : ١٧٥) عندما ألف كتابه في النقط والشكل [٣] .

وظلت الخطوات التحسنية في رسم القرآن مطردة الى يومنا هذا ، ابتغـــاء تحقيق المزيد من ضبطه وتسهيل قراءته . الا أن الظاهرة الاولى المتعلقة باملائه

---

(١) انظر المرجع السابق : ١/١٢٥

(٢) انظر كتاب مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح : ٩٧

(٣) وفيات الاعيان : ١/١٧٣

ظلت – كما ترى – على الشكل الذي كتبت به الصحف الأولى والمصاحف العثمانية .

ومن هذا الذي ذكرناه يتضح لك أن علم النحو لم يقعد ويدوّن إلا خدمة لضبط القرآن ، كما قـــد رأيت ، وستجد فيما بعد أن معظم العلوم العربية الأخرى انما قامت لخدمة القرآن أو نبعت من مضمونه .

أما عن تاريخ طباعة القرآن ، فيقول الدكتور صبحي الصالح : قـد ظهر القرآن مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية في حدود سنة ١٥٣٠ ، ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره . . . ثم ظهرت أول طبـــاعة إسلامية خالصة للقرآن في سانت بترسبوغ ، بروسيا، سنة ١٧٨٧ ، ثم عنيت الآستانة ابتداء من سنة ١٨٧٧ بهذا الأمر العظيم (١) .

(١) مباحث في علوم القرآن : ١٠٣

الأحرف السبعة

وهذا أيضاً مبحث مما يتعلق بتاريخ القرآن وكيفية نزوله .

روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه (١) .

فما المقصود بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن ؟

هو ، فيما ذهب اليه جمهور الباحثين وعامة أهل العلم ، الرخصة لقارىء القرآن أن ينطق منه باللفظ الذي أنزل ، أو أن يخالفه الى لفظ مرادف له يؤدي نفس المعنى ، تسهيلًا على العباد ، وتهويناً للأمر على القبائل التي كانت تنفرد كل واحدة منها باستعمال لفظة من الفاظ المترادف تشيع بينها وتعرف به وقلما تتحول عنه الى استعمال غيره ، أو تنفرد كل واحدة منها بكيفية معينة في النطق بالحرف كما تفعل هذيل مثلا بالحاء إذ تقلبها في كثير من الألفاظ عيناً .

فالحرف في الحديث اذاً ، ليس هو الحرف الهجائي المعروف ، وانما المقصود به كل وجه من المخالفة اللفظية في التعبير عن معنى واحد ، كقولك : تعال ، وهلّم ، وأقبل . والعرب تطلق على اللفظة الواحدة تساق في الدلالة على معنى عند بعض اللغات : حرفاً .

أما السبعة ، فبعض أهل العلم على أن السبعة كناية عن الكثرة ، وليست حصراً في هذا العدد . ويحتمل أن المقصود بها العدد المحصور — كما يدل على ذلك

---

(١) البخاري : ٦ : ومسلم : ٢٠٢/٢

نصوص أخرى في الحديث الذي ذكرناه وكما ذهب الى ذلك كثيرون – فيكون المعنى أن للناس أن يتوسعوا في التعبير عن المعنى القرآني بمترادفات ووجوه صحيحة من الأداء لا ينبغي أن تتجاوز سبع لغات من لغات العرب ، ففي ذلك ما يكفي لاستجابة ضرورة القبائل المتباعدة إذا ما أراد أهلها ممارسة القرآن وتعلمه وقراءته .

ويدلّ على أن نزول القرآن بالأحرف السبعة ، إنما وقع موقع الرخصة دفعاً للاضطرار ، أحاديث وردت في هذا الباب .

فمنها ما رواه مسلم عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار (غدير صغير ، موضع قرب مكة) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إن الله يأمرك أن تُقْرِأ أمّتَك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية ، فقال : إن الله يأمرك أن تُقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وان أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : ان الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : ان الله يأمرك أن تُقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيّما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا[1].

ومنها ما رواه الترمذي بسنده قال : لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال : يا جبريل إني بعثت إلى أمّة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قط ؛ فقال لي : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، قال : وهو حديث صحيح[2] .

فإذا علمت هذا ، وجب أن لا يفوتك المقصود بالرخصة والتوسعة اللتين دل عليهما كل من هذين الحديثين .

---

(١) صحيح مسلم : ٢٠٣/٢

(٢) انظر تفسير القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : ٤٢/١

والمعنى العام للرخصة في التشريع ، هو جواز الجنوح في حكم من الأحكام عن الأصل إلى سبيل آخر ، دفعاً للحرج .

فالأصل في حكم تلاوة القرآن ، هو أنه نزل على حرف واحد ، هو حرف قريش ، وهو الذي أمر جبريل أن يقرأ الناس به وحده في أول الحديث الذي رواه مسلم ، ولكن الله تبارك وتعالى رخص للناس إذ ذاك أن يجنحوا عن الأصل الذي نزل به القرآن إلى اللغات المرادفة الأخرى التي اعتادوا النطق بها .

وفي هذا جواب عما قد يُستشكل : فكيف سبيل التوفيق بين ما علمناه من من أن القرآن إنما نزل بلغة قريش ، وما هو ثابت أيضاً من أن القرآن نزل على سبعة أحرف ؟ ذلك أنه في أصله إنما نزل أولاً بلسان قريش ، ومن حيث الرخصة والتوسعة والتسهيل على الناس جوّز لهم أن يقرأوه على لغات القبائل الأخرى التي عبّر عنها الحديث بالسبعة .

وفي ذلك يقول أبو شامه رحمه الله : والمراد بأنه نزل بلسان قريش ، أن ذلك كان أول نزوله ، ثم إن الله تعالى سهله على الناس ، فجوز لهم أن يقرأوه على لغاتهم ، على أن لا يخرج ذلك عن لغات العرب ، لكونه بلسان عربي مبين . فأما من أراد قراءته من غير العرب فالاختيار له أن يقرأه بلسان قريش لأنه الأصل[1].

• • •

هذا كله ، فيما يتعلق بكيفية النطق والأداء .

أما الكتابة ، فإنه لم يكتب إلا بحرف واحد مما قد تختلف فيه الكتابة من الحروف ، وهو حرف قريش الذي نزل القرآن أصلاً بلغته كما ذكرنا . قال ابن حجر في فتح الباري : (والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله « أي مما لا مدخل لخلاف الأحرف فيه » المقطوع به المكتوب بأمر النبي ﷺ)

---

(١) انظر فتح الباري : ٩/٢٤و٢٥

ثم قال : (وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم ، فهو مما كانت القراءة جوزت به توسعة على الناس وتسهيلاً ، ثم اقتصر على اللفظ المأذون في كتابته وتركوا الباقي[1]) .

والحكمة من ذلك ، أن المقصود لم يكن إبقاء اللهجات واللغات العربية المتخالفة على حالها ، وانما هو تسهيل أمر القرآن عليهم ريثما يتعلمون الكتابة والقراءة أو يألفون الى لغة قريش ويتعرفون عليها . فمن أجل ذلك كان لا بد أن تكون كتابة القرآن بوجهه الأصلي الأول الذي نزل به ، هذا الى أنه كان هو السبيل الوحيد الذي لا بد منه لإبقاء الأصل متميزاً عن الوجوه المرخصة الفرعية الأخرى ، كي لا يلتبس بها ويضيع في غمارها .

فالكتابة تحفظ الأصل الجامع الذي ينبغي أن يؤول الناس إليه أخيراً ، والأداء كان متسعاً لما تطيقه أفراد القبائل حسب لهجاتها وثقافتها وطاقتها في القراءة والكتابة ، كما أوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ .

فإذا سألت بعد ذلك : فما هو مصير هذه الأحرف الستة الأخرى اليوم ، إذا كان المصحف الذي ورثناه عن الكتابة المعتمدة في حياة رسول الله ﷺ لا يحوي إلا حرفاً واحداً منها ؟

فالجواب ، أن الأمر — كما علمت — لم يكن إلا رخصة اقتضاها حال العرب في صدر الإسلام كما قد رأيت من اختلاف اللهجات وشيوع الأمية ، فلما صهرهم الدين وجمعهم القرآن وتقلصت الأمية ، انتهت الرخصة وانحسرت الحاجة اليها ، وعاد الحكم الى الأصل . فاجتمع الناس كلهم على النطق بالحرف الأصلي الواحد الذي وجدوه مكتوباً عندهم في الرسم الصحيح المعتمد للقرآن .

روى القرطبي عن الطحاوي : « إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم

(١) فتح الباري : ٩ / / ٢٥ .

يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوسّع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً . فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب ، وعادت لغاتهم الى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها » .

ثم روى عن ابن عبد البر قوله : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص ، لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يُقرأ به القرآن على حرف واحد[1].

• • •

هذه هي خلاصة ما ينبغي أن تعلمه مما يتعلق بمعنى قول رسول الله ﷺ (إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف) .

بقي أن تعلم ،أن هذه الأحرف هي غير القراءات السبع أو العشر التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد ان شاء الله . فالقراءات أمرها وحكمها مستمر إلى يومنا هذا ، وهي تصدر عن أساس وأصل آخر غير الأصل الذي يتعلق بالأحرف السبعة .

والقراءات السبع إنما تتفرع من حرف واحد من الأحرف السبعة ، وهو الحرف الأصلي القرشي الذي نزل به القرآن أولاً ، وبه كتب القرآن .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١/٤٢و٤٣ وانظر شرح النووي على مسلم : ٦/١٠٠

علوم القرآن

تمهيد

١ً — ما هي علوم القرآن ؟ ٢ً — (علوم القرآن) اصطلاح خاص

٣ً — متى ظهر هذا الاصطلاح ؟

ماهي علوم القرآن ؟

علوم القرآن كثيرة ، وحسبك أن تعلم أن المكتبة العربية كلها بعلومها المختلفة الكثيرة ، إنما انبثقت عن القرآن وتفرعت عنه . فعلم العربية بفروعها من أدب وبلاغة وقواعد ولغة ، من علوم القرآن . والشريعة الاسلامية بفروعها من الفقه والأصول ، والتفسير والحديث والتوحيد ، من علوم القرآن . والتاريخ وكثير من مسائل الكونيات وأصول البحث من علوم القرآن .

قال الزركشي : وكل علم من العلوم منتزع من القرآن وإلا فليس له برهان [١]

وروى البيهقي في المدخل عن ابن مسعود أنه قال : من أراد العلم فليثوّر القرآن (أي ليفكر في معانيه وتفسيره وقراءته) فإن فيه علم الأولين والآخرين قال : وإنما أراد به أصول العلم [٢] .

---

(١) البرهان : ١/٧

(٢) المرجع السابق : ١/٥

وقبل أن تستعظم هذا الكلام ، وتردّه إلى المبالغات والتزيدات ، نقول لك :

إنما يصدق هذا ، على أساس الوجهين التاليين :

الوجه الأول : أن القرآن يشتمل على كل تلك العلوم اشتمالاً مختلفاً ومتفاوتاً فمنها ما يشتمل عليه القرآن بمعناه الحقيقي دون أي تأويل أو مبالغة كعلوم الفقه والأصول والتفسير والبلاغة والقواعد واللغة . ومنها ما يشتمل القرآن على أصوله ومفاتيحه ، بمعنى أنه ينبه القارىء اليه ويرشده إلى كثير من كلياتـه وأصوله ، ككثير من العلوم الكونية والفلكية ، وعلم الطب والأبدان .

الوجه الثاني : أن القرآن هو الذي نبه العرب والمسلمين إلى ضرورة الإقبال على هذه العلوم والأبحاث ، بل هو المنطلق الأول لشيء اسمـه « التدوين » في التاريـخ العربي .

فالقرآن ، كما قد رأيت فيما مضى ، هو الذي اشعر الناس بضرورة وضع قواعد في النحو والاعراب ، وهو الذي أشعرهم بالحاجة إلى وضع موازين وضوابط للبلاغة العربية ووجوهها ، وهو الذي دعاهم إلى وضع الموسوعات اللغوية المختلفة ، وهو الذي اضطرهم إلى تدوين شيء اسمه (علم الكلام) بما يشتمل عليه هذا العلم من قواعد البحث والمنطق لتعزيز الأدلة النقلية بالبراهين العقلية . ثم لولا القرآن وما أدى إليه تدوينه والإقبال عليه ، لما أقبلوا بعد ذلك إلى شيء من العلوم الكونية والتشريح والطب والرياضيات . وآية ذلك أن الذين نبغوا من العرب في هذه العلوم ، إنما نفذوا اليها من دراساتهم القرآنية قبل ذلك ، فـأنت لا تـكاد تقع على ترجمة واحد منهم إلا وتجده مفسراً فقيها ذاباع طويل في القرآن وعلومـه ، كابن النفيس مثلاً الطبيب العظيم وصاحب اكتشاف الدورة الدموية ، فقد كان من قبل ذلك فقيهاً عظيماً ألف في الفقه والسيرة النبوية ، وترجم له السبكي في طبقات فقهاء الشافعية [1] .

---

(١) انظر طبقات السبكي : ٥/١٢٩

والخلاصة ، أن بنية الحضارة العربية بما اشتملت عليه من علوم وفنون وفكر وابتكار ، إنما قامت بتأثير القرآن وعلى ضوئه ، ولا ينافي ذلك ما نعلمه جميعاً من كيفية تسلسل الأحداث وارتباط الأمور ببعضها . إنما المهم أن تعلم أنه لولا القرآن لما كانت هذه المكتبة العربية التي نرفع الرأس بها اليوم عالياً . وذلك هو معنى قولنا : القرآن يحتوي على علوم كثيرة جداً ، وهو معنى قول الزركشي السابق : كل علم من العلوم منتزع من القرآن .

(علوم القرآن) اصطلاح خاص :

ثم إن هذه الكلمة أصبحت تطلق على طائفه معينة من الابحاث الهامة المتعلقة بالقرآن تعلقاً مباشراً وقريباً . كتفسيره ، وناسخه ومنسوخه ، ومكيه ومدنيه ، ومحكمه ومتشابهه ، وقراءآته . وذلك ، لأن كلًا من هذه الابحاث ، قد دار حوله كلام كثير ، واستلزم فهمه معرفة دقيقة لضبطه وتحديده ، وألفت فيه الكتب المستقلة ، فتحولت المعرفة بذلك إلى علم . كما يقول ابن خلدون [1] .

فالتفسير اذاً فن مستقل برأسه ، يقوم على أسس ومقومات وشروط ، والناسخ والمنسوخ في القرآن أيضاً فن خاص يقوم على دراسة معينة وأهمية خاصة ، والمحكم والمتشابه كذلك .. وهلم جراً .

ثم لما كثرت تآليف العلماء في هذه الفنون ، وأطلقوا على جملتها اسم (علوم القرآن) وتكرر هذا الاسم وتداوله الباحثون والكاتبون ، أصبح ، هذا الاطلاق علماً على هذه الطائفة من علوم القرآن وأبحاثه . وأصبحت هذه الطائفة من الابحاث كلها علماً مستقلًا برأسه .

متى ظهر هذا الاصطلاح ؟

ثم إنك تعلم أن عصر الصحابة ، كان عصر تلق للقرآن والسنّة ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يدركون معاني الألفاظ وما وراءها بفطرتهم العربية الأصلية ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٢١٤ طبعة بولاق

فإذا أشكل عليهم شيء من وراء ذلك أيضاً سألوا عنه رسول الله ﷺ ، ثم كانت رقعة حياتهم ضيقة لاتزخر أو تتزاحم فيها التقاليد والأفكار والمشاكل الطارئة . فكانت معارفهم في أذهانهم ، وكان مرجعهم فيها رسول الله ﷺ ثم كبار الصحابة من بعده ، فلم يكن عندهم شيء مما أطلق عليه فيما بعد اسم « علوم القرآن » .

ثم لما كان عصر التابعين ، أقبل التابعون على مشاهير الصحابة يتعلمون منهم كتاب الله تعالى وتفسيره ، وربما أخذ البعض بدون من ذلك الكثير مما يحرص عليه . وقد اشتهر من التابعين في دراسة القرآن وتفسيره : مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري .

روى ابن كثير عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ، ومعه ألواحه ، قال : فيقول له ابن عباس أكتب ، حتى سأله عن التفسير كله (١) .

وهكذا تكوّن وظهر في عصر التابعين « علم تفسير القرآن » في مقدمة علومه وأبحاثه الأخرى . إذ هو أساسها وإليه مردّها ، ظهر علماً بدأ تدوينه وجمعه ، بعد أن كان معارف في الأذهان والصدور .

ثم تفرع عن علم التفسير علومه الأخرى ، عندما تكاثر أرباب الاختصاص في الدراسات العربية والإسلامية

فالفقهاء والأصوليون عنوا منها بعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلماء التفسير والكلام إهتموا من ذلك بعلم المحكم والمتشابه والقراءات، وعلماء العربية انصرفوا إلى مباحث الإعجاز والأسلوب وعلم إعراب القرآن .. وهلم جراً .

ولاشك أن هذه الفنون لم تظهر في حقبة واحدة من الزمن ، وإنما ظهرت متتابعة ، إلا أنها تكاملت علوماً خلال القرنين : الثاني والثالث .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/٤

أما اطلاق لفظ (علوم القرآن) اصطلاحاً على هـذه العلوم القرآنية ، فإن البعض يحسب أن الإمام الشافعي هو أول من سيّر هذا الإصطلاح ، وذلك أنه حينما جيء به إلى الرشيد ـ عندما اتهم بالتشيع ـ سأله الرشيد : كيف علمك ياشافعي بكتاب الله ؟ فقال الشافعي : عن أي كتاب من كتب الله تسألني ياأمير المؤمنين ؟ فإن الله قد أنزل كتباً كثيرة ، قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على محمد ﷺ ، فقال الشافعي : إن **للقرآن علوماً كثيرة** ، فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه ، أو عن تقديمه وتأخيره أو عن ناسخه ومنسوخه ؟

وأغلب الظن أن الكلمة إنما أصبحت اصطلاحاً ، بتداول المؤلفين لها ، وجعلها اسماً على مباحثهم المتعلقة بالقرآن . وأياً كان الأمر فإن الخطب في ذلك يسير وهو مما لايتعلق لنا به غرض كبير .

التفسير

حقيقته ، نشأته وتطوره ، مذاهبه وشروطه

حقيقته

قال في البرهان : التفسير علم يعرف به فهمُ كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيانُ معانيه واستخراج أحكامه وحِكمه ؛ واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات (١) .

وثمة كلمة أخرى كثيراً ما تستعمل في مكان التفسير ، وهي : التأويل . إلا أنها ليست مرادفة للتفسير بمعناه الدقيق ، بل هي في الأصل تختلف عنه اختلافاً ما ، ولكن كثرة إستعمالها في مكان « التفسير » جعلها تؤدي معناها وتقوم مقامها .

قال في تهذيب الأسماء واللغات في بيان الفرق بينهما : أما التأويل فقال العلماء هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله ، أوجبه برهان قطعي في القطعيات وظنيّ في الظنيات ، وقيل هو التصرف في اللفظ بما يكشف عن مقصوده . وأما التفسير فهو بيان معنى اللفظة القريبة أو الخفية (٢) .

أقول : ولعل هذا التفريق أصح ماقد قيل في ذلك .

ولكن هذا الفرق ناظر إلى معنى كل من الكلمتين من حيث دلالتها اللغوية .

---

(١) البرهان للزركشي : ١/١٣

(٢) تهذيب الاسماء واللغات للنووي : ٣/١٥ وانظر البرهان : ٢/١٤٩

أما عندما ما تصبح « التفسير » إطلاقاً على علم معين كما ذكرنا ، فهي تتسع حينئذ لمعنى التفسير والتأويل ، إذ الكل يدخل تحت مدلول هذا العلم . وتبقى العلاقة حينئذ بين الكلمتين : العمومَ والخصوصَ المطلق ، فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلاً .

ولعلك تسأل فتقول :

فإذا كان القرآن كتاباً عربياً مبيناً ، وقد نزل إلى الناس ليقرأوه فيفهموه ، فينبغي أن يكون غنياً عن التفسير والمفسرين ؛ وينبغي أن يكون مفهوماً بذاته لأن الله تعالى إنما يخاطب عباده بما يفهمونه . ففيم احتيج إلى تفسيره ؟.

فالجواب : أن الحاجة إلى تفسير القرآن ، ليست بسبب أنه كتاب مبهم يحتاج إلى مفتاح له ومترجم عنه ، وإنما الحاجة إليه من وجوه أخرى نجملها فيما يلي :

الوجه الأول : أن القرآن جار على أسلوب يصلح أن يخاطب به طبقات الناس كلهم على إختلاف مداركهم وثقافاتهم (كما سنشرح ذلك فيما بعد) فهو يعطي كلاً من معانيه وأحكامه قدر طاقته ومايتسع له فكره ؛ فإذا أراد القارىء أن يستشف منه ماوراء ذلك وينتهي في سبر أغواره إلى أكثر مما قد فهمه منه بطبيعته وفكره ، فإن سبيله إلى ذلك الرجوع إلى فهم من هم أوسع منه علماً وأغزر ثقافة وفهماً ليبصروه بما وراء الذي انتهى عنده علمه من دلائله ومعانيه . فهذا وجه من وجوه الحاجة إلى التفسير .

الوجه الثاني : أن القرآن — كما قال الزركشي — كلام متكلم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه ، ولا إمكان للوصول إليه ، بخلاف الأمثال والأشعار ، فإن الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلم بأن يسمع منه أو يسمع ممن سمع منه (١) . ومن هنا تجد القرآن محاطاً بسور من الرهبة والجلال يمنع قارئه

(١) البرهان : ١٦/١

أن يسرع فيقتحم إليه بالشرح والتفسير ، كما يشرح الكتب الأخرى . وإنما الشأن أن يتوسط إلى ذلك بما قد أثر من تفسير النبي ﷺ له أو بما أقره من تفسيرات الصحابة رضوان الله عليهم ، فهو الذي أوحي إليه القرآن مباشرة وهو الذي أمره الله عز وجل بأن يبيّن للناس ما نزل إليهم . فهذا وجه ثانٍ في الحاجة إلى تفسيره والاطمئنان إلى حقيقة معانيه المرادة منه .

الوجه الثالث : ان القرآن كتاب يحوي بين دفتيه مبادىء العقيدة والتوحيد ، كما يحوي مبادىء الشريعة وأحكام الحلال والحرام ، ويشمل التوجيهات الاخلاقية ومبادىء التنظيمات الاجتماعية ، إلى جانب مافيه من عبر الأمم الماضية والأخبار عن المغيبات المستقبلة ووجوه النقاش والحجاج .

فلا جرم أنه إنما يتناول كل ذلك ويعالجه باسلوب من التركيز والاختصار يضمن للقارىء الفهم الموجز الكلي من ناحية ، ويحمله على البحث والدرس للوقوف على تفصيلات ذلك من ناحية أخرى . فكانت الحاجة الى تفسير القرآن من هذه الجهة استجابة للغرض المتعلق بتفصيل موجزاته وشرح كلياته .

الوجه الرابع : أن المعنى الذي يراد بتفسير القرآن — بعد كل هذا الذي ذكرناه — ليس متوقفاً عند شرح الكلمة وترجمتها ، وانما هو يتعدى ذلك الى وجوه وأنواع من الاستنباطات المتعلقة بدقائق المباحث والعلوم ، تختلف حسب اختلاف وجهة المفسر واختصاصه من عربية وأصول وفقه وتوحيد وكونيات . والقرآن « كما قد علمت وستعلم » ذو دلالات متسلسلة لا تكاد تتناهى . وانما سبيل الكشف عنها أو عن بعضها بعكوف أرباب الاختصاصات عليه بالدرس والبحث والتفسير .

فهذه هي خلاصة الأسباب الداعية إلى تفسير القرآن وشرحه . وهي كما رأيت ، أسباب لا تتنافى مع كونه كتاباً عربياً غير ذي عوج ، ولا تعارض ما هو مقرر ثابت من أن الله إنما يخاطب عباده بما يفهمون .

نشأته وتطوره :

نشأ علم التفسير في صدر الإسلام ، في عصر رسول الله ﷺ ، وان لم يكن يسمى حينئذ علماً . وذلك هو الشأن في سائر العلوم الإسلامية (تقريباً) ، نشأت حقائقها في صدر الاسلام ، وتكونت أغلفتها وعناوينها فيما بعد .

ومعلوم أن رسول الله ﷺ هو أول من مارس التفسير وعلمه للناس ، إذ كان هو المصدر الأول لفهم الكتاب وتبيينه . ولا بدّ أن النبي ﷺ بين لأصحابه سائر معاني الكتاب كما بين لهم ألفاظه وطريقة تلاوته [1] .

أما الصحابة ، فهم الطبقة الأولى في تاريخ علماء التفسير ، وهم الأساس والأصل الذي قامت عليه نشأة علم التفسير .

غير أن الصحابة ليسوا كلهم في مستوى واحد من العلم بكتاب الله تعالى والوقوف على تفسيره . وإنما هناك نخبة امتازت واشتهرت من بين سائر الصحابة بهذا العلم . منهم الخلفاء الراشدون وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الاشعري ، وعبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وأبو هريره ، وجابر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضوان الله تعالى عليهم أجمعين [2] .

ولقد كان أكثر هؤلاء رواية للتفسير ، أكثرهم تعميراً وأطولهم حياة . فمن أجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه المتوفى سنة ٦٨ في مقدمة من اشتهر من الصحابة بالتفسير ، وقد روي عنه في التفسير ما لا يكاد يحصى كثرة وقد سماه ابن مسعود : ترجمان القرآن . ومن أجل ذلك تجد الخلفاء الثلاث : أبا بكر وعمر وعثمان أقل الذين ذكرنا أسماءهم روايةً له بسبب تقدّم وفاتهم ،

---

(١) انظر الاتقان للسيوطي وما يرويه في هذا البحث عن ابن تيمية : ١٨٦/٢ .

(٢) أنظر كشف الظنون : ٢٩٨/١ والاتقان : ١٨٧/٢

ولعله بسبب مشاغل الخلافة أيضاً[1].

وأنت تعلم أن التفسير إنما كان عند هذه الطبقة رواية وأداء بالنطق والمشافهة فقط ، ولم يكن شيء منه يكتب على عهدهم ، كما لم يكتب أي علم آخر أللهم إلا القرآن والحديث .

ثم تأتي (الطبقة الثانية) من علماء التفسير ، وهي طبقة التابعين . وقد نبغ منهم في التفسير ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : وهم أصحاب عبد الله بن عباس ، من علماء مكة المكرمة ، أشهرهم مجاهد بن جبر (ت : ١٠٣) وسعيد بن جبير (ت : ٩٤) وعكرمة مولى بن عباس (ت : ١٠٥) وطاووس بن كيسان (ت : ١٠٦) وعطاء ابن أبي رباح (ت : ١١٤) .

وهذه الطائفة تعد من أعلم الناس بالتفسير في عصر التابعين ، وفي مقدمتهم مجاهد بن جبر ، نقل النووي عنه أنه قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وقال : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد[2] .

الطائفة الثانية ، وهم أصحاب عبد الله بن مسعود ، من علماء الكوفة . فمنهم علقمة بن قيس (ت : ١٠٢) والأسود بن يزيد (ت : ٧٥) وابراهيم النخعي (ت : ٩٥) والشعبي (ت : ١٠٥) .

الطائفة الثالثة : وهم أصحاب أنس بن مالك وغيره ، فمنهم زيد بن أسلم (ت : ١٣٦) وقتادة بن دعامة السدوسي (ت : ١١٧) والحسن البصري (ت : ١١٠) وعطاء بن أبي سلمة (ت : ١٣٥) ومحمد بن كعب القرظي (ت : ١١٧) .

---

(١) انظر كشف الظنون : ٢٩٨/١ والاتقان : ١٨٧/٢ وتفسير ابن كثير : ٤/١

(٢) تهذيب الاسماء واللغات : ٨٣/٢ وانظر الاتقان : ١٨٩/٢ وكشف الظنون : ٢٩٩/١

فهذه الطوائف الثلاث ، هي التي تكوّن الطبقة الثانية من علماء التفسير . وانما كان علم التفسير عند هؤلاء ، الرواية عن الصحابة . فكانوا يروون عنهم التفسير الى جانب مايروونه من الحديث والفقه ، ولكنهم اشتهروا بمزيد من العناية بتفسير كتاب الله ، لاسيما بعضاً منهم مثل مجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري .

غير أن عمل هذه الطبقة يمتاز عن عمل الصحابة بظهور الكتابة والتدوين عند بعضهم ، وقد كان في مقدمة من قام بذلك مجاهد بن جبر من أصحاب ابن عباس رضي الله عنه . روى ابن جرير عن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه . قال ، فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله [1] .

وهي وان كانت كتابة جزئية لم تبلغ درجة التأليف بمعناه المألوف ، الا أنها مهدت ذلك لأرباب الطبقة الثالثة الذين عكفوا على تصنيف كتب التفاسير .

(أما الطبقة الثالثة) ، فقد قام علماؤها بتأليف تفاسير واسعة تجمع ما انتهى اليهم من أقوال الصحابة والتابعين ، كتفسير سفيان بن عيينه (ت : ١٩٨) ووكيع بن الجراح (ت : ١٩٧) وشعبة بن الحجاج (ت : ١٦٠) وغيرهم؛ وهم كثير . ثم جاء في أعقابهم محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠) فجمع أشتات هذه التفاسير وقرب منها البعيد ، وفعل مثله عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت : ٢٧١) وابن عطية وغيرهما . وكلهم كما يقول الزركشي متقن مأجور[2]، ولكن الذي وصل الينا منها تفسير ابن جرير ، وهو تفسير عظيم جمع فيه المأثور بالسند وميز بين الصحيح منه وغيره ، وأصبح مستنداً هاماً لعامة المفسرين من بعده .

ولقد امتاز عمل هذه الطبقة من المفسرين بما يلي :

أولاً – جمع ما انتهى إليهم من أقوال الصحابة والتابعين في تفسير ايات

---

(١) تفسير ابن جرير : ١/٣٠

(٢) انظر البرهان : ٢/١٥٩

القران ؛ في مؤلفات منسقة ينتظم فيها تفسير جميع آي القران بترتيبها المعروف، وبذلك تم ظهور هذا الفن العظيم في مؤلفات ومصنفات جامعة .

ثانياً : ضبط الرواية عن الصحابة . فقد بحثوا في حال التابعين الذين نقلوا إليهم أقوال الصحابة في القرآن ، فاعتمدوا منهم من توفرت لديهم شروط الرواية وأمارات الثقة وأهملوا الآخرين ، وذلك لما اندس في صفوفهم من الدخلاء المتسترين بلباس العلم والاسلام .

فمن عملهم في ذلك أنهم اعتمدوا طرقاً معدودة في الرواية عن ابن عباس ، أفضلها طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي (ت : ١٤٣) واعتمد عليها البخاري في صحيحه ، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر في تفاسيرهم ، وأهملوا طريقة محمد ابن السائب الكلبي (ت : ١٤٦) عن ابن صالح (ت : ٢٢٣) عن ابن عباس ، قالوا : فإن انضم إليها محمد بن مروان السدي (ت : ١٨٦) فهي سلسلة الكذب[١].

ثالثاً : أنهم أضافوا الى ما نقلوه عن الصحابة والتابعين زيادات واستنباطات توسعوا فيها ، فمنها ما يتعلق بالعربية ومنها ما يتعلق بالقراءات ، ومنها ما يتعلق بالفقه وأحكام الحلال والحرام ، ملتزمين في ذلك قواعد التفسير وشروطه التي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

ولعل أهم هذه الأعمال الثلاثة ، هو ضبط الأسانيد والروايات ونخلها بذاك المنخل العلمي العظيم الذي لا ولن يملك مثله لدى البحث العلمي غير المسلمين ، وأنى للآخرين أن يرتقوا فيما يزعمونه من البحث العلمي إلى هذا المستوى ، وإنما أبحاثهم العلمية كلها تقوم على أسس (الاستنتاج) ، وياله من أساس علمي متين ، ذاك الذي يقتنص حقائق العلم وسط دخان البخور وفي سبحات الخيال !!

• • •

(١) انظر الاتقان للسيوطي : ١٧٨/٢ وكشف الظنون : ٢٩٩/١

ولقد كان علم التفسير خلال هذه المراحل الثلاث يضم كل ما يتعلق بفهم القرآن وكشف أسراره وغوامضه ، من قراءات وأسباب نزول ، وناسخ ومنسوخ ، ومتشابه ، إذ كان الحديث عن ذلك كله داخلاً في تفسير القرآن .

فلما توسعت الاختصاصات العلمية ، وظهر العلماء الذين اختصوا ــ بعد كفايتهم العلمية ــ بالفقه ، والذين اختصوا بعلم الكلام ، والذين انصرفوا الى علم القراءات وهلم جراً ــ أخذ كل من أرباب الاختصاص يتناول من تفسير القرآن ما يتعلق باختصاصه فيفرده بالبحث والتأليف .

وهكذا ، انفصل بحث القراءات عن علم التفسير ، لمّا أفرد القراء التآليف فيه ، فأصبح علماً برأسه مشتقاً من التفسير ، وانفصل عنه مبحث أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، لمّا أفرد فيه علماء الفقه والأصول البحث والتأليف ؛ وانفصل عنه مباحث اعراب القرآن لما عُني النحاة بافراد التصانيف في ذلك .

ولم تكن هذه الظاهرة وحدها نتيجة ظهور الاختصاصات العلمية ، بل ثمة نتيجة أخرى . فلقد أخذت كتب التفسير تتجه فيما بعد ــ من حيث العناية والاهتمام ــ وجهة اختصاص المؤلف .

فقد ألف علماء العربية في تفسير القران ، ليخدموا بذلك فنهم ، فكان عملهم يتركز على ابراز بلاغته العربية واعجازه اللغوي ، من ذلك تفسير أبي حيان الاندلسي (ت : ٧٤٥) وتفسير الكشاف للزمخشري وتفسير أبي السعود .

وألف علماء الفقه فيه أيضاً ؛ ليستجلوا منه أحكام الحلال والحرام ، فكان عملهم منصباً منه على هذا الجانب أكثر من غيره ، كالجامع لأحكام القران للقرطبي (ت : ٦٧١) وأحكام القران لأبي بكر بن العربي (ت : ٥٤٣) .

وألف فيه علماء التوحيد والكلام ، ليستخرجوا منه دلائل التوحيد وفروعه ومتعلقاته ، فلم يعنوا منه العناية التامة إلا بهذا الجانب دفاعاً عن العقيدة الاسلامية وتجلية لأمرها ، كتفسير الإمام فخر الدين الرازي (ت : ٦٠٦) .

فهذه خلاصة كافية عن نشأة علم التفسير وتطوره .

مذاهبه وشروطه :

اتخذت مناهج المفسرين في تفسير كلام الله عزوجل أحد مذهبين :

الأول : التزام الوارد في تفسير الآية عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين ، دون سوق أي زيادة على ذلك ، اللهم إلا أن تكون شرحاً لغوياً لكلمة أو كشفاً عن اعراب جملة أو نحو ذلك . وقد أطلق على هذا المسلك فيما بعد اسم « التفسير بالمأثور » .

ويعتبر تفسير ابن جرير الطبري (ت : ٣١٠) من أجلّ التفاسير بالمأثور ، ويليه تفسير ابن كثير (ت : ٧٧٤) .

الثاني : عدم التزام الاقتصار على ذلك ، بأن يتجاوز المفسر حدود الوارد والمأثور في تفسير الآية ، إلى استنباطاته الخاصة من دلائل الصيغة أو قواعد العلوم ، طالما كان اللفظ قابلاً لحمل المعنى المستنبط ، وقد تكون هذه المعاني المستنبطة مباحث من علوم وفنون مختلفة غير التي تدل عليها الآية من قريب . وقد أطلق على هذا المسلك فيما بعد اسم « التفسير بالرأي » .

ويعد تفسير الإمام فخر الدين الرازي (مفاتيح الغيب) نموذجاً بارزاً للتفسير بالرأي ، ويليه في ذلك تفسير الإمام البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وتفسير أبي السعود (ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) .

ولا يذهبن بك الوهم إلى أن أصحاب التفسير بالرأي يستبدلون بالرواية والأحاديث الثابتة في تفسير الآية رأياً أو حكماً من عند أنفسهم ، فهذا مما لا يقدم عليه مسلم وهو عمل محرم بالاتفاق .

بل الحقيقة أن ثمة قدراً مشتركاً بين أصحاب التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي ، وهو الأخذ بما صح عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة (على الصحيح الذي يعتبر قول الصحابي في التفسير في حكم المرفوع) في تفسير الآية . ثم يفترقان بعد ذلك : فصاحب التفسير بالمأثور لا يزيد على ذلك إلا أن يعزز النقل بنقول أخرى مثلها أو

مخالفة لها ليجمع بينها ، وصاحب التفسير بالرأي يجيز لنفسه أن يزيد على ذلك من اجتهاداته واستنباطاته المختلفة بقدر ما تسمح به دلالة اللفظ .

وعلى كل فإن الذي يجمع بين طريقتي التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي شروط أربعة لا بد من مراعاتها لكل من حاول أن يفسر شيئاً من كتاب الله تعالى أياً كان مسلكه ومنهجه في ذلك .

(الشرط الأول) التزام القول بما ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك ، طالما كان فيه حديث ثابت صحيح ؛ قالوا : ولكن ينبغي الحذر من الوقوع في الضعيف والموضوع ايضاً ، وقد بين العلماء ذلك وميّزوه .

قال ابن جرير ما خلاصته : ومصدر هذا الوجوب أننا نقطع أن في القران ما لا ندرك معناه إلا ببيان الرسول ﷺ ، بدليل قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم) ، مثال ذلك جميع الآيات المتعلقة بالأوامر والنواهي والإرشاد ، مما يتوقف فهمه على معرفة نوع النهي والأمر فيه ومبالغ فرائضه وقدرها وحدودها وشروطها وقيودها . وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ أو إقراره لأحد من أصحابه[1].

وعلى هذا المعنى ينزل ما ورد عن رسول الله ﷺ من قوله (من قال في القرآن برأيه فليتبوّء مقعده من النار) رواه الترمذي وأبو داود . وما روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال (أي أرض تقلّني وأي سماء تظلني اذا قلت في القرآن مالا أعلم ؟) .

(الشرط الثاني) التزام الأخذ بقول الصحابة إذا كان قد أثر عنهم في ذلك قول . وهذا على ما ذهب اليه الأكثر من أن تفسير الصحابة للقرآن يعتبر في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، وذلك لأنه ليس من قبيل الرأي وإنما هو في الحقيقة من قبيل الرواية .

---

(١) تفسير جرير : ١/٢٥ .

(الشرط الثالث) التزام قواعد اللغة العربية وضوابطها ومقاييسها في تفسيره فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وإنما تفسره الدلالات اللغوية والقواعد العربية فمن لم يكن ذا بصيرة سليمة في فهم العربية فليس له أن يفسر شيئاً من كتاب الله عز وجل . روى البيهقي في شعب الايمان عن مالك بن أنس قال : لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب ، يفسّر كتاب الله تعالى الا جعلته نكالا .

(الشرط الرابع) التزام المقتضى الذي يدل عليه العلم بكتاب الله تعالى ، والتزام أصول الشرع وقواعده في الفهم والاستنباط والاجتهاد كالمفهوم والفحوى ودلالة العام والخاص والمطلق والمقيد ، وهي في مجموعها انما تعتبر ملكة علمية تؤهل صاحبها لاستنباط المعاني والأحكام من كتاب الله عز وجل . فليس من ضير (بعد أن يلتزم المفسر الشروط الثلاثة الاولى) في أن يستنبط مزيداً من التفسير للآية بدلالة المقتضى والقواعد العلمية التي رسخ في معرفتها وتذوقها .

واستنباط المعنى من الآية بهذه الوسيلة ، هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حينما قال : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وهو المقصود بما قاله علي رضي الله عنه عندما سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال : ما عندنا غيرما في هذه الصحيفة **أو فهم يؤتاه الرجل** (رواه البخاري) .

ولكن لايجوز تفسير القرآن – على كل حال – بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل يستند اليه ، فهو أشبه بحال من لم تكن عنده أي بصيرة فقهية وهو يزعم أنه يجتهد في استنباط أحكام الفقه . ففي حق مثل هذا قال رسول الله ﷺ (من قال في القرآن بغير علم فليتبوّء مقعده من النار) وقال (من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

قال البيهقي في شعب الايمان : هذا إن صح ، فإنما أراد – والله أعلم – الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه ، فمثل هذا لا يجوز تفسير القرآن به [1] .

---

(١) هذه الشروط ذكرها الزركشي في البرهان : ١٥٦/١ والصفحات التي تليه ، ونقلها السيوطي في كتابه الاتقان : ١٧٨/٢ . وقد عرضناها بألفاظ مختلفة ، قصداً لزيادة الايضاح .

فهذه الشروط لا بد من التزامها سواء بالنسبة لمن يفسر القرآن بالمأثور ولمن يفسره بالرأي .

وبذلك تعلم أنه لا خلاف بين هذين المنهجين في التفسير من حيث نقد أصحاب أحدهما على الآخرين ، وإنما هو مجرد اختيار للطريقة ، وما دامت الشروط متوفرة فلا ضير .

ونختم حديثنا عن التفسير ببيان أن ما يسلكه بعض الناس اليوم من تفسير الآيات الكونية في كتاب الله تعالى طبق نظريات وآراء علمية ، لا دلالة في الآية عليها بميزانها اللغوي وحسب القواعد العلمية للتفسير ، هو من قبيل التفسير الفاسد الذي يتبع فيه المفسر رأيه المجرد ، ومثله ما يسمى بالتفسير الإشاري أو الباطني الذي ينتهجه بعض الفرق الباطنية ، أو المنحرفون من المتصوفة .

ونحن لا نطيل في بيان وجه الفساد في ذلك : ولكنا نحيلك إلى ميزان هو كل من الشرطين الأخيرين للتفسير ؛ فكل ما لم تساعد عليه القواعد العربية الا بتكلف وتمحل ، أو كل ما لم ينسجم مع مقتضى النسق القرآني العام ، ولم يتفق مع قواعد الاجتهاد والاستنباط التي تحدثنا عنها ، فهو من قبيل التفسير الفاسد الذي لا يستند إلى أصل وهو من أجلى أمثلة ما نهى عنه رسول الله ﷺ .

المكيّ والمدَني

تعريف كل منهما — خصائص كل منهما — والفائدة من معرفة ذلك

تمهيـــد :

ينقسم القرآن في مجموعه إلى مكي ومدني . وقد عني العلماء والرواة عناية كبرى بتمييز هذين القسمين عن بعضهما واستخراج خصائص كل منهما ، لما يترتب على ذلك من الفوائد التشريعية والتاريخية التي ستعلمها فيما بعد . بل ولقد عني الرواة والباحثون بتصنيف القرآن إلى ما نزل منه في النهار وما نزل منـه في الليل ، والى ما نزل منه في الاسفار .

ونحن لن نتناول في هذه العجالة حديث الليلي والنهاري أو الحضري والسفري من القرآن ، لأنا نرى أن فائدة ذلك — في هذا المقام — فائدة جزئية ضعيفة ، وإن كان البحث فيه ينبهنا إلى مدى اهتمام العلماء والرواة بالقرآن والى مدى خدمتهم ودراستهم له من شتى الجوانب المختلفة ،

تعريف المكي والمدني :

للعلماء ثلاثة اصطلاحات في تعريف كل من المكي والمدني .

أحدها ، أن المكي هو كل ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينـة ، سواء كان ذلك من قبل الهجرة أو بعدها . فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده .

والثاني ، أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، فالاعتبار على هذا للموضوع وحده .

والثالث ، أن المكي ما نزل من قبل الهجرة والمدني ما نزل من بعد الهجرة، دون نظر إلى مكان النزول بالذات . والاعتبار على هذا للزمان وحده [1] .

وهذا الاصطلاح الثالث هو أشهر وأصح ما قيل في هذا الموضوع .

وبناء على ذلك فإن كل ما نزل من القرآن من قبل هجرته ﷺ إلى المدينة يسمى مكياً سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي جهة أخرى . وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني سواء نزل بالمدينة أو في الأسفار والغزوات أو في مكة في عام الفتح .

وقد تجد في القرآن سوراً نزل كلها من قبل الهجرة كسورة « ق »و « هود » و « يوسف » . وقد تجد فيه سوراً نزل كلها بعد الهجرة كسورة « البقرة » و « ال عمران » . وقد تجد فيه سوراً كلها ملكية إلا بضع ايات منها نزلت بعد الهجرة كسورة الأنعام : كلها مكي إلا ست آيات منها فهي مدنية نزلت بعد الهجرة ، وقد تجد سوراً كل اياتها مدنية إلا بعض ايات منها فهي مكية كسورة الأنفال والتوبة .

ولعلك تسأل : فكيف تسنى للعلماء أن يعرفوا تفصيل هذا الأمر ، وكيف أمكنهم أن يعلموا أن هذه الآية نزلت في مكة والأخرى في المدينة ، وأن هذه نزلت في الليل وتلك نزلت في النهار ؟

والجواب أن سبيل معرفة ذلك إنما هي الرواية الصحيحه الصادقة ، وهي نفس السبيل التي وقف بها العلماء على تفسير القرآن بالمأثور ، كما مر بيانه . ومما سهل للعلماء ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم عنوا بالقرآن عناية فائقة عجيبة ، فكانوا يؤرخون كل آية بوقت ومكان نزولها ، وربما اتخذوا من الأماكن والجبال والمفاوز

(١) راجع البرهان : ١/١٨٧ والاتقان : ١/٩

التي يعلمونها أماكن ذكرى ، بسبب أن آية أو آيات من القرآن قد نزلت فيها على رسول الله ﷺ .

روى البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : والذي لاإله غيره ، مانزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه (١) .

وذكر في الإتقان نقلاً عن كتاب الحلية بالسند أن رجلاً سأل عكرمة رضي الله عنه عن آية من القران فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ، وأشار إلى سلع (٢) .

وأنت خبير أنا لانقصد بما نقول جميع الصحابة ، بل إن فيهم من لم يتوفر على ذلك ، ولكنا نقصد منهم أولئك الذين اشتهروا بقراءة القران وحفظه وتلقيه من فم رسول الله ﷺ ، وهم كثيرون . فكانوا يحفظون مع نطقِ الآية وتلقيها وكتابتها — تاريخ نزولها .

فاشتغل التابعون ومن بعدهم برواية هذا كله ونقله ، بالطرق العلمية ، وحسب قواعد المصطلح . وبذلك وجد العلماء بين أيديهم ماأطلق عليه فيما بعد إسم (علم المكي والمدني) .

خصائص كلٍ منها :

علمت مما قلناه أن الآيات الملكية من القرآن ، هي التي نزلت في صدر الإسلام ، وهي الفترة التي يحدها من الزمن ثلاثة عشر عاماً ، أمضاها رسول الله ﷺ في مكة معذباً مضطهداً ، يقابل الإيذاء والاضطهاد بالمسالمة مع المضي في الدعوة إلى الحق الذي أوحي إليه .

وعلمت أن الآيات المدنية هي تلك التي نزلت من بعد الهجرة ، وهي الفترة

---

(١) صحيح البخاري : ١٠٢/٦

(٢) انظر الاتقان للسيوطي : ٩/١

التي يجدها من الزمن عشرة أعوام ، بنى فيها رسول الله ﷺ الدولة الاسلامية حيث تكاملت مقوماتها الادارية والدستورية والقانونية .

وعلى هذا ، فإنك تجد خصائص كل من القسمين ، مستمدة من طبيعة هاتين المرحلتين التي عاشها النبي ﷺ قائماً بأمر الدعوة .

فأنت تجد أن الآيات المكية تمتاز بواحد مما يلي :

١ً ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية ودعوة الناس إلى الاعتبار بهم إلا مايتعلق بالحديث عن عيسى عليه الصلاة والسلام ومريم وقصة ولادته ، فقد نزل بعض ذلك في المدينة حجاجاً لأهل الكتاب .

٢ً ـ المناقشة والحجاج وعرض الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وعلى بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب .

٣ً ـ تثبيت فؤاد الرسول ودعوته إلى الصبر على الأذى تأسياً بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا لدعوة الناس إلى هذا الدين ذاته .

٤ً ـ يغلب على الآيات المكية أن تكون قصيرة ذات وقع معين في الأذن والنفس تبعث على الرهبة والخشية وتشعر بمعنى الجلال والجبروت ، كمعظم السور التي تقرأها في جزء تبارك وعم يتساءلون .

فهذه الخصائص تجدها في الآيات المكية وهي من طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة الاسلامية . أما خصائص الآيات المدنية فهي ما يلي :

١ً ـ البحث في الأحكام والتشريعات المتعلقة بالعبادة والمعاملات والحدود وغيرها .

٢ً ـ الأمر بالجهاد والقتال والتعليق على الغزوات ومايتعلق بها من شأن الغنائم والأسرى والمنافقين .

٣ً ـ البحث في شؤون الحكم والشورى وضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب والسنة .

٤ً – يغلب على الآيات المدنية أن تكون طويلة فيها اللين والهدوء ، ووعد المسلمين بالفوز والنصر [١] .

فتلك هي خصائص الآيات المدنية ، وهي من طبيعة المرحلة الثانية التي مرت بها الدعوة الاسلامية . وبهذا تستطيع أن تميز بين السور المكية والمدنية من غير رجوع إلى روايات العلماء والمفسرين في ذلك . فحسبك أن تقرأ سورة البقرة وتطلع على ماتجمع فيها من أحكام الصيام والحج والوصية والقصاص والنكاح والرضاع والطلاق وغيرها ، لتعلم أنها سورة مدنية . وحسبك أن تقرأ سورة مثل سورة ق وتقف على مافيها من الحجاج والنقاش مع المشركين وما فيها من الأدلة على وجود الله ، وما ينبعث من جرسها وفواصلها وإيقاع آياتهـــا من معاني الشدة والتهديد والجبروت ، لتعلم أنها سورة مكية .

الفائدة من معرفة هذا العلم :

تتوقف فوائد علمية كثيرة على معرفة المكي والمدني من القرآن .

فمن أهمها معرفة ماقد يوجد في القرآن من ناسخ ومنسوخ . ليصار الى الأخذ بالناسخ . واطراح المنسوخ (في مجال الأحكام والتشريع) ، وانما تتوقف معرفة ذلك على معرفة تاريخ نزول الايات .

واعلم أن وجود (الناسخ والمنسوخ) في القران ، اقتضته ضرورة أخذ الناس بالتدريج في الاحكام الشرعية . كالآيات التي نزلت متدرجة في تحريم الخمر ، وكالآيات التي نزلت في عقوبة الزنى .

وليس معنى نسخ الحكم في آية من آيات القرآن أن قرآنيتها قد سقطت بذلك بل هي تظل قرآناً يتلى ويتعبد به وهي من كلام الله عز وجل ، ولكن يبطل العمل بها لمكان الآية التي نسختها .

وفائدة ذلك لنا نحن ، التبصر بالمراحل التدريجية التي سار فيها التشريع والاطلاع على الطريق الحكيمة المثلى التي أخذ الله بها عباده فيما سنّ لهم من أحكام .

---

(١) البرهان للزركشي : ١/١٨٩ ، بتصرف وزيادة

ثم إن (الناسخ والمنسوخ) علم خاص من علوم القرآن بحث وكتب فيه علماء التشريع . ولكنا نكتفي منه هنا بالذي أوضحناه لك ، والزيادة عليه شيء يتعلق بالفقه والتشريع أكثر من تعلقه بالعربية وآدابها .

ومن فوائد ذلك أيضاً تتبع مراحل الدعوة الاسلامية ، والاطلاع على كيفية تكامل بنية الفكر والتصور الاسلامي . وهذا مما يهم الباحثين في تاريخ التشريع وأطواره .

ومن فوائده أنه يبصر القارىء والمفسر بمعنى الآية ويحجزه عن الخطأ في تفسيرها . ذلك أن من قرأ سورة (قل يا أيها الكافرون) ولم يعلم زمن نزولها وهل مكية هي أم مدنية ، فإنه يحار في معناها ، وقد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلفون بالجهاد في أيّ الأحوال ، وإنما عليهم أن يقولوا للآخرين : لكم دينكم ولي دين . فإذا علم أن هذه السورة إنما نزلت في مكة ، عندما قال بعض صناديد الشرك لرسول الله ﷺ : تعال يامحمد نعبد إلهك يوماً وتعبد إلهنا يوماً — إذا علم هذا ، أدرك أن هذه السورة إنما هي علاج لتلك المرحلة ذاتها وليست دليلًا على عدم مشروعية الجهاد كما نزلت بذلك الآيات الأخرى في المدينة .

★ ★ ★

المبهم والمتشابه في القرآن

تمهيد .

. إعلم أن عامة جمل القرآن وألفاظه لا تخرج عن أن تكون من قبيل المحكم أو المتشابه أو المبهم .

فأما المحكم ، فهو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره [1] ، وأما المبهم فهو ما قد يعرف ظاهره ولكن العقل يتوقف في تصوره وتفصيله وإدراك حقيقته ، وأما المتشابه فهو ما احتمل وجهين أو وجوها من المعنى دون وجود ما يعين واحداً منها تعييناً ظاهراً أو قاطعاً .

وقد ذهب بعض الكاتبين الى إدخال « المبهم » في المتشابه وجعل القسمة ثنائية ولكن مذهب من ميّز بين المبهم والمتشابه أدق وأوجه ، إذ انه اذا صح إدخال بعض أنواع المبهم - مثل فواتح السور - في المتشابه فهنالك أنواع أخرى منه لا تدخل فيه ولا يمكن أن تعتبر منه ، كتلك الأنواع التي سنتحدث عنها .

هذا ، وإن عامة آيات القرآن مما يتعلق بالأوامر والنواهي والارشاد والوعد والوعيد من قبيل المحكم ، ولذلك أطلق الله تعالى عليها اسم : « أم الكتاب » حينما قال : (منه ايات محكمات هنّ أمّ الكتاب) أي أساسه وجوهره

---

(١) لعل هذا أصح ما عرف به المحكم ، وهو تفسير جابر بن عبد الله رضي الله عنه وغيره من الصحابة ، وانظر تفسير القرطبي : ٩/٤

الذي يقع به الخطاب ويتم به التكليف . وما فيه من المتشابه والمبهم ، قليل بالنسبة للمحكم ، وجد الحكمة باهرة سنذكر طرفاً منها فيما بعد .

ولقد أطال الباحثون عن الحديث في محكم القرآن ومبهمه ومتشابهه ، لاسيما في القسمين الأخيرين منه ، وأفرد السهيلي وابن عساكر والقاضي بدر الدين بن جماعة تآليف في مبهم القران وبيان حكمه ، كما أفرد ابن أبي الأصبع تأليفاً في فواتح السور [1] ، وهو نوع من مبهم القران .

ونحن لن نذكر في هذه العجالة إلا ما لابد منه لدارس اللغة العربية وآدابها ، وعلى من أراد التوسع في ذلك أن يرجع إلى ما كتبه علماء الكلام والتفسير والى المؤلفات الخاصة بالبحث في علوم القران .

. . .

المبهم : أنواعه ، أمثلة له ، الحكمة منه :

مبهمات القران كلها ، تنحصر في نوعين ، وذلك حسب شدة الإبهام وضعفه:

النوع الأول : الأحرف المقطعة التي افتتح بها بعض السور ، كقوله تعالى: (الٓمٓ ، حٰمٓ ، كٓهٰيٰعٓصٓ) فهي ألفاظ مبهمة ، بمعنى أن القارىء لايفهم منها شيئاً وراء ظاهر حروفها وما ينطق بها .

ولقد انقسم العلماء في تأويل هذه الفواتح إلى مذهبين :

أحدهما : أن لهذه الفواتح علماً مستوراً وسراً محجوباً استأثر الله بعلمه ، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد قال فيما روي عنه: في كل كتاب سر ، وسرّه في القرآن في أوائل السور [2] .

ثانيها : أن لهذه الفواتح مراداً معلوماً ومعنى يمكن الوصول اليه بالنظر والبحث

---

(١) انظر الاتقاق للسيوطي : ٢/١٠٥ و ١٤٥

(٢) انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ١/١٥٤ والبرهان للزركشي : ١/١٧٣

وإلى هذا ذهب جمهور الباحثين من علماء الكلام : « العقيدة » والعربية وغيرهم . وهو المروي عن ابن عباس وعلي ابن ابي طالب وجمع كبير من الصحابة [١] .

ولأصحاب هذا المذهب الثاني تأويلات وتحليلات مختلفة ، لا نستبعد أن تكون كلها مقصودة كما قال ابن فارس وغيره [٢] ، إذ هو الشأن الغالب على معظم الفاظ القرآن : تحتمل اللفظة معاني مختلفة كلها يصلح أن يكون مراداً ، إذ كلها مصداق للحقيقة التي تعبر عنها الآية . وهذا من أبرز مظاهر الاعجاز في القرآن ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

غير أنا نذكر من هذه التأويلات أقربها إلى النظر وأسرعها الى الذهن وأكثرها شيعة وأنصاراً ، فقد ذهب قطرب والفراء والمبرد وعامة علماء العربية وجمع عظيم من المحققين إلى أن هذه الأحرف المقطعة إنما افتتحت بها السور ، لتدل على أن القرآن ليس الا كتاباً ألفّ من هذه الأحرف الهجائية : ا ، ب ، ت ، ث .. الخ تلك التي تبنون كلامكم واشعاركم منها ، ومع ذلك فلن تستطيعوا أن تألفوا من هذه الاحرف كلاماً مثله [٣] . ويدّل على سلامة هذا التفسير ووضوحه أن الكلمة التي تلي هذه الفواتح تحمل معنى الكتاب وتقع في معظم الأحيان موقع الخبر منها كقوله تعالى في سورة البقرة (الٓمٓ ، ذلك الكتاب) وفي سورة الأعراف (المٓص ، كتاب أنزل اليك) وفي سورة يونس (الٓر ، تلك آيات الكتاب الحكيم) وفي سورة هود : (الٓر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وفي سورة النمل (طٰسٓ ، تلك أيات القرآن وكتاب مبين) .

ولا يبعد أن تكون هذه الأحرف المقطعة تحمل الى جانب هذه الدلالة أسراراً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١/١٥٥ وانظر مشكل القرآن لابن قتيبة : ٦٣ و ٦٤

(٢) انظر البرهان : ١/١٧٥

(٣) انظر تفسير الطبري : ١/٦٧ وتفسير الفخر الرازي : ١/٢٣٠ والجامع لأحكام القرآن ١/١٥٥ والبرهان : ١/١٧٥

معينة ، وأن تكون قد سيقت مساق القسم بها ، وأن يكون موقعها في صدر السورة موقع التنبيه للاسماع والأذهان الى الكلام الذي يعقبها .

النوع الثاني : جمل وألفاظ ، هي من حيث تركيبها وظاهر دلالتها أمر واضح ومعلوم ؛ ولكن فيها ابهاماً من حيث الزمن المتعلق بها ، أو من حيث تعيين اسماء المشار إليهم فيها ، أو من حيث نكارة وغرابة المتحدث عنه فيها ، فهذه ثلاثة أصناف للابهام في نوعه الثاني ، نذكر لكل صنف منها مثالاً :

مثال الصنف الأول ، الآيات المتعلقة بقيام الساعة ، من مثل قوله تعالى : (.. ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ..) الآية فالجمل التركيبية في هذه الآية واضحة المعنى ولكن فيها ابهاماً تتطلع إلى كشفه النفس . وذلك من حيث تحديد الزمن الذي ستقوم فيه الساعة أي يوم القيمة . ولا شك أنه أمر مبهم ستره الله حتى عن علم الأنبياء والمقرّبين اليه .

ومثال الصنف الثاني ، قولة تعالى : (واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بالحقِّ إذ قرَّبا قُرْباناً فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخرِ قال لأقْتُلنَّكَ ، قال انَّما يتقبَّلُ اللهُ من المتَّقين) المائدة : ٢٧ .

فالجمل والكلمات في هذه الآية واضحة الدلالة والمعنى ، ولكن فيها ابهاماً من حيث تعيين المقصود بولدي آدم فمن هما ولدا آدم الذان كان من شأنها ما أخبر به عنهما ؟ وهو ابهام كشفت عنه السنة وما وصلنا من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم ، فالمقصود بولدي آدم في الآية : قابيل ، وهابيل وهما ولدا آدم لصلبه .

ومثال الصنف الثالث ، قوله تعالى (حتّى اذا فُتِحَتْ يأْجُوجُ ومأجُوجُ وهمْ من كُلّ حَدَبٍ يَنْسِلوُن واقْتَرَب الوعْدُ الحقّ فاذا هي شاخصةٌ أبصار الّذينَ كفرُوا ، يا ويْلنا قد كنّا في غفْلةٍ من هــذا بل كنّا ظالمين)[1].
فمن هم يأجوج ومأجوج ومتى يحين وقت ظهورهم ومـــا هو شأنهم وعملهم ؟

(١) الأنبياء : ٩٦ و ٩٧

ذلك أيضاً من المبهم الذي لم تكشف عنه الآية بأكثر من الإخبار عنه وأنه من الغيب الذي سيقع في حينه المقدّر له في علم الله .

ومثاله أيضاً قوله تعالى : (وإذا وقعَ القولُ عليهم أخرجْنا لهُمْ دابّةً مِن الأرضِ تُكلِّمُهمْ أنّ الناسَ كانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُون) النمل : ٨٢ ، فما هي هذه الدابة التي ستخرج الى الناس تكلمهم وتحدثهم ؟ لا تزيد الآية على الإخبار بهذا الغيب الذي سيقع ، وتفصيل الأمر فيه من المبهم الذي لا يكشفُ عنه الا الواقع الذي يأتي في حينه .

فهذه أمثلة لأصناف المبهم الذي وقع في القرآن ، واذا تأملت فيها علمت أن منها ما أمكن تفسيره وكشفه عن طريق الوقوف على تفسير السنة له ، ومنها ما ظل مبهماً مكنوناً في غيب الله عز وجل ، لا يكشفه الا الواقع الذي أخبرت عنه الآيات .

◆ ◆ ◆

بقي أن تعلم الحكمة من وجود مثل هذه المبهمات في كتاب الله عز وجل .

فأما الإبهام المتعلق بفواتح بعض السور ، فقد علمت مما ذكرناه ، أن مذهب جمهور العلماء والباحثين أن لهذه الفواتح معنى يمكن الوصول اليه بالنظر والبحث فالإبهام فيها انما هو بمعنى الغموض والخفاء الذين يمكن ازالتها والوصول الى ما وراءهما ، وليس بمعنى انغلاق اللفظ على المعنى واستحالة وصول القارىء أو المتدبر الى المقصود .

غير أنك قد تسأل : ففيم هذا الغموض والخفاء وانما هو كتاب أنزل للقراءة والفهم ؟ .

فالجواب : أن القرآن ـ كما يقول ابن قتيبة ـ إنما نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار ، والإطالة والتوكيد ، والإشارة الى

الشيء ، واغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن (سريع الفهم) وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي .

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر (١) .

وإن من فوائد وثمرات ما تلبّست به هذه الفواتح من الإبهام ، ما تراه من الأبحاث المختلفة الجليلة ، التي أقامها العلماء على هذه الفواتح ، سواء منها ما يتعلق بطبائع هذه الحروف ووجه اتساقها مع بعضها ، وما يتعلق بالعلوم المستخرجة منها والدلالات المشيرة إليها ، حتى غدت هذه الفواتح مصدر علم قائم برأسه من علوم القرآن . وإنما اندفع العلماء والباحثون إلى استخراج كل ذلك والبحث فيه بسبب ما يكتنفها من الغرابة والغموض الحاملين على النظر والفكر .

وإنما يأتي الكشف والإبداع من وراء الحاجة وضيقها . وإنما يقع الخمول والبلادة من الشعور بالاستغناء والكفاية .

والإعجاز القرآني في جملته ، قائم على البحث والنظر في أمور منها الخفي والجليّ ، ومنها الدقيق والأدق ، واللطيف والألطف ، وإلا فكيف تتبع المعاني للجملة الواحدة من وراء بعضها ، وكيف تأتي الدهشة لها إذا كان جميعها من الظهور بحيث تنكشف لكل قارىء وناظر مهما تفاوتت درجة العلم ورتبة الفهم؟

واعلم أننا إنما نصدر في هذا الذي نقول ، عن المذهب الذي تمسك به جمهور الباحثين من أن ما قد يوجد في القرآن من المبهم أو المتشابه يمكن للراسخين في العلم أن يفهموا فيه فهماً صحيحاً ويقعوا منه على علم ، حاشا المغيبات التي أشار القرآن اليها أو تحدث عن طرف منها وأبهم منها طرفاً اخر .

ونقول في هذا ما قاله ابن قتيبة في كتابه ، تأويل مشكل القران :

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ٦٢

[ولسنا ممن يزعم ان المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم . وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى . ولم ينزل الله شيئاً من القران إلا لينفع به عباده ويدلّ به على معنى أراده . فلو كان المتشـــابه لا يعلمه غيره ، للزمنا للطاعن مقال وتعلّق علينا بعلة .

وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه ؟ وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى (وما يعلم تأويله الاّ الله) جـاز أن يعرفه الربانيون من الصحابة ، فقد علّم عليّاً التفسير ودعا لابن عباس فقـال : اللهم علّمه التأويل وفقهه في الدين] .

ثم قال ابن قتيبة :

[وبعد ، فإنا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هـذا لا يعلمه إلا الله ، بل أمرّوه كله على التفسير ، حتى فسروا الحروف المقطعـة في أوائل السور مثل : الـر ، وحـم ، وطـه وأشبـاه ذلك . **فان قال قائل** : كيف يجوز في اللغة « أن يعلمه الراسخون في العلم والله تعالى يقول : (وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) وأنت إذا أشركت الراسخين في العلم انقطعوا عن « يقولون » وليست ههنـا واو نسقٍ توجب للراسخين فعلين ، وهذا مذهب كثير من النحوين في هذه الآية ومن جهته غلط قوم من المتأولين . **قلنا له** : إن « يقولون » ههنـــا بمعنى الحـــال ، كأنه قال : والراسخون في العلم قائلين : آمنا به . ومثله في الكلام : لا يأتيك إلا عبد الله وزيد يقول : أنا مسرور بزيارتك ، يريد : لا يأتيك الا عبد الله وزيد قائلاً أنا مسرور بزيارتك] [1] .

وأما الابهام في النوع الثاني : وهو الجمل المفهومة من حيث ظاهر دلالتهـا وتركيبها ولكن فيها ابهاماً من حيث تعيين الزمن أو تعيين الأسمـاء أو نـكارة وغرابة المتحدث عنه – فمردّ ذلك الى أحد أسباب ثلاثة :

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٧٣ و ٧٤

السبب الأول : عدم تعلق أي غرض بتفصيله والكشف عنه ، كالذي يكون في مساق ذكر بعض القصص والأحداث من ابهام اسماء الاشخاص وعدم تعيين الأمكنة أو الأزمنة المتعلقة بها . فهذه القصص والأحداث انما تساق للاتعاظ بها وأخذ العبرة منها . وتحقيق ذلك يتوقف على عرض الجانب الذي يحمل معنى العظة والعبرة ، دون غيره مما يشتت الذهن عن المطلوب ويبعد المتأمل عن القصد . ولذلك لم يتعلق الغرض القرآني بالكشف عن اسم ولدي آدم وهويتها في الآية المذكورة ، ومن أجل ذلك أيضاً يقوم أسلوب القصة في القرآن على توجيه القارىء الى مكان العبرة منها وتحويل ذهنه عن اللحاق بجزئياتها وهوامشها التاريخية المجردة . وسنفصل القول في ذلك ان شاء الله عند الحديث عن القصة في القران .

السبب الثاني : أن يكون هذا الأمر المبهم من الغيوب التي استأثر الله تعالى بعلم أزمنتها وآجالها . وأنت تعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يخفي عن عباده — لمصلحة عظيمة باهرة — كثيراً من الحقائق المتعلقة بالغيب الذي لم يقع بعد . وأهمها أجل الانسان الذي تنتهي عنده حياته وأجل الدنيا الذي تقوم عنده الساعة ، وما سيجنيه من ربح أو خسران وسعادة أو شقاء .

فكل الآيات التي تتعلق بمثل هذه الأمور ، يظل فيها هذا الجانب مبهماً ، لأن الغرض الديني قد تعلق ببقائه كذلك ، ولأن حقيقة العبودية لله عز وجل تقتضي ذلك . فمن هذا القبيل قوله تعالى : « ان زلزلة الساعة شيء عظيم » ، وقوله تعالى « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

وهكذا ، فالحقيقة الدينية في مجموعها قائمة على هذا النوع من الابهام : ابهام الأمور الغيبية من حيث عدم كشف أزمنتها وتعيين كيفيتها وآجالها . وذلك ليتلبس الانسان بحقيقة « الايمان بالغيب » الذي تعبده الله عز وجل به .

السبب الثالث : كون الأمر المتحدث عنه لم يقع بعد . ومن شأن الخبر

المتحدث عنه مما لم يقع بعد ، ولم يقع له نظير أو مثيل فيما مضى أن يظل جانب كبير فيه مبهماً ، لا يكشفه الا الواقع والحقيقة . وقد أخبرنا الله عز وجل عن أمور غريبة ستقع في المستقبل ، وهي مما لم يقع له نظير فيما مضى كالاخبار عن دابة الأرض ويأجوج ومأجوج في الآيات السابق ذكرها . فما لاريب فيه أن الصورة الجلية لمثل هذه الأمور في الذهن لا تتوفر بمجرد الوصف والاخبار ، وانما تأتي لدى المشاهدة والعيان . فالإبهام في هذه الحالة أمر طبيعي لا اشكال فيه ، اقتضاه عدم وقوع المخبر عنه بعد .

. . .

المتشابه : المقصود به ، حكمه :

وانما نقصد بالمتشابه تلك الجمل التي تنازعها أكثر من معنى واحد ، اذ كان اللفظ أو التركيب صالحاً للدلالة على كلٍ منها دون أن يكون صالحاً للدلالة عليها كلها بآن واحد . فيحار المفسر في المعنى المراد منها اذ كلها شبيه بها وقريب . ولقد قيل بعد ذلك لكل ما غمض ودق : متشابه ، وان لم تقع الحيرة فيه من جهة شبهه بمعنيين . ولكن الطريقة التي سلكناها من التفريق بين المبهم والمتشابه تقتضينا أن نقصر اسم « المتشابه » على معناه الأساسي الأول في هذا المقام .

والآيات المتشابهة بالمعنى الذي ذكرنا ، إنما وقع فيها ذلك من جهة المجاز واستعماله . فبسببه قد يقع الغلط ويكثر التأويل وتختلف المذاهب والأقاويل .

غير أنه ينقسم الى نوعين : فاما النوع الأول منه فالخطب فيه يسير ، وأمر التأويل فيه واضح ، ووجه المجاز فيه غير خفي .

وهذا النوع ينطبق على عامة الآيات التي تتجلى فيها البلاغة القرانية عن طريق التصوير وتجسيم المجردات من المعاني . فلا يكاد يقع في أمرها اشتباه الا بالنسبة لمن كانت بضاعته في العربية ناقصة وضعيفة .

مثال ذلك قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان)[1] وقوله : (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)[2] وقوله : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون)[3] وقوله عن بعض الكافرين الذين أهلكوا : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)[4].

فلا يشك العربي أن المقصود بالآية الأولى : سنقصد اليكم بعد طول الترك والإمهال ، وأن المقصود بالآية الثانية : الكناية عن مدى سعتها ، مع عدم أي مانع من أن يكون الأمر على الحقيقة فيسأل الله النار وينطقها بالجواب ، تهويلاً للأمر وكشفاً عن جليل قدرته وتنبيهاً إلى عدم وجود أي قيمة حقيقية لمعنى الأسباب والمسببات الكونية ؛ وأن المقصود بالآية الثالثة : بيان شدة الأمر على الناس إذ ذاك ، وأن المقصود بالآية الرابعة : أنه لم يبك عليهم باك ولم يجزع لفقدهم جازع .

وأما النوع الثاني : فهو الذي وقع بصدده الكلام والبحث واختلفت حوله آراء العلماء فيما يبدو . وينطبق هذا النوع على بعض آيات الصفات الإلهية ، من مثل قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[5] وقوله: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم)[6] وقوله : (ولتصنع على عيني)[7] ومحل الشبهة في مثل هذه الآيات ، أن ظاهرها يثبت لله تعالى جوارح ومكاناً ، وهو مخالف لصريح قوله تعالى : (ليس كمثله شيء)[8].

وموقف العلماء والمفسرين من مثل هذه الآيات ينبثق عن منهجين اثنين :

الأول منهما متفق عليه لم يقع بينهم في ذلك خلاف ، وهو تفسير المتشابه على

---

(١) الرحمن : ٣١
(٢) ق : ٣٠
(٣) القلم : ٤٢
(٤) الدخان : ٢٩
(٥) طه : ٥
(٦) الفتح : ١٠
(٧) طه : ٣٩
(٨) الشورى : ١١

ضوء المحكم من الآيات القرآنية . وقوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقوله (ولم يكن له كفواً أحد) من المحكم الذي لا شبهة في معناه : فاتفقوا على أن الله تعالى لا يشبهه شيء من المخلوقين وصفاتهم وأحوالهم .

الثاني منها محل خلاف في الظاهر ، وهو تأويل آيات الصفات إلى المجاز أو تفسيره على الحقيقة . فالسلف الأول من العلماء والمفسرين آثروا إبقاء اللفظ على الحقيقة مع الإيمان بأن الله تعالى لامثيل له وبأنه منزه عن صفات النقص ووكلوا تحليل الأمر في ذلك وشرحه إلى الله عزوجل .

ذكر السيوطي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فقالت . الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من الإيمان والجحود به كفر . وسئل مالك رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وأما الخلف منهم ، وهم الذين جاءوا في عصر ازدهار العلوم والتدوين ، واتساع حلقات البحث والمناقشات العلمية ، فقد آثروا أن يحملوا ألفاظ هذه الآيات على محمل يليق بذات الله تعالى مع التزام الدلالة اللغوية وعدم الخروج عليها أو التكلف في معالجتها ، ففسروا الاستواء بتسلط القوة والسلطان ، وفسروا اليد بالقدرة ، والعين بالعناية والرعاية . وهو تفسير تدل عليه طبيعة الاستعمال اللغوي وجملة الأسلوب القرآني .

وإنما قلنا إن الخلاف في هذا الأمر الثاني في الظاهر فقط ، لأن المآل فيما ذهب إليه كل من السلف والخلف واحد ما دام الأمر الأول محل اتفاق وهو أنه عزوجل لا يشبهه شيء من مخلوقاته وأنه منزه عن جميع صفات النقص ، والخلاف شكلي ، ينحصر في طريقة تفسير هذه الألفاظ التي تدور بين تركها على حقيقتها

مع تنزيه الله تعالى عن الكيف والنقص ، وتأويلها على المجاز لتتفق لغوياً مع تنزيه الله تعالى عن الكيف والنقص .

هذا وليس لنا شأن ، بتلك الطوائف التي ضلت وشذت ، ممن يقال عنهم المعطلة والمجسمة ، إذ لا يقام لهم أي حساب فيما يتعلق بكتاب الله تعالى وتفسيره ، وليسوا من كتاب الله تعالى : محكمه أو متشابهه في شيء ، وإنما هم قوم تصوروا الذات الإلهية كما صورته أخيلتهم المجردة ، ثم استنهضوا آيات من كتاب الله تعالى إلى تلك الأخيلة لتصدقها وتؤمن لهم بها ، وأنى لآيات الله الباهرة أن تدل إلا على الحق الواضح المنير . فعادوا يعكفون على أصنام لهم أقاموها في رؤوسهم بدلاً من أن ينصبوها أمام أعينهم .

ويكفي في هذا المقام هذا القدر من الحديث عن مبهم القرآن ومتشابهه والله أعلم .

★ ★ ★

القراءات والقراء

لمحة دراسيّة سريعة في ذلك

إعلم أن « القرآن » و « القراءات » حقيقتان متغايرتان ، كما قال الزركشي في كتابه البرهان[1] . أمّا القران فهو هذا اللفظ الموحى به إلى محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، وأما القراءات فهي ما قد يعتور اللفظ المذكور من أوجه النطق والأداء كالمد والقصر والتخفيف والتثقيل وغيرها مما قرأ به الرسول ﷺ ونقل عنه بالسند الصحيح .

وبيان ذلك أن اللفظ الذي كان يوحى به إلى النبي ﷺ كان يَقرأه ويُقرؤه أصحابه . فربما قرأ ألفاظاً منه بوجوه متعددة من النطق والأداء مما يتعلق بأوجه في الإعراب جائزة ، أو بمد وقصر ، أو تخفيف وتثقيل ، أو نقل وإبدال أو نحو ذلك مما يتفق على وجه واحد من الكتابة في الجملة ، ويختلف اختلافاً ما في النطق والأداء . فكان يجيز للصحابة رضوان الله عليهم أن يقرأوا بأي هذه الوجوه شاءوا .

ولهذا التسهيل والاتساع في تلاوة القرآن ، حكمة باهرة أطال في بيانها علماء هذا الشأن ، ومردّ ذلك إلى أمرين اثنين :

الأول : التسهيل على القبائل العربية المختلفة أن تجد الوسيلة إلى قراءة القرآن قراءة صحيحة كما أنزل دون أي تحريف أو تأثم .

الثاني : أن تقف عامة قبائل العرب وفئاتهم على المعجزة القرانية من الوجوه

---

(١) البرهان : ٣١٨/١

المختلفة التي يعرفونها ويمارسون لغتهم بها ، وأن ينتصب معنى التحدي أمامهم من هذه الوجوه كلها ، فعلى أي الأشكال وبأي وجوه النطق والأداء أمكنهم أن ينهضوا لمعارضته والإتيان بمثله فلينهضوا وليقدموا . . وبذلك يكون القرآن حجة على أخلاط العرب وفئاتهم كلهم ، ويكون معنى التحدي به قد لزمهم جميعهم .

ولم تكن وجوه القراءات التي يقرأ بها النبي ﷺ ، ويتلقاها منه أصحابه — محصورة في سبع أو عشر قراءات ، بل ربما بلغت أوجه القراءات في مجموعها أكثر من ذلك . وما كان يخطر في بال أحد من الصحابة أن يحصر هذه الوجوه ويجمعها ليحصيها ويقرأ بها كلها ولتكون بذلك فناً من فنون القرآن وعلماً مستقلاً من علومه . ولكن الصحابة — وخاصة من اشتهروا بالقراءة والاقراء منهم — كانوا يتلقون القرآن من فم النبي ﷺ بالأوجه والطرق التي يؤدي بها ، فيأخذون عنه ذلك ، ثم يقرأ كل منهم بما تيسر له أو اختاره من هذه الوجوه ، كما دلت على ذلك الأحاديث الثابتة الصحيحة .

وقد اشتهر بالقراءة والإقراء من الصحابة عدد كبير ، في مقدمتهم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري ، فعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار ، وقد اشتهر كل واحد منهم بوجه من أوجه القراءة اختاره ولازمه وأقرأه الناس ، فكان يقال : هذه قراءة عبد الله ، وهذه قراءة أبيّ وهذه قراءة زيد .. ألخ ، والكل موقن أن سائر الوجوه الأخرى مما لم يأخذ نفسه به ثابت ومنقول عن رسول الله ﷺ (١) .

وقد ظل الأمر هكذا إلى أواسط عهد التابعين : يتلقى الناس القرآن بطريقي الكتابة والمشافهة معاً ، ويتلقون من الصحابة الأوجه المختلفة من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ ، فيقرأ كل بالقراءة التي يريدها مما تلقاه بالطريق الثابت الصحيح .

وفي أواخر عهد التابعين ، انتبه كثير من علماء القرآن إلى ما أخذ يتسلل إلى

(١) انظر الاتقان للسيوطي : ١/٨٣ والبرهان للزركشي : ١/٣٢٠

الناس من إضطراب السلائق ومظاهر العجمة وبوادر اللحن ، كما أوضحنا فيما سبق ، فتجرد قوم منهم ونهضوا بأمر القراءات يضبطونها ويحصرونها ويعنون بأسانيدها ، كما فعلوا مثل ذلك بالحديث وعلم التفسير .

وقد اشتهر ممن نهض بذلك أئمة سبعة حازوا ثقة العلماء والقراء في مختلف الأمصار ، وإليهم تنسب القراءات السبع اليوم .

وهم : أبو عمرو بن العلاء (ت : ١٥٤) وعبد الله بن كثير (ت : ١٢٠) وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت : ١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدي (ت : ١٢٨) وحمزة بن حبيب الزيات (ت : ١٥٦) ونافع بن نعيم (ت : ١٦٩) وعلي بن حمزة الكسائي (ت : ١٨٩) .

وليس انحصار الأئمة الذين اعتُمدوا إذ ذاك في ضبط القراءات في السبع ، دليلًا على أن القراءات المتعددة فيما تعددت القراءة فيه من ألفاظ القران – لاتزيد على سبع قراءات . بل القراءات والأوجه التي قرأ بها النبي عليه الصلاة والسلام وتابعه فيها الصحابة ليست محصورة في سبع ولا عشر كما قد علمت .

ولكن سبب اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم – كما يقول أبو محمد المكي وغيره – أن عثمان رضي الله عنه ، كتب المصاحف ووجهها إلى الأمصار ، وكان القراء في العصر الثاني والثالث كثيري العدد ، فأراد الناس أن يقتصروا في العصر الرابع على ماوافق المصحف ، فنظروا إلى إمام مشهور بالفقه والأمانة في النقل وحسن الدين وكمال العلم ، قد طال عمره واشتهر أمره وأجمع أهل مصرٍ على عدالته ، فأفردوا من كل مصر وجه إليه عثمان مصحفاً إماماً هذه صفة قراءته على مصحف ذلك المصر ، فكان أبو عمرو من أهل البصرة وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها ، والكسائي من أهل العراق ،وابن كثير من أهل مكة ، وابن عامر من أهل الشام ، ونافع من أهل المدينة ، كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الاقراء وارتحل الناس إليهم من البلدان [1] .

---

(١) البرهان : ٣٢٩/١ و ٣٣٠

وإنما اعتمد العلماء قراءات هؤلاء الأئمة السبعة ، بناء على ضابط علمي كان هو الأساس في قبولهم وإعتمادهم القراءات من أين جاءت وإلى من نسبت .

والضابط هو أن كل قراءة صح سندها إلى رسول ﷺ ، ووافقت خط المصحف العثماني ولو احتمالاً ، ووافقت العربية بوجه من الوجوه المعتبرة ، فتلك هي القراءة الصحيحة التي لايجوز ردّها ولا يحلّ إنكارها سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو غيرهم . وما لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاثة فهي شاذة مردودة لايُقرأ بها أياً كان الامام الذي نقلت عنه .

والمقصود بموافقة القراءة لخط المصحف العثماني ولو احتمالاً ، أن تكون أصول الكتابة والرسم التي كتب بها المصحف العثماني مما يحتمل القراءة ويقبلها بوجه من الوجوه ولو تقديراً ، كقوله تعالى (مالك يوم الدين) ففي « مالك » قراءتان القصر « ملك » والمد « مالك » ورسم المصحف العثماني (ملك) فهو موافق لقراءة القصر تحقيقاً ، وموافق لقراءة المد تقديراً ، إذ المدود وحذفها مما تتحمله أصول الرسم . ومثل ذلك يخادعون ويخدعون في قوله تعالى (يخادعون الله ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) فقد قرىء بالمد والقصر . ومثل ذلك السين والصاد من (الصراط) فقد قرىء بهما ، وكتابة المصحف بالصاد ، إلا أن الرسم يحتمله : إذ السين والصاد ومابينهما من الإشمام خاضع لرسم واحد تحقيقاً أو تقديراً ، ذلك لأن هذه الأشكال الثلاثة من النطق بالحرف من فصيلة واحدة [1] .

وبناء على تمسك العلماء جميعاً بهذا الضابط في قبول القراءة أو رفضها ، اعتمد العلماء ثلاثة أخرين من أئمة القراءة صحت قراءاتهم وخضعت لهذا الضابط الذي ذكرناه . وهم : يزيد بن القعقاع أبو جعفر المدني (ت ١٣٢) ويعقوب بن اسحاق الحضرمي (ت : ١٨٥) وخلف بن هشام (ت ٢٢٩) .

فهذه عشر قراءات جميعها صحيح ثابت عن رسول الله ﷺ بنقل العدول الثقات .

---

(١) الاتقان : ١/٧٥ وغيث النفع للصفاقسي : ٧

ولايذهبن بك الوهم الى أن كل امام من هؤلاء الأئمة العشرة انما كان يؤمن بقراءة نفسه فقط ، ويدعو إليها من دون القراءات الأخرى . بل كان كل منهم يعلم ثبوت سائر القراءات الأخرى كما يعلم ثبوت قراءته ولكنه كان قد أخذ بها وحدها وعكف على خدمتها وتخريج المزيد من أسانيدها .

ثم اعلم أن أقل مانمتاز به هذه القراءات العشر عن القراءات الشاذة التي تأتي من ورائها ، هو التواتر والشهرة . فهذه القراءات السبع ثم الثلاث الأخرى توفر فيها الى جانب الضابط الذي ذكرنا التواتر أو الشهرة ، وهو أقل ماتفقده القراءات الأخرى .

هذا ولا بد أن يكون أصل القراءة الثابتة متواترة في سندها ، أي القدر المشترك منها . فأما كيفيتها ومقاييسها التطبيقية ، فقد تقصر عن درجة التواتر ، وان توفرت لها الصحة وأسبابها . وذلك كاختلاف القراء في تقديرات بعض المدود ، فمنهم من أطالها ومنهم من قصرها ومنهم من بالغ في القصر [1] .

وعلى كل فقد قلنا في صدر هذا البحث ان هنالك فرقاً بين القرآن والقراءات . وأوضحنا الفرق اذ ذاك .

فأما القرآن فكله متواتر منقول بواسطة سلسلة متصلة من الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب ، عن طريق كل من الكتابة والمشافهة .

وأما القراءات ، فما كان منها منضبطاً بالشروط الثلاثة التي ذكرناها فهو ثابت ثبوتاً قاطعاً يقرأ به على أنه قرآن وهو بين أن يكون متواتراً ومشهوراً ، بالاضافة الى صحته من حيث السند والرواية . وينطبق ذلك على القراءات العشر .

ومالم ينضبط من ذلك بالشروط المذكورة ، فهو مردود شاذ مهما كان مصدر نقله ومهما كانت كيفية سنده .

فلا يُقرأ القران بشيء من ذلك ، في صلاة أو نسك أو تلاوة .

---

(١) البرهان ٣١٩/١ والاتقان : ٧٨/١

أما العمل بمضمون هذه القراءات الشاذة ، فينظر في ذلك الى سندها ، فإن توفر فيه مايجب توفره في الحديث الآحاد من شروط الصحة . اعتبر بمثابة الحديث وجاز أخذ الأحكام منه .

وسبب ذلك أن مصدر كثير من القراءات الشاذة أن بعض الصحابة كانوا يهمشون مصاحفهم الخاصة بكلمات تفسيرية لبعض الألفاظ الغامضة . إذ كانوا لا يخشون من التباسها بالقرآن بسبب أن عامتهم كانوا يحفظون القران ويضبطونه ضبطاً تاماً ، من ذلك تقييد عبد الله بن مسعود آية (فصيام ثلاثة أيام) بكلمة متتابعات ، وتقييد عبد الله بن عباس آية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) بكلمة : في مواسم الحج [1] .

ثم جاء من بعدهم من نظر في مصاحفهم هذه ، ورأى هذه الكلمات التفسيرية فظنها من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ ، فأخذ يرويها على أساس ذلك ويتخذ من هذه المصاحف شاهداً له . وإنما هي ألفاظ تفسيرية كما قطع بذلك ابن الأنباري وغيره اثبتوها مخافة النسيان .

فمثل هذه الألفاظ وإن كانت ساقطة من حيث اعتبارها قراءة صحيحة ، ولكنها ثابته من حيث هي تفسير لبعض اي القران ، فهي تقبل من هذا الوجه ، كما يقبل حديث مروي عن ابن عباس بسند صحيح في تفسير اية في القران أو استنباط حكم من أحكامه [1] .

* * *

(١) انظر الاتقان : ٧٧/١

القسم الثاني

منهجه وأسلوبه

أسلوب القرآن

نظرة عامة في خصائصه

سنلخص في هذا الفصل معظم ما سنأتي على تفصيل البحث فيه فيما يأتي ان شاء الله . إذ الحديث عن إعجاز القرآن وتصويره وفن القصة فيه وطرائقه التربوية وغير ذلك من فنون هذا الكتاب العظيم ، إنما هو في الحقيقة بسط لمنهجه وخصائص أسلوبه .

غير أن علينا — قبل الخوض في كل جانب من هذه الجوانب على انفراد — أن نتصور الأسلوب القرآني في جملته ، وأن نستعرض خصائص هذا الأسلوب استعراضاً سريعاً يجلّي في أذهاننا روعته وحدود الفرق بينه وبين أي نظم أو كتاب آخر ، حتى إذا وقفنا على ذلك ، عدنا إليه بالتفصيل وشرح كل جانب فيه على حدة .

وأول ما يطالعك من مظاهر أسلوب القرآن لدى النظر فيه ، أنه يجري على نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ، ويقوم في طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم ، وله أسلوب خاص به لا تجد منه عند أي فن من الفنون العربية المعهودة .

ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظماً أو نثراً ؛ وللنظم أعاريض وأوزان محددة معروفة ، وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبينة ومعروفة . والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في

قصيده ، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه ، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك ، ولكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته ، بل يسري في صياغته وتآلف كلماته ، وتجد في تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً ، بين الرخو منها والشديد ، والمجهور والمهموس ، والممدود والمقطوع ، بحيث يؤلف اجتماعها الى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارىء العربيّ كيفما قرأ ، طالما كانت قراءته صحيحة .

ومهما طفت بنظرك في جوانب كتاب الله تعالى ومختلف سوره ، وجدته مطبوعاً على هذا النسق العجيب .

غير أنه إذا كان لا بد من مثال نعرضه لاستجلاء هذه الحقيقة فيه ، فلنعرض لك تلك الآيات التي تلاها النبي ﷺ على عتبة بن أبي ربيعة ، يوم جاءه رسولاً من قبل قريش يعرضون عليه الملك والمال والزعامة على أن يتخلى عن دعوتهم إلى توحيد الله :

(بسم الله الرحمن الرحيم . حٰمٓ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قُرآناً عربيّاً لقومٍ يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ ممّا تدعُونا إليه وفي آذانِنا وَقْرٌ ومِن بيننا وبينِكَ حِجابٌ فاعملْ إنّنا عاملون . قُل إنّما أنا بشرٌ مثلُكم يوحى إليّ أنّما إلٰهُكم إلٰهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروهُ وويلٌ للمشركين .)

فحسبك أن تتأمل في صياغة هذه الآيات وكلماتها لتجد فيها مصداق ماذكرنا ، على أنك واجد ذلك في جميع آي القرآن وسوره .

فمن أجل ذلك تحيَّر العرب في أمره ، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه ، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه ؛ فكان أن انتهى الكافرون منهم الى أنه السحر واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين .

ولك أن تسأل هنا : فكيف تقول إن القرآن يختلف عن جميع طرائق النثر المعهودة ، مع أن فيه كثيراً من السجع ، وهو منهج من مناهج النثر العربي ؟

والجواب أن السجع ليس مجرد تقفية للجملة أو المقطع من الكلام بقافية واحدة من الحروف والوزن ، بل هو — كما قال علماء هذا الشأن — موالاة الكلام على وزن واحد . فإذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه بأن كان أحد مصاريعه كلمتين وبعضها أربع كلمات ، كان من قبيح الكلام . فالسجع منهج مرتب محفوظ وطريق معين مضبوط متى أخلّ به المتكلم نسب ذلك إلى الخروج عن الفصاحة ، ومثاله عند العرب قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن : « منبتك منبت طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، ونبت زرعه ، في أكرم موطن وأطيب معدن » .

وأنت لا تجد هذا النسق في كتاب الله تعالى لا في كثير منه ولا قليل . بل هو مرسل عن كل القيود التي ذكرنا ، أما اتفاق فواصل بعض الآيات في الوزن والحروف فهو لا يسمى بذلك القدر سجعاً ؛ وإن اتفق أن تعثر فيه على مقاطع يتوالى فيها الكلام على وزان واحد مع اتفاق الفاصلة ، فذلك مما يعترض في الكلام اتفاقاً ولا يسمى سجعاً مقصوداً اليه ، وانما يقع مغموراً في الخطاب — كما يقول الإمام الباقلاني — ألا ترى أنك قد تعثر في بعض آيات القران على وزن سليم لمصراع من الشعر ؛ وقد تظفر ببيت كامل فيه ، كما قد تظفر بمثل ذلك في غير القرآن من سائر أنواع النثر ، غير أن أحداً من الناس لا يسمي ذلك شعراً ، ولقد قال العلماء ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعراً ، وأقل الشعر بيتان فصاعداً ؛ فمثل ذلك يقال عن السجع أيضاً[1].

. . .

فإذا تجاوزنا هذه الخاصة من خصائص الأسلوب القراني ، وقفنا على خاصة أخرى هي من الأهمية بمكان ، وهي من أجلى مظاهر الاعجاز في القران .

(١) راجع للوقوف على تفصيل هذا البحث كتاب اعجاز القرآن للباقلاني : ص ٥٧ .

وهي أنّ التعبير القرآني يظلّ جارياً على نسق رفيع واحد من السمو في جمال اللفظ ورقّة الصياغة وروعة التعبير ، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد . وتلك حقيقة شاقة بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى جميع من عرفنا وسمعنا بهم من فحول علماء العربية والبيان .

وبيان ذلك ، أن المعنى الذي يراد عرضه ، كلما كان أكثر عموماً وأغنى أمثلة وخصائص ، كان التعبير عنه أيسر وكانت الألفاظ اليه أسرع ، وكلما ضاق المعنى وتحدد ودقّ وتعمق ، كان التعبير عنه أشق وكانت الألفاظ من حوله أقل .

ولذا كان أكثر الميادين الفكرية التي يتسابق فيها أرباب الفصاحة والبيان هي ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء ، وكان أقل هذه الميادين اهتماماً منهم وحركة بهم ميادين الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم ، وذلك هو السر في أنك قلما تجد الشعر يقتحم شيئاً من هذه الميادين الخالية الأخرى .

ومهما رأيت بليغاً كامل البلاغة والبيان ، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه ، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها ، فربما جاء بالغاية من البراعة في معنى من المعاني ، فإذا انصرف الى غيره انخذل عن تلك الغاية ووقف دونها .

غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب الله تعالى ؛ فأنت تقرأ آيات منه في الوصف ، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة ، وتقرأ بعد ذلك مقطعاً في التشريع وأحكام الحلال والحرام ، فلا تجد الصياغة خلال كل ذلك إلاّ في أوج رفيع عجيب من الإشراق والبيان . وتنظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها . ودونك فاقرأ ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلاً بين مختلف معانيه وموضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول ولتلمس برهانه عن تجربة ونظر .

• • •

وثمة خاصة ثالثة ، لا تستطيع أن تجدها في غير هذا الكتاب العزيز .

وهي أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم .

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول ، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون في المدارك والثقافة ، فستجد أن الآية تعطي كلاً منهم من معناها بقدر ما يفهم ، وأن كلاً منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه .

ولسنا نقصد أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين ، بل هو معنى واحد على كل حال ، ولكن له سطحاً وعمقاً وجذوراً يتضمنها جميعاً أسلوب الآية . فالعامي من الناس يفهم منه السطح القريب ، والمثقف منهم يفهم مدى معيناً من عمقه أيضاً ، والباحث المتخصص يفهم منها جذور المعنى كله .

وخذ إن شئت آية أخرى من كتاب الله مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن ، ثم اعرضها على مسامع الصدر الأول من المسلمين ، فإنهم يفهمون منها المعنى المراد كما هو في طورهم وعصرهم ، ثم اعرضها على مسامع من بعدهم فإنهم يفهمون معناها كما تطور في زمنهم ، على أن كلا الفهمين من المدلولات القريبة للآية ، لا من قبيل التكلف وتحميل اللفظ ما لا يحمل ، ولكن الفهم الثاني كان مطوياً عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم إليه إذ ذاك .

وفي القرآن الكثير من هذا وذاك ، فلنعرض أمثلة منه :

من القبيل الأول قوله تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بُروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) ، فهذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم ، ولها عمق يصل اليه المتأمّلون والعلماء ، ولها جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون ، والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى ، فتعطي كلاً حسب طاقته وفهمه .

فالعاميّ من العرب يفهم منها أن كلًا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى

الأرض ، وإنما غاير في التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ . وهو معنى صحيح تدل الآية عليه . والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع الى النور الحرارة فلذلك سماها سراجاً ، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه ؛ وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة . أما الباحث المتخصص في شؤون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج بالنسبة له ؛ وهو أيضاً معنى صحيح تدل الآية عليه بلغتها وصياغتها ، فأنت تقول : غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج في وسطها ، ولا تقول قبس منير ، إذ النور ينبعث من حقيقته وداخله ، بل تقول قبس مضيء .

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة ، ولكنها ـ باسلوبها العجيب ـ لا تخاطب الناس إلا بما يدركونه منها ، كلاً حسب استعداده وطاقة فكره ، وبذلك تكون الآية خطاباً مفيداً لأضراب الناس كلهم .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها) ، يقرأ هذه الآية العربي الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراه منها وهو الامتداد والانبساط ، فيفهم من قوله « دحاها » معنى الانبساط والامتداد ، وهو فهم صحيح تدل عليه الكلمة بمعناها اللغوي القريب . ثم يقرأها عالم الفلك أو المثقف العادي في هذا العصر ، فيفهم من قوله « دحاها » معنى الاستدارة والتكوير ، وهو أيضاً فهم صحيح للكلمة ، إذ هي تحمل في آن واحد كلاً من معنى الاستدارة والانبساط ، وهو أدق ما توصف به الأرض . ولقد استعملت هذه الكلمة بكلا معنييها في هذين البيتين لابن الرومي :

إن أنس لم أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
مابين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقـــدار ماتنـداح دائرة في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر [1]

ومن القبيل الثاني قوله تعالى (والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون) . لقد كان يقرأ هذه الآية أسلافنا ، فلا يعنيهم من فهمها إلاقوله: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينـة ، إذ كان ذلـك القدر هو المنطبق على واقع حياتهم فيما تقصد إليه الآية من الحديث عن وسائل ركوب الانسان وما في ذلك من نعمة الله عليه . فإذا قرأوا الجملة التي تليها وهي : ويخلق مالا تعلمون، تاهوا بين تأويل وتفسيرات مختلفة لها . ويقرأها إنسان هـذا العصر فلا يشك في أن المراد بها هذه الوسائل الحديثة الأخرى التي أضيفت إلى الوسائل السابقة .

وهكذا تجد الآية خطاباً لأهل العصور المتتاليـة كلها ، وليست خاصة بقوم دون قوم أو جيل دون آخر .

غير أن هذا يدخل في جملته تحت باب الاخبار عن المغيبات ، ومن ذلك في القرآن كثير ، وليس هذا محل بسط القول فيه .

فإذا تأملت في هذه الخاصة بعدتينك السابقتين ، رأيت نفسك أمام الدليل القاطع على أن هذا الكتاب إنما هو كلام رب العالمين إلى الناس كلهم . وهيهات أن يقوى الطوق البشري على صياغة كلام يكون على قدر أفهام الناس المتفاوتة وعلومهم المختلفة، بحيث يشعر كل فريق أن الكلام إنما هو على قدر حاجته وفهمه .

• • •

وهنالك خاصة رابعة كانت ولاتزال مجال بحث ودرس ، وهي ظاهرة التكرار .

وفي القرآن من هذه الظاهرة نوعان ؛ أما أحدهما فتكرار بعض الألفاظ أو الجمل وأما الثاني فتكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار .

فالنوع الأول منه يأتي على وجه التأكيد ، ثم هو ينطوي بعد ذلك على نكت

---

(١) تشترك مادة داح ودحى في الدلالة على الاتساع والعظم والانبساط والاستدارة . قال في شرح القاموس : واندراح بطنه عظم واسترسل ، كانداح واندحى ودحى ، وبطن منداح : خارج مدور . وذكر في اللسان نحو ذلك . ويشبه أن تكون الكلمتان في أصلها من مادة واحدة .

بلاغية أخرى كالتهويل ، والانذار والتجسيم والتصوير ؛ وللتكرار أثر بالغ في تحقيق هذه الوجوه البلاغية في الكلام . غير أنه لاينبغي أن يذهب بك الوهم إلى أن أيّ تكرار للكلمة أو الجملة يفي بهذا الغرض ، وأنها وسيلة قريبة المنال لكل قادر على الكلام . فالتكرار الذي من شأنه أن يرفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة والسموّ في التعبير له قيود وحالات معينة لاينبغي أن يتجاوزها ، وليس أيتكرير في الكلام يبعث فيه التهويل أو التجسيم ؛ ولو ذهبنا نشرح الصور المحمودة لتكرار الكلام وقيود ذلك — ولو شرحاً يسيراً — لطال بنا البحث وخرجنا عما نحن بصدده ، فارجع إليه إن شئت في مظانه وأماكنه (١) .

وإذا سألت عن وجه العلاقة بين التكرار وهذه الصور البلاغية ، فإن خير جواب على ذلك أن أضع فكرك وذوقك العربي أمام نماذج لهذا النوع من التكرار في هذا الكتاب المبين .

فمن ذلك قوله تعالى : (الحاقة ماالحاقة ، وما أدراك ماالحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة) ومنه قوله تعالى (سأصليه سقر ، وما أدراك ماسقر ، لاتبقي ولا تذر) ومنه قوله تعالى (إنه فكّر وقدّر ، فقُتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدّر) ومن ذلك تكرار كلمة « أولئك » في قوله جل جلاله (أولئك الذين كفروا وأولئك الاغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار) وتكرار « ماأنت » في قوله (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم وما أنت بمسمع من في القبور) .

وكل مافي القرآن من تكرار الكلمة أو الجملة من هذا القبيل وعلى مثل هذا الاشراق ، وما أحسبك سائلي بعد ذلك أيضاً عن وجه الجمال أو التهويل أو التصوير في هذا التكرار إن كنت على شيء من السليقة العربية وذوقها .

وأما النوع الثاني منه ، وهو تكرار المعنى ، كتكرار بعض الأقاصيص والأخبار ، فهو أيضاً ظاهرة بارزة في كتاب الله تعالى ؛ ومردّ ذلك إلى غرضين هامّين : الغرض الأوّل إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد الوعيد الى النفوس بالطريقة

---

(١) أنظر في ذلك مثلا مشكل القرآن لابن قتيبة، واعجاز القرآن للباقلاني ، والبرهان للزركشي.

التي تألفها وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب وفي بيان هذه الحكمة يقول الله عز وجل (وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) طـــه : ١١٣ قال الزركشي : وحقيقته – أي وحقيقة التصريف – إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به [1] .

وهي من الطرائق التربوية التي سلكها هذا الكتاب المبين ، ولنا إلى الحديث عنها عودة – إن شاء الله – عند الحديث عن خصائصه التربوية .

أما الغرض الثاني فهو إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة ، وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً ، وتصريف الكلام في ذلك ، حتى يتجلّى اعجازه ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه . وأنت تعلم أن هذا الكتاب إنما تنزل لتحقيق أمرين ، أوّلهما اقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر ، ثانيهما الزامهم بالشريعة التي فيها . فلا بد فيه من الوسائل التي تفي بتحقيق الوسيلة الى كلا الأمرين .

ومن هنا ، كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في اسلوب واحد من اللفظ ويدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الاسلوب وطريقة التصوير والعرض ، بل لابدّ أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة .

ولنضرب لك مثالاً على هذا الذي نقول : إقرأ قصة نوح في سورة هود ، وهي مابين قوله تعالى : ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ، وقوله جل جلاله : تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك .. الآية ، وهي في جملتها ثنتان وعشرون آية ، ثم إرجع فأقرأ القصة نفسها في سورة القمر من الآية ٩ إلى الآية ١٥ ثم تأمل في كلا النصّين وقارن بين أسلوب كل منها وطريقة كل منها في العرض والتصوير والجانب المعنوي الذي يركّز عليه التعبير في كل منها ، فإنك إن تأملت في ذلك جيداً تخيلت أنك إنما تقرأ في المرة الثانية خبراً جديداً يشوقك أمره

(١) إنظر البرهان للزركشي ٣/١٠ .

وتفجؤك أحداثه ، وشعرت أن النفس بحاجة إلى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين وبكلا الأسلوبين .

على أن هذا الغرض يعود إلى ماذكرناه من كون القرآن خطاباً للناس كلهم، ذلك أن في الناس من لايكفيه الموجز من القول والخلاصة في الحديث ، حتى ينصت إلى الأمر مفصلاً مطنباً ، وفي الناس من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز ، فاقتضى الأمر أن تتصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان . وقد اهتم الجاحظ بهذه الحكمة في التكرار القرآني أكثر من غيرها [1] .

• • •

وثمة خاصة خامسة ، هي تداخل أبحاثه ومواضيعه في معظم الأحيان ؛ فأنت لاتجد فيه ماتجده في عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب المواضيع ، وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها . وإنما تجد عامة مواضيعه وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينها ، وقد تجدها متمازجة متداخلة في بعضها في كثير من السور والآيات .

وقد حسب بعض محترفي الغزو الفكري أن في هذه الخاصة القرآنية ثلمة يمكن الدخول منها إلى اصطناع نقد أو محاولة تهديم أو بث تشكيك ، فأخذوا يتساءلون عن موجب هذا التداخل والتمازج في معاني القرآن ، ثم راحوا يجيبون عن تساؤلهم هذا بأنها البدائية والبساطة في منهج البحث ... وفيه إلماح – كما ترى – إلى أنه لايعدو كونه مجموعة أفكار منثورة أنتجها فكر إنسان !..

والحقيقة ، أن هذه الخاصة في القرآن ، إنمـــا هي مظهر من مظاهر تفرده واستقلاله عن كل ماهو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف . وواضح لكل ذي عينين أن هذا الكتاب – وهو كتاب عربي مبين – نسق غير معهود في منهجه وأسلوبه وتعبيره ؛ يدلك على ذلك كل هذه الخصائص التي ذكرناها وشرحنا طرفاً منها .

---

(١) انظر البرهان للزركشي : ٣/١٢ واعجاز القرآن للرافعي : ٢٢١ واعجاز القرآن للباقلاني : ص ١٠٦ و ١٠٧ .

هذا شيء .

وشيء آخر ، هو أن من الخطأ في أصل النقد والبحث أن نحاكم القرآن في منهجه وأسلوبه ، إلى ماتواضع عليه الناس اليوم ، أو قبل هذا اليوم ، أو الى ماسيتواضعون عليه مع تطور الزمن - من طرائق البحث والتأليف وتنسيق المعاني .

فهذا الذي يتوافق عليه الكاتبون من تقسيم كتبهم إلى أبواب وفصول ، ثم تضمين كل فصل منها لجملة معينة من الأبحاث والمعاني ، ليس مردّه الى أمر إلزامي أو مثل أعلى يفرض عليهم ذلك ، وإنما الأمر فيه تابع للأغراض المتعلقة به ، وهو في جملته عرف يعتادونه وطور يمرون عليه ويجتازونه بعد حين إلى غيره . فما هي الحقيقة الثابتة التي تلزم كتاب الله تعالى بأن يسير في منهجه على طور من أطوار هؤلاء العباد وأن يتبع تنسيقهم الذي يضعون ، أو أن تتصنف أبحاثه ومعانيه حسب المنهج الذي يشاءون ؟ ! . . هذا الى أن المناهج - كما قلنا - تتناسخ والأساليب تتطور .

على أن هذه الخاصة تابعة لحكمة عليا يدور معها المعنى القرآني كله .

ذلك أن جملة مافي القرآن من مختلف المواضيع والمعاني الجزئية ، إنما يدور جميعه على معنى كلّي واحد ، هو دعوة الناس الى أن يكونوا عبيداً لله بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيداً له بالجبر والاضطرار ، وأن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه ، وأن يستيقنوا ضآلة هذه الحياة بالنسبة لتلك ، في كل من خيرها وشرها وسعادتها وشقائها .

فالقرآن شأنه أن يبث هذا المعنى الكلّي الخطير من خلال جميع مايعرضه من الأبحاث والمواضيع المختلفة من تشريع ووعد ووعيد وقصة وأمثلة ووصف ؛ وإنما يتحقق ذلك بهذا النسق الذي جرى عليه من التداخل والتمازج في المعاني . .

فهو حينما يبدأ بعرض قصة ، لايدعك تنسى - ولو في مرحلة من مراحلها - ذلك المعنى الكلي الذي ذكرناه ، فهو يخللها بما ليس منها من تهديد أو وعد ووعيد أو نصيحة ووعظ ، تحقيقاً للغرض الذي من أجله تساق القصة ، وحفظاً للفكر أن يتشتت مع أجوائها واحداثها فينسى مساقها الأصلي .

وهو حينما يشرح لك أحكاماً في العبادات أو المعاملات أو غيرها ، يسلك بك أيضاً نفس المنهج فهو يحاذر أن تستغرق في التأمل بهذه الأحكام من حيث هي علم أو فن برأسه ، كما قد يحصل مع من ينكب على دراسة هذه الأحكام في الكتب العلمية الخاصة بها ، فيوصلها بآيات ليست منها ، فيها وعد أو وعيد أو حديث عن الأخرة أو دليل على وجود الله وعظمته ، ليتنبه الفكر ، ويظل مستيقظاً للحقيقة الكلية الكبرى التي تطوف بها جميع المعاني والأبحاث .

ولو أن القرآن اتبع في عرض معانيه ، هذا الذي يسلكه الناس في تآليفهم وأبحاثهم ، فأفرد فصولاً خاصة لعرض الأحكام والتشريع ، ثم ميز فصلاً آخر للقصص ، وجاء بفصل ثالث في وصف المغيبات كالجنة والنار ، وهكذا .. ـ نقول: لو درج القرآن على ذلك لفات تحقيق هذا الغرض الذي ذكرناه ، ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة انعكاساً لمعنى كلي واحد تشترك كلها في بثه والتوجيه إليه . ولئن أمكن أن يتذكر القارىء ذلك في تمهيد أو في فصل من الفصول ، فلسرعان ما ينساه عندما يستغرق في قراءة أو دارسة الفصول الاخرى .

وإن هذا الذي نقول ، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل والنظر في كتاب الله تعالى، ولكن في الناس من يقود عقله وراء غرض ما .. فيمضي يصطنع مشكلة ، هو يعلم بعقله الحرّ أنها ليست بمشكلة ، ولكن الغرض الذي يسعى إليه لايدعه يطلق أو يحرر عقله من الأسر ، فيمضي متوكلاً على الشيطان ليزعم أن الأبيض أسود ، والموجود معدوم، والشمس مظلمة .

هؤلاء الناس هم محترفو الغزو الفكري من المبشرين والمستشرقين أولاً ، ثم هم أذنابهم وذيولهم الذين ينعقون بما لايفقهون ثانياً .

• • •

وبعد ، فهذه جملة خصائص الاسلوب القرآني ، عرضناها عرضاً سريعاً ، إبتغاء تصورها في اطار عام شامل . ولنا عود ـ ان شاء الله ـ بالتفصيل الى كثير مما قد أجملناه خلال الابحاث التالية .

إعجاز القرآن

تعريفه ، وجوهه ، دليله ، مظاهره

تمهيد لا بد منه :

الحديث عن إعجاز القرآن من أهم الأبحاث المتعلقة بالقرآن وآدابه وعلومه ، وهو لبّها وجوهرها ، وأساسها وعمدتها .

ومع ذلك ، فإنني أعلم أن كثيراً ممن سيقرأ ما أكتبه في هذا البحث ، لا يملكون إلا أن يحفظوا ما أقوله بعقولهم ، دون أن يتذوقوه بقلوبهم ، ويستيقنوه بأفكارهم .

والسبب أنهم عاشوا غرباء عن القرآن ، لم تتهيأ لهم أسباب قراءته ولم يتوفروا على شيء من دراسته ؛ إن في هؤلاء — ويالأسف — من لم يسمع بالقرآن إلا في أحاديث الناس وما تقوله الكتب ، ومن لم ينصت إلى شيء من آياته إلا في أمسيات التعازي أو عند افتتاح حفلٍ أو لدى مصادفة عند فتح إذاعة .

وإنما يفقه الحديث عن إعجاز القرآن ويتذوقه ، من درس القرآن قبل ذلك وقرأه ، فأتقن قراءته ، تماماً كما كان يتقنها أطفال « المكاتب » في بلادنا قبل اليوم . فهو الذي يكون قد تصوّر حقيقة القرآن ، وتهيأ لفهم الحديث عن إعجازه .

أمّا من لم يتوفر على تصوره إلا في أصوات « المقرئين » وفي أمسيات التعازي ،

ومن إذا أراد أن يقرأ بضع آيات منه تلعثم وترطّن وثقلت كلماتها العربية على لسانه ، فهيهات أن يفقه شيئاً عن اعجاز القرآن ومظاهره ودلائله ، الا أن يحفظ ذلك حفظاً ويعيه بصماً . ذلك لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فمن لم يتصور الشيء على حقيقته عجز عن اسناد أيّ حكم اليه .

ولقد قامت « ويالأسف » حواجز كادت أن تصبح حصينة بين كثير من أفراد نشئنا المثقف وهذا الكتاب العظيم . ولم يعد سراً خافياً أن هذا الحاجز إنما تكثف واستقر وتطاول ، بفعل التخطيط الذي كانت ولا تزال تقوم به دوائر أجنبية ، قصداً إلى إضعاف اللغة العربية في ألسنة وصدور أصحابها العرب ، تحت شعارات وأهداف مزوقة خادعة ، كالدعوة إلى تبسيط قواعد العربية آناً ، وترويج فكرة الجمع بين العربية والعامية أخرى ، والدعوة إلى كسر ونبذ عمود الشعر العربي لاحلال مايسمى بـ « الشعر المنثور » مكانه تارة ثالثة .

والقصد البعيد من ذلك كله ، هو إقامة هذا الحاجز بين الجيل وكتاب الله عز وجل ، فإنه اذا حجز عنه ، لم يعد يقدر على معرفته وادراكه ، واذا لم يعد قادراً على معرفته ، فأحْر به أن لايقدر على فهم شيء مما يقال حول اعجاره . وإن هذه النتيجة لتنطوي على ربح عظيم لأولئك الذين يرقبون الأمر من بعيد .. بمقدار ماتنطوي عليه من الخسارة الفادحة لهذا الجيل الذي نسي الكثيرون منه كل شيء الا أنهم : عرب (١) .

وعلى كل ، فلا بد من الحديث عن اعجاز القرآن ، وعلى من لم يتصور حقيقة القرآن بعد ، أن يسرع فيتدارك مافاته ، وسيهون الامر عليه اذا ماتصور أن أول زاد الأديب ومعلم العربية انما هو هذا الكتاب ، فهو — من دون معرفته وإتقان تلاوته — لايملك أن يقول شيئاً في باب الأدب أو القواعد أو

---

(١) إقرأ لتطلع على بسط ودلائل في هذا المعنى ، كتاب : حصوننا مهددة من داخلها » للدكتور محمد محمد حسين إن عثرت عليه . واقرأ كتاب تجربة التربية الاسلامية في ميزان البحث لمؤلف هذا الكتاب .

البيـان ، وما أخزى وأسوأ منظر ذاك الذي يقف ليلقي درساً في العربية ، فإذا ما صادفته آية من القرآن ، وجدت لسانه لايدور بها الا كما يدور لسان الأعجمي اذا أراد أن يُبين بالعربية ويتفصح !! ..

ولست أتحدث — في هذا المقام — عن أيّ غـــاية لضرورة دراسة هـذا الكتاب واتقان تلاوته ، غير الغاية التي نحن بصددها . ان المهم أن عالم العربية ليس عالماً بشيء منها طالما ظل غريباً عن ينبوع العربية ومصدر سـائر علومها . وحسب هذه الضرورة دافعـاً لكل عربي أن يقبل على هذا الكتـاب في دراسة واعية عميقة له .

تعريف إعجاز القرآن :

أجمع عامة الباحثين من علماء العربية والتشريع والفلسفة والفرق المختلفـة ، أن القرآن معجز . فما معنى أنه معجز ؟

لدينا في الجواب على هذا السؤال تعريفان للاعجاز ، أحدهما هو المعتمد لدى جمهور العلماء والباحثين ، والثاني تفرد به أبو اسحاق ابراهيم النظام (ت ٢٣١) اللغوي والمعتزلي المعروف ، ثم تبعه في ذلك بعض الناس من فرقته وجماعته .

فأما التعريف الأول ، فهو أن القرآن قد سما في علوه الى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الاتيان بمثله ؛ سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيباته .

وأما التعريف الثاني ، فهو أن القرآن كتاب صرف الله قدرات عباده وسلب همتهم وحبس السنتهم عن الاتيان بمثله .

والفرق بين التعريفين ، أن مصدر الاعجـــاز في التعريف الأول علو منزلة القران عن مستوى الطوق البشري ، أما مصدره في التعريف الثـــاني فهو حبس القدرات وصرف الهمم عن معارضته وتقليده ، أي فهو قد يكون ، والحـالة

هذه ، ليس في منزلة بعيدة من البلاغة عن طاقة البشر ، ولكن الله ، تصديقاً لنبيه ولطفاً به ، صرف الناس عن تقليده ومحاكاته .

وأنت إذا تأملت في كلا التعريفين وايهما أقرب إلى العقل والفهم ، أدركت أن تعريف النظام ومن شايعه فيه لا معتمد من المنطق أو العقل له . وقد سخر كثير من الباحثين ، ومنهم الجاحظ ، بهذا التفسير للاعجاز ؛ وتكاثرت الردود عليه من كل صوب .

ولننقل لك منها كلام الإمام الباقلاني في كتابه : اعجاز القران . يقول :

(.. لو لم يكن القرآن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه المتنع ، لكان مهما حُطَّ من رتبة البلاغة فيه ، ووُضِع من مقدار الفصاحة في نظمه ، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صُرفوا عن الإتيان بمثله ، ومُنعوا عن معارضته وعُدِلت دواعيهم عنه ، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب . على أنهم لو كانوا صرفوا على ما ادعاه — أي القائل بهذا التعريف — لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف ، لأنهم لم يُحدّوا اليه ، ولم تلزمهم حجته . فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله ، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان » .

ثم يقول بعد ذلك :

« ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة ، أنه لو كانت المعارضة ممكنة — وإنما مُنِع منها الصرفة — لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه ، وليس هذا بأعجب مما لو قيل : إن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيبه لو تعلّموه لوصلوا اليه به (١) .

---

(١) اعجاز القرآن لابي بكر الباقلاني : ٢٩ و ٣٠ .

أقول : وإن أيسر ما يوضح فساد تفسير اعجاز القرآن بالصرفه ، أن الواقع قد خالف ذلك ، فلم يصرف الناس في الحقيقة عن الاقبال الى تقليده ومجاراته ، بل قام في التاريخ — كما ستعلم - من حاول أن يعارض ، وعارض وأتى بكلام زعم أنه قد حاكى به كلام الله عز وجل ، ولكنه جاء مرذولاً سمجاً لا قيمة له . وأيضاً ففيم سجد العرب من مشركين ومسلمين إذاً لبلاغته حتى زعم بعضهم أنه السحر ، وفيم كان المشركون يتواصون بعدم الذهاب الى الكعبة في جنح الليل لسماع القرآن من محمد عليه الصلاة والسلام حتى لا يفتن بذلك الدهماء عن دين أجدادهم ، ثم ما هو إلا أن يتوارد هؤلاء المتواصون مع الليل ، يختبئون خلف جدران الكعبة ليترنموا بسماع آيات القران ؟.. لو كان القران كلاماً عادياً مما يحسنه البشر ولكن الله صرفهم عن مجاراته ومحاكاته ، لما وقع كل ذلك ولا شيء منه .

ومع ذلك فإن تفسير اعجاز القران ، كما يراه النظام ، هو في الحقيقة أقعد في باب الاعجاز وأدعى إلى معرفة أنه كلام الله عز وجل . إذ العجز عن الإتيان بالشيء المستطاع أعجب من العجز عن الإتيان بالأمر الرفيع الذي لايدرك ولا يستطاع . ولكن المنطق هو الذي يتجافى عن كلامه وتحليله .

دليل الاعجاز :

فإن قال قائل : فمن أين ثبت أن القرآن معجز ؟ وما الدليل على أنه ينطوي على ما يقصر طوق البشر عنه ، وانما هو — فيما نرى — كتاب عربي كالكتب العربية الأخرى ؟

فالجواب ، هو أن العرب لما سألوا محمداً ﷺ أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته ورسالته ، أخبرهم الله تعالى بأن هذا القرآن هو أعظم آية ودليل على ما يريدون . فقال جل جلاله في محكم تبيانه : (وقالوا لولا أنزل عليه ايات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أولم يكفهم

أنَّا أنْزَلْنَا عليكَ الكتابَ يُتْلى عليهمْ ، إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقومٍ يؤْمنون) [1] .

ولكن الكافرين ظلّوا في عنادهم وجحودهم ، وأنكروا أن يكون في شيء من آي القرآن ما يدل على صدق محمد ﷺ في دعوته ، وأعرضوا عنه قائلين : (قد سمعنا ، لَوْ نشاءُ لقلْنَا مثْلَ هذا ، إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوّلين) [2]

وحينئذ تحداهم الله عز وجل — أو قل تحداهم القرآن إن شئت — أن يأتوا بسورة من مثله ، وأفرغ هذا التحدي في قوالب مختلفة من اللفظ والاسلوب . وأنهضهم إلى ذلك بالتقريع والتحميس ومختلف أشكال التحدي ، فقال لهم مرة : (وإن كُنْتُم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبْدِنا ، فأتوا بسُورةٍ من مِثْلِه ، وادْعُوا شُهَداءَكُمْ من دونِ الله إن كُنْتُم صادقين ، فإنْ لم تفْعَلُوا — ولن تفعلوا — فاتّقُوا النّار التي وَقودُها الناسُ والحجارةُ ، أُعِدَّت للكافرين) [3] وقال لهم مرة أخرى (قل لئِنِ اجْتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثْلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمِثْلِه ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً) [4] وقال لهم بأسلوب اخر : (أم يقولون افْتَراه ، قُلْ فأتُوا بعشْرِ سُوَرٍ مثلِه مُفْتَرياتٍ ، وادْعُوا مَنِ اسْتَطعْتُم من دونِ الله انْ كُنْتُمْ صادِقين ، فإنْ لَمْ يسْتجيبُوا لكم فاعلموا أنّما أُنْزِلَ بعلْمِ اللهِ وأن لا اله الا هُو فهل أنتم مسلمون) [5] وقال لهم مؤنباً ومقرعاً (أمْ يقولُونَ تقوّلَه ، بلْ لا يُؤْمنونَ ، فليأتُوا بحديثٍ مثلِه انْ كانوا صادقين) [6] .

وقد كان من مقتضى بلاغتهم المعروفة ، وقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ،

---

(١) العنكبوت : ٥٠ — ٥١ .
(٢) الانفال : ٣١ .
(٣) البقرة : ٢٣ — ٢٤ .
(٤) الاسراء : ٨٨ .
(٥) هود : ١٣ — ١٤ .
(٦) الطور : ٣٣ — ٣٤ .

وما كان يعتلج في صدورهم من الحقد والكراهية لهذا الذي جاءهم به عليه الصلاة والسلام ، وما كانوا يظلون في بحث دائب عنه من الوقوف على وسيلة ما لإفساد أمره عليه ومنع دعوته من السير في طريق النجاح ـ كان من مقتضى كل ذلك أن ينهضوا لمعارضته ومجاراته بفصول من كلامهم البليغ ، على نحو ما كانوا يفعلونه في أسواقهم الأدبية من المساجلة والمقارضة في فنون الكلام ، ليقطعوا بذلك خطره عنهم وليعلنوا بذلك لمن قد ينخدع بهذا الذي يأتيهم به أنهم قد جاءوا بمثله أو خير منه .

ولكنهم ـ رغم كل هذه الدواعي والمحفزات ـ لم يفعلوا شيئاً ، ولم يستجيبوا لتحدي القران في محاولة ما ، غير أنهم تحوّلوا عن قولهم السابق : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، الى زعم أن محمداً ﷺ انما يأتيهم بسحر . . أو كهانة . . أو هو شعر فريد . . كما قال الله عز وجل عنهم (ولمّا جاءَهمُ الحقُّ قالوا هذا سِحْرٌ وإنّا به كافرون) [١] وكما قال (أئنا لتاركُوا آلِهتنا لشاعرٍ مجنون) [٢] .

ثم ان آيات التحدي ظلت مسجلة في كتاب الله تعالى ، تقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم في كل عصر وقرن ، فما استطاع واحد فيهم مهما كان عصره وتاريخه أن يسجل الى جانب هذا التحدي عملا ما يصح أن يقال انه قد عارض به القرآن فأتى بشيء حسن .

فهذا من أجلى الأدلة المادية الملموسة على ثبوت وصف الاعجاز للقرآن . اذ هو دلالة الواقع خلال التاريخ والقرون .

غير أن من أهم ما يزيد في جلاء هذا الدليل وتصويره وتجسيده ، أنّ قلة من الناس حاولوا فعلاً أن يأتوا بشيء مثل القرآن في بلاغته وسمو أسلوبه . وقد كانوا يأنسون في أنفسهم من القدرة البلاغية ما يجعلهم أهلاً لهذه المغـامرة ،

---

(١) الزخرف : ٣٠ .
(٢) الصافات : ٣٦ .

ولكنهم لما أقدموا على ذلك نزلوا حتى عن المستوى الذي كانوا يقدرون عليه ، وجاءوا بكلام بارد مضحك يسخر بعضه من بعض ! ..

فمنهم مسيلمة بن حبيب الكذاب ، الذي تنبأ باليمامة في أواخر حياة النبي ﷺ فقد زعم أن له قرآناً آخر يوحى به إليه من السماء ، وقد جـــاء في قرآنه هذا ، فيما رووا ، قوله :

(ياضفدع بنت ضفدعين ، نِقّي ما تنقّين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماءَ تكدّرين ولا الشاربَ تمنعين) ومن ذلك قوله (والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمنا ، لقد فُضّلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترّ فآووه ، والباغي فناوئوه) ..

ولقد كان مسيلمة من فصحاء العرب ، وكان إذا تكلم على سجيته وفي حدود طاقته ، جاء بكلام خير من هذا بكثير ، ولكنه لما أراد أن يعرض للناس معجزته القرآنية ، انحط لسانه إلى هذا الدون المضحك السخيف ، ولقد أطال الجاحظ في كتابه الحيوان في السخرية به وبقرءآنه .

وهنالك آخرون ، جاءوا بعد ذلك مع فترات من التاريخ ، توفرت لديهم حب المغامرة وآنسوا في ملكاتهم البلاغية القدرة على معارضة القرآن ولكنهم حذروا الفضيحة والسخرية ، وخافوا أن ينتهي أمرهم الى مثل ما انتهى اليه أمر مسيلمة . فأخذوا يعارضون ويحاورون بعضاً من سور القرآن على تكتّم وفي نجوة من الناس ، ثم لما عادوا الى ما أبدعوه فوجدوه غثاء لا قيمة له ، وكلاماً لاطعم فيه ، خرجوا به على الناس بعد أن ألصقوه بمن خطر في بالهم من مشاهير الأدباء والكاتبين .

ومن هذا القبيل ، ما نسب الى ابن المقفع من أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ، ثم أقصر عن ذلك وتركه ، وأغلب الظن أنه كذب شنيع عليه .

ويقول الرافعي رحمه الله معللاً اختيار هؤلاء المجهولين لابن المقفع بذاته دون

غيره : وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس ، لأن فتنة الفرق الملحدة ، انما كانت من بعده ، وكان البلغاء كافةً لا يمترون في إعجاز القرآن وان اختلفوا في وجه إعجازه ، ثم كان ابن المقفع متهماً عند الناس في دينه ، فدفع بعض ذلك إلى بعض وتهيأت النسبة من الجملة [1] .

ومن هذا القبيل أيضاً كلمات نسبت إلى أبي العلاء المعري ، قيل إنه عارض القرآن بها ، ونسبوا اليه من ذلك فيما نسبوا هذا الكلام : (أقسم بخالق الخيل والريح الهابة بليل ، أن الكافر لطويل الويل ، وان العمر لمكفوف الذيل ؛ تعدّ مدارج السّيل ، وطالِع التوبة من قبيل ، تنجُ وما إخالُك بناج) [2].

قالوا : ولما أن قيل له ، إن كلامك هذا لا يبدو فيه شيء من رواء القرآن وإشراقه ، أجابهم : دعوه تَصقُلْه الألسن في المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون !..

وإن أيّ عاقل يدرك براءة المعري من هذا الهراء وهذه الطريقة في الدفاع عن هذا الكلام ، لسببين :

الأول : أن المعري لم يكن من الجهل بالواقع والتاريخ الى حيث كان يتوهم بأن الذين سجدوا لبلاغة ما سمعوه من القرآن ، من العرب المشركين والمسلمين ، لم يفعلوا ذلك إلاّ بعد أن صقلت الآيات آذانهم أربعمائة سنة !.

والثاني : أن الرجل عرض في كتابه « رسالة الغفران » لسخف جاء به ابن الراوندي في كتاب له سماه « التاج » ، وهو سخف يشبه هذا الذي ألصق بأبي العلاء مما نحن في معرض حديثه . فتناول تاجه هذا ، ومزقه بلسانه وقلمه شر ممزق ، ثم تحدث عن القرآن حديث العاقل الذي يُكرم نفسه من حيث يوقفها عند حدها ويثبت أن لا مطمع في القرآن لمجار أو معارض . وهذا كلامه عن ذلك في رسالة الغفران :

---

(١) انظر تاريخ آداب العرب للرافعي : ٢/١٨٣ .

(٢) المرجع السابق : ٢/١٨٩ .

[وأما ابن الراوندي ، فلم يكن إلى المصلحة بمَهْدِيّ ، وأمّا « تاجُه » فلا يصلح أن يكون نعلًا ، ولم يَجِدْ من عذابٍ وَعْلًا (أي ملجأً) .. ويجوز أن يُنْظَم تاجه عقارب ، فما كان المُحْسِنَ ولا المقارب ... وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أُفٌّ وتُفٌّ ، وجوربٌ وخف !.. قيل وما جورب وخف ؟. قالت : واديان في جهنم] إلى أن قال : وأجمع ملحد ومهتدٍ ، وناكب عن المحجة ومقتدٍ أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ ، كتاب بهر بالإعجاز ، ولقي عدوّه بالإرجاز ، ما حذي على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب ، وجاء كالشمس اللائحة نوراً للمُسِرَّة والبائحة (وتلك الأمثالُ نضْرِبُها للنّاسِ لعلّهم يتفكّرُون) وإن الآية منه أو بعض الآية ، لتعترضَ في أفصح كَلِمٍ يقدر عليه المخلوقُون ، فتكونُ فيه كالشِّهاب المتلألىء في جُنح غَسَقْ ، والزهرة البادية في جُدوبٍ ذاتِ نَسَق ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالِقين][1] .

أفيجوز فيما قد يتصوره عقل عاقل ، أن يجرّد المعرّي هذه السياط الملهبة على ظهر ابن الراوندي ، ثم يعمد فيضع هو أيضاً ظهره تحت لهيبها ؟!.

• • •

فهذا هو الدليل الماديّ الملموس على إعجاز القرآن ، وإنما يُعرف الدليل على إعجازه من هذا الوجه فقط ، فإن وجدت أن أصحاب الخبرة والطاقة قد عجزوا عن الاتيان بمثله فهو معجز ، وإلا فهو ليس كذلك .

ولا يذهبن بك الوهم ، أن المقصود من الإتيان بمثله ، هو أن يؤتى بكلام على وزانه ونسقه وتقاطيعه ، ويكون مع ذلك في مستوى بلاغته ، فإنّ مثل ذلك مستحيل بالنسبة لسائر أنواع الكلام ، إذ الكلام – كما يقولون – صفة المتكلم ، ولكلٍ أسلوبه الخاص به وطريقته المعروف بها ، وقلما يستطيع كاتب أن

(١) رسالة الغفران : ٤٦٩ – ٤٧٠ .

يلبس كلامه أسلوب كاتب آخر ، وإن كان في الناس من حاولوا ذلك ، كابن العميد في اتباعه طريقة الجاحظ .

وإنما المقصود بعجز الناس عن الاتيان بمثل القرآن ، أن يأتوا بكلام ما ، أيّاً كان أسلوبه ومنهجه وطريقته ، بشرط أن يكون في مستوى القرآن بلاغة وبياناً . وبهذا المعنى كان الأدباء ولا يزالون يتبارون ويتساجلون في النثر والنظم ، وبهذا المعنى تمكن المفاضلة والمقارنة بين الشعراء والكتاب .

وجوهه :

القرآن معجز من وجوه مختلفة ، بعضها خاص بالعرب الذين درسوا اللغة العربية وتذوقوا بلاغتها ، وبعضها الآخر عام يدركه العقلاء من الناس كلهم .

أما ما يخص من ذلك العرب ، فهو بديع نظمه وعجيب تأليفه وسموه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عن الإتيان بمثله ؛ واعجاز القرآن من هذا الوجه حجة على العرب ، لأنهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه ، والعرب حجة على سائر الناس ، لأنهم إذا رأوا أن أرباب هذه اللغة وأدباءها قد قصر بهم الطوق عن تأليف مثله ، أدركوا أنه معجز وأنه ليس مما يقدر عليه البشر(١).

وأما ما يدركه من ذلك الناس كلهم ، فيتلخص في ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : ما فيه من الإخبار عن المغيبات ، وقد وقعت كما أخبر ، فواضح أن ذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم اليه ، ويوجد من ذلك في القرآن كثير .

فمنه قوله تعالى (قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشَرون إلى جهنّمَ وبئسَ المهاد)(٢). وقوله تعالى (ألـم ، غُلبت الرومُ في أدنى الأرضِ ، وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون في بِضْعِ سنين لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد)(٣) . وقوله

(١) انظر ماكتبه في ذلك الباقلاني في : اعجاز القرآن ص : ٢٥٩ والسيوطي في الاتقان : ١١٩/٢ .

(٢) آل عمران : ١٢ .

(٣) الروم : ١ و ٢ .

تعالى (لقد صَدَقَ اللهُ رسُولَه الرُّؤيا بالحق ، لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنينَ مُحَلِّقينَ رُؤوسَكم ومُقَصِّرين)[1].

الوجه الثاني : ما فيه من الإخبار عن الماضي السحيق من حين خلق الله آدم الى مبعث محمد عليه الصلاة والسلام مما لم يكن يعلمه أحد من الناس ، ولم يكن مبثوثاً شيء منه الا في الكتب السماوية السابقة ، وقد عُلم لدى فئات الناس كلهم أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يحسن قراءة ولا كتابة ، ولم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأنبائهم وسيرهم ، ولم يعثر مؤرخ أو باحث على أنه لازم راهباً أو رجلاً من علماء الكتب السماوية ليتعلم منه شيئاً مما عنده . واذا كان هذا كله من اليقين الذي لم يتطرق اليه شك أي باحث أو مؤرخ ، فمن البدهي اذاً أنه لا يمكن أن يصل الى علم شيء من ذلك الا بتأييد من الوحي الإلهي واخبار من جهته . فهذا وجه ثان من وجوه اعجاز القرآن .

الوجه الثالث : ما يتضمنه هذا الكتاب من التشريع العظيم الدقيق المتعلق بشتى أمور الحياة الخاصة والعامة ، وأنت تعلم أنه تشريع عنَتْ لعظمته وسموّه جباهُ عامة علماء التشريع والقانون ، وكانوا ولا يزالون يعلنون أنه لا غنى لأي مقنن أو مشرع عن الاستفادة من كنز تشريعه والاعتماد على مبادئه وأحكامه . ولا بد أنك قد سمعت عن المؤتمرات الفقهية وأسابيع الفقه الإسلامي التي أقيمت في أنحاء مختلفة من أوربا ، حيث أجمعت فيها كلمة علماء الفقه والقانون ، على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، على مدى أهمية الفقه الاسلامي وروعته وضرورة الاقبال على دراسته والاستفادة منه[2].

---

(١) الفتح :

(٢) من ذلك المؤتمر الذي عقدته شعبة الحقوق الشرقية من « المجمع الدولي للحقوق المقارنة » في كلية الحقوق من جامعة باريس للبحث في الفقه الاسلامي » في عام ١٩٥١ وقرر في نهايته المؤتمرون بالاجماع أن مبادىء الفقه الاسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها كما أعلنوا عن رغبتهم في أن يظل اسبوع الفقه الاسلامي يتابع أعماله سنة فسنة وفي أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الاسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ويكون موسوعة فقهية يسهل الوقوف من خلالها على أحكام الشريعة الاسلامية ومبادئها .

فإذا تأملت في أن هذا الفقه الذي يقال عنه هذا الكلام في القرن العشرين إنما يعود مصدره الى ما قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، وأن قانوناً ما لم يبق حياً صالحاً خلال عُشر هذه المدة ، وأن الذي تنزل عليه هذا القانون رجل أمي لم يقرأ كتاباً ولم يخط بيمينه حرفاً واحداً ، فضلاً عن أن يتوفر على دراسة التشريع ، أو أن يعكف على قانون جوستنيان ، أو يجمع من حوله الباحثين وأرباب العلم والاختصاص — إذا تأملت في هذا علمت بالبداهة أنه ﷺ لا يمكن أن يصل إلى علم شيء من ذلك أيضاً إلا من جهة الوحي وإخباره . فهذا وجه ثالث من وجوه إعجاز القرآن .

هذه الوجوه الثلاثة ؛ مما يشترك في معرفته والتمكن من فهمه عامة العقلاء من الناس ، وليس خاصاً بفئة منهم دون غيرهم . ومع ذلك فإن حديثنا الآن سوف يقتصر على الوجه الأول ، وهو ما ينطوي عليه هذا الكتاب الجليل من الإعجاز البلاغي الذي ووجه به العرب مباشرة ثم ووجه به الناس كلهم عن طريق العرب ، فكان حجة عليهم كلهم .

مظاهر إعجازه :

للاعجاز البلاغي في القرآن مظاهر كثيرة ، سنأتي على ذكر جانب منها إن شاء الله ، ولكن لابد أن نذكر قبل ذلك مقدمة نوضح فيها مصدر هذه المظاهر كلها وأساس الإعجاز القرآني في جملته ، فإن لهذه الفروع التي سنتحدث عنها جذوراً يُردّ إليها علم كل فرع وتفصيل .

وبيان ذلك ، أن مرد البلاغة الكلامية إلى الدقة في مطابقة اللفظ للمعنى ، ومدى القدرة على تسخير الأول لتجلية الثاني وعرضه في المظهر المطلوب . وإنما أهم أسباب ذلك أن يتسارع إلى الذهن عامة ألفاظ اللغة ومترادفاتها بحيث يتكامل تصورها في جانب من الذهن كما يتكامل تصور المعنى في الجانب الآخر منه ، فبمقدار مايتم من التطابق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن واللفظ الدال عليه والمصور له ، يوصف الكلام بالبلاغة والبيان .

وتحقيق هذا الأمر في مظهره الكامل ، شيء عسير بل محال لايكاد يصل اليه الطوق البشري ، وذلك لسببين :

أولها : أن المعاني والتصورات أسرع إلى الذهن دائماً من الألفاظ وقوالب التعبير ، فالألفاظ مهما جاءت منمقة ، فإنها تعجز في عامة الأحوال عن اجتثاث حقيقة إحساسات النفس ومايختلج فيها .

ثانياً : مهما كان المتكلم أو الكاتب لغوياً بليغاً ، ومهما كان يحفظ في ذهنه من متن اللغة والفاظها ووجوه تركيبها ، فإنه إنما يقف من هذه اللغة أمام بحر عظيم من الكلمات والتعابير الحقيقية والمجازية المختلفة ، وهيهات أن تنتصب هذه التعابير كلها مكشوفة واضحة أمام خياله كما تنتصب مضارب الأحرف من الآلة الكاتبة أمام ضاربها . وإنما هو — عند إرادة التعبير — إنما يلقى حبال تفكيره وذهنه إلى هذا البحر العظيم ليلتقط منه ما تسارع اليه وسهل على لسانه أو مرن عليه قلمه وفكره ، وفي اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينجده لغرضه ويقوم بعضه مقام بعض في التعبير العام عن مقصوده .

بيد أن هذه المترادفات إنما تحسب مترادفات ، إذا ما أريد منها الدلالة الاجمالية على المعنى ، وهي مايقتنع به العامة من المتكلمين ممن لايطمعون باكثر من إيصال خلاصة احساساتهم ومجمل أفكارهم إلى الآخرين . أما عند سبر أغوار هذه الكلمات واستخراج مابينها من الخصائص والفروق ، فهي ليست عندئذ من المترادف في شيء ، وإنما لكل منها دلالته الخاصة وإشارته المتميزه وايحاؤه الذي لايشترك فيه غيره ، وتصويره الذي ينفرد به عن نظائره . وإنما تتضح هذه الفروق وتتجلى للعيان عندما يريد الكاتب أو المتكلم ان ينهي إلى السامع صورة لدقائق احساسه أو فكره وتأملاته . فتراه يميز بين المترادفات ويتأمل في جرس كل منها ووقعه ودلالته ، وقد يفسد الكلام كله في حسابه لدى تبديل كلمة منه بأخرى أو لدى أي تحوير في نسقه وسبكه من تقديم أو تأخير .

واسمع ما يقوله الباقلاني في هذا الصدد :

« وهو — أي أمر اختيار الكلمة — أدق من السحر ، وأهول من البحر وأعجب من الشعر . وكيف لايكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع « الصبح » في موضع « الفجر » يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفرُ في موضع ، وتزلّ عن مكان لاتزلّ عنه اللفظة الأخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها في مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة إلى اوطانها ، وتجد الأخرى — لو وضعت موضعها — في محلّ نِفار ، ومرمى شِراد ، ونابية عن استقرار »[1] .

فمن هنا تضيق السبيل على من ينشد الدقة في التعبير والصدق في تصوير الاحساس والمعاني إذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه لما يختص به كل منها من وظيفة ومكان ، فتجده يقع في احدى النقائص التي لامخلص منها : إما أن يقع في تطويل وتكرار لافائدة منه ، وإما أن يجنح إلى اختصار مفسد مخل ، وإما أن يقع في كلامه على الفاظ وتعابير تفسد عليه تصويره وتشوش على السامع مقصوده . وإذا اتسعت أمامه السبيل في معالجة بعض المعاني والتعبير عنها ، ضاقت عليه السبيل لدى التعبير عن معان أخرى .

وما كاتب من الكتاب أو بليغ من البلغاء ممن سمعت بهم قديماً أو حديثاً إلا وفيه هذه النقائص أو فيه واحدة منها .

وذلك كله ليس إلا مظهراً للضعف البشري الناتج عما يتمتع به من طاقة محدودة .

فمصدر الإعجاز القرآني بظاهره المختلفة ، أنه لايتّ إلى هذا الضعف البشري بأي سبب .

اقرأ ماشئت من سوره وآياته ، فستجد أن كلًا من جانبي اللفظ والمعنى فيه متوافقان متطابقان أتم مايكون الوفاق والتطابق ، لاتشعر أن حرفاً واحداً

(١) اعجاز القرآن للباقلاني : ١٨٤ .

يفيض في جانب اللفظ عن المعنى ، ولا تجد أي جانب في المعنى – مهما دق ولطف – قد قصر عن الدلالة عليه اللفظ والتعبير .

وإنك لتتأمل ، فتجد أن اللفظ فيه يدل على المعنى ، والمعنى بدوره يدل على اللفظ ، فكل منهما مرآة للآخر .

وتتأمل لتفهم : أيهما التابع وأيهما المتبوع ؟ هل اللفظ ظلّ للمعنى ، يحكيه ويجسده ويحدّه ، أم هل المعنى ظل للفظ ، يحييه ويحركه ويجمله ؟ فلا تفهم الا أنهما متمازجان يتعاوران الدلالة على أخص وأدق مافي كل منهما من الملامح والسمات، وكأنهما فى هذا الإبداع الإلهي العجيب متوالدان من بعضهما ، وكل منهما ميزان دقيق للآخر لايتوآى بينهما أي أثر من آثار التفاوت والاختلاف .

فإن كنت في شك مما أقول ، وأردت أن تقف على الميزان والدليل ، فافتح كتاب الله ، وخذ منه أيّ آية من آياته ، ثم حاول مستعيناً بكل مالديك من كتب اللغة وقواميسها وبكل من تعرف من أرباب البلاغة وعلماء العربية والبيان أن تستبدل بأي كلمة فيها كلمة أخرى تدل على نفس المعنى ، فإن استطعت أن تأتي بكلمة أدل على المعنى المطلوب وأتم في اشراقها البياني ، أو هي مثلها تقع موقعها لاترتفع عليها ولا تنخفض عنها ، فاعلم حينئذ أن كل ماقد قاله العلماء من اعجاز القرآن وبلاغته لغو من القول لايستند إلى جوهر من الحق . أما ان رأيت أن أي كلمة أخرى لاتفي بالمعنى والجرس والتناسق اللفظي كما تفي به الكلمة القرآنية وأن أي تغيير أو تبديل في الجملة القرآنية يزيل منها وجهاً رائعاً ويضع لها وجهاً آخر قاتماً أو ضعيفاً أو متنافراً ، فاعلم أن ذلك هو الدليل الذي لايمارى فيه على أن هذا الكتاب ليس مما يصنعه البشر أو يطيقونه .

خذ مثلاً قول الله عز وجل وهو يصف باهر قدرته وحكمته في خلق الكون وتنظيمه : (فالقُ الإصْباحِ وجعل اللّيْلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْباناً ذلك تقدير العزيز العليم)[1] وابحث عن أي كلمة أخرى تقوم مقام « فالق »:

(١) الأنعام : ٩٦ .

تؤدي معناها وتقوم مقامها في تصوير المراد وتجسيم الفكرة ، وابحث عن أي كلمة أخرى تضعها موضع « الإصباح » في دلالتها على الحركة والانبثاق وفي بث حقيقة المعنى المطلوب ، ثم فتش في اللغة كلها عن كلمة أخرى تضعها في مكان « سكناً » فيها هدوؤها ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة وفيها ماتبثُّه من الصورة في الخيال والنفس ، ثم ابحث ماشئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة : « حُسباناً » .

إبحث عن كل ذلك ، وقلب الآية على ما تختاره وتراه من الوجوه ، فستجد أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي لها بألفاظ مثلها أو خير منها ، ومهما غيرت في الآية أفسدت من بهائها ونقصت من روعتها واشراقها . ولا شك أننا إنما نخاطب في هذا من علم من هذه اللغة علماً أورثه ذوقاً فيها وملكة في معرفة قواعدها ، أما من كانت بضاعته من ذلك تافهة فهو لايبلغ أن يخاطب في هذا الباب بشيء .

ولا أريد أن أطيل عليك بذكر الأمثلة من القرآن على ما أقول . فالقرآن كله مثال على ذلك ، فخذ ما شئت منه وقدِّر فيه ما قلت لك ، تجد أن كل كلمة منه إنما تستقر في مكانة لا يطولها أي تغيير أو تحوير .

هذا ، في حين أنك لو تناولت أي قطعة بلاغية أخرى ، أياً كان صاحبها ، وعرضت ألفاظها وتركيبها للتبديل والتحسين ، فإنك واجد الى ذلك سبيلاً عريضة فكل قطعة بلاغية مهما تنـــاهت في الجودة قابلة للتبديل والتحسين ، خاضعة للبحث والنقد .

• • •

فهذا هو أساس الاعجاز القرآني وهو المصدر الأول لمختلف مظاهر الاعجـاز التي سنتحدث عنها ، وإليه مردُّ كل ما يبحث فيه العلماء من خصـــائص أسلوبه وميزاته البلاغية .

وإليك الآن بيان بعض هذه المظاهر :

المظهر الأول : الخصائص المتعلقة بأسلوبه ، فالقرآن — كما قلنا فيما مضى —

يجري على نسق خاص في أسلوبه ، ومهما حاول الكاتبون ، فلن يستطيعوا أن يطبعوا كلامهم بشيء من خصائصه هذه . وقد شرحنا هذه الخصائص فيما مضى ، فلا نعود إلى شرحها من جديد ، ولكنا نعود فنذكر عناوينها لتتذكر ما قلناه في كل منها أو لتعود إليها مرة أخرى بالقراءة والدرس .

فالخاصة الأولى في أسلوبه : أنه يجري على نسق بديع خارج عن المعروف والمألوف من نظام جميع كلام العرب ، فهو كما قلنا : ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده ، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه .

والخاصة الثانية : أن التعبير القرآني يظل جارياً على مستوى رفيع واحد من السمو المتناهي في جمال اللفظ ورقة الصياغة وروعة التعبير ، رغم تنقله بين الأبحاث والموضوعات . وانها لحقيقة شاقة لم يستطع السمو اليها أحد ممن عرفنا وسمعنا بهم من فحول علماء العربية والبيان .

الخاصة الثالثة : أن ألفاظه مصوغة بشكل غريب وعلى هيأة عجيبة بحيث تصلح أن تكون خطاباً للناس كلهم على اختلاف عقولهم وتفكيرهم وثقافاتهم ، أي أنها تقدم لكل قارىء من معناها ما يقدر على فهمه واستيعابه ، وهي كما تعلم طريقة في التعبير اختص بها القرآن ، فلا سبيل لأحد من الناس الى سلوكها بنجاح ومن دون تكلف ، مهما كان ذا قدم راسخة في العربية وعلومها .

الخاصة الرابعة : ماقد تجده من تصريف بعض المعاني وتكرارها بين قوالب مختلفة من التعبير والأسلوب والبيان ، وفي كل مرة تجده أسلوباً رائعاً ذاجدّة ، يُلبس المعنى ثوباً من التصوير والتجسيم غير الذي كان يلبسه في المرة السابقة حتى لكأنه معنى جديد ، وهو ، بلا شك ، مما يعجز الفصحاء عنه ، ويظهر بمحاولته عجزهم وضعفهم وحدود طاقتهم .

هذا ، وإن أعوزك شرح وبيان شيء من هذه الخصائص ، فعد إلى حديثنا عن اسلوب القرآن وخصائصه فقد سبق الوفاء بشرح كل ذلك هناك .

المظهر الثاني : الكلمة القرآنية ! ... فإذا تأملت في الكلمات التي تتألف منها الجمل القرآنية ، رأيتها تمتاز بجمال توقيعها في السمع ، وباتّساقها الغريب مع المعنى حتى لكأنك تشم منها رائحة المعنى المطلوب أو لكأن فيها إشراقاً تلمع فيه صورة المعنى أمام عينيك ، وباتّساعِ دلالتها لما لا تتسع له عادةً دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات ، ورب معنى لا يستطيع الإنسان أن يعبر عنه إلا ببضع كلمات أو جمل ، يعبر عنه القرآن تعبيراً جميلاً بكلمة واحدة لا أكثر .

وقد تجد في تعابير الأدباء والبلغاء كلمات كثيرة تتصف ببعض هذه الميز الثلاث أما أن تجدها تتجلى بهذه الميز الثلاث معاً وباطّراد لا يتخلف أو يشذ ، فذلك مالا يمكن أن تراه إلا في القرآن وحده .

انظر الى قوله تعالى في وصف كل من الليل والصبح : « والليلِ اذا عَسْعَسَ والصُّبحِ إذا تنفَّسَ (١)) ألا تشم رائحة المعنى واضحاً من كل من هاتين الكلمتين : عسعس وتنفس ؟ ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة الرجوع إلى قاموس اللغة ؟ وهل في مقدورك أن تصور إقبال ظلام الليل وتَمَدُّده في الافاق بكلمة أدل من : عسعس ، أو أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع وأبدع من : تنفس ؟

ولما أراد عز وجل أن يصور كيف أنه طبع الليل بالسواد والظلمة العامة - وهو معنى غير المعنى السابق - ، عبر عن ذلك بهذه الكلمة العجيبة في دلالتها على هذا المعنى وتصويره له ، وذلك في قوله عز وجل (أأنتمُ أشدُّ خَلقاً أم السّماءُ بناها ، رَفَعَ سَمكَها فسوّاها ، وأغطَشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها) (٢) أفلا تبصر وأنت تقرأ كلمة (أغطش) وتنتبه إلى طبيعة حروفها ووقعها في أذنك ، أنها تقدم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل أن تقدمها لك في معناها اللغوي المحفوظ ؟

---

(١) التكوير : ١٧ و ١٨

(٢) النازعات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩

ومن طبيعة الانسان أنه لايستطيع أن يطوع ألفاظ اللغة لكل مايتصوره من دقائق المعنى والأخيلة فهو كثيراً مايضطر أن ينزل عن بساط خياله المحلق، لاحقاً بكلمة هي دون خياله الحالم ولكنه لايجـد من حوله سواها، فيهبط الى مستواها وبذلك يفسد سير فكره وتصوراته.

غير أن القرآن لايعجزه أن تكون الكلمة دائماً في مستوى المعنى المراد على أدق وجه.

أنظر، حينما يصف دعوة امرأة العزيز للنسوة اللائي تحدثن، منتقدات، عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه، إلى جلسة لطيفة رائقة في بيتها لتطلعهن فيه على يوسف وجماله حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه.. لقد قدّمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولاشك، ولقد أوضح القرآن هذا. ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام. فهذه إنما تصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى « المطبخ » بكل مافيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه. وهي صورة لاتتفق مع ماتريد الآية أن تضعه أمام خيالك من مظهر هذا المجلس الأنيق الذي يضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلُعُ عليهن فيه على حين غرة: يوسف. فانظر الى الكلمة التي عبر بها البيان القرآني عن الطعام في هذه الحال: (فلما سَمِعتْ بمكرِهِنّ أرسلتْ إليهنّ وأعتَدَتْ لهن متّكأً..)[1] متكأً!... كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذي إنمايقدم إلى المجلس تفكّها وتبسطاً وتجميلًا للمجلس وتوفيراً لأسباب المتعة فيه، ولذلك فالشأن فيه أن يُقبَل عليه في حالة من الراحة والإتكاء. فأي تعبير هذا الذي تمتد به الدقة إلى تصوير المعنى الى هذا الحد غير تعبير القرآن.

وحينما حدثنا القرآن عن مظاهر نعمة الله على عباده، ومن جملتها: النار، نبهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا، فأوضح أنها متاع يُحتاج إليه في حالات السفر واجتياز القفار، ولتحضير الطعام، ولماوراء ذلك من أسباب المتعة والرفاهية. فكم هي الكلمات او الجمل التي تتصور أنها وفت بالتعبير عن هذه الفوائد كلها؟ إنها ليست أكثر من كلمة واحدة!...

(١) يوسف: ٣١

واسمع في ذلك قول الله عز وجل : (أفرأيتمُ النارَ التي تُورُونْ ، أأنتمُ أنشأتمُ شجرتها أم نحنُ المُنشئون ، نحنُ جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمُقْوِين) [1] .

المقوين !. هذه هي الكلمة التي تحمل تلك المعاني كلها . فالمقوين جمع مقو ، أي نازل في القَواء ، (وهو المكان القفر) أو مجتاز بها . وعليه قول النابغة :

يادارميّـــة بالعليـاء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمـد

والمقوين أيضاً من القوَى وهو الجوع ، وعليه قول حاتم الطائي :

وإني لأختار القوى طاوي الحشا محافظـة من أن يقـال لئيم

والمقوين أيضاً جمـــع مُقوٍ بمعني مستمتع ، كما قال مجاهد [2] . وإطـلاق الاستمتاع في هذا المعنى الثالث ، إنما يفسره الزمن وتطور الاحوال وتقدم أسباب الحياة والعيش .

ولا والله ، لايطيق بشر كائنا من كان ، أن يُخضع اللغة لمقاصده هذا الاخضاع العجيب ، فيحشد مثل هذه المعاني المتباعدة في كلمة واحدة تأتي طوع قصده ومراده بدون أي تمحل أو تكلف أو تقعر . ولكنها صنعة رب العالمين !...

وحينما صور لنا كيف أنه عز وجل قد أهلك عاداً بريح عاتية داهمتهم فأخذت تقتلعهم من الأرض اقتلاعاً وتطيرهم في الفضاء ، شبه جسومهم الطوال وهي تتطاير من الأرض في سهولة وبسرعة ، بنخيل طوال قد نخرت واقتلعت جذورهـا من باطن الأرض فهي قائمة على ظاهرهـا لايمسكها أي شيء . فانظر كيف عبر عن ذلك بقوله (إنا أرسلنا عليهم ريحـاً صَرْصَراً في يومِ نحْسٍ مُستمرّ ، تَنْزِعُ الناسَ كأنّهم أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ) [3] وتأمل في كلمة « منقعر » !.. كلمة واحدة ألانهـا التعبير القرآني لتصوير رائـع ، وجعلها تدل في إشراق جميـل على مالايمكنك أن تعبر عنه بكلمة واحدة مهما حاولت . فهي تدل على أن النخل

---

(١) الواقعة : ٧٢ و ٧٣

(٢) راجع لسان العرب والقاموس المحيط ، وانظر تفسير القرطبي : ٢٢١/١٧ .

(٣) القمر : ١٩ و ٢٠ .

قد انقلعت أصوله من باطن الأرض ولم تعد إلا عمداناً قائمة على سطحها ، فكأن الكلمة متصيدة ومنحوتة من كلمتي : « منقلع » و « قعر » صيغت منها هذه الكلمة الرائعة المصوّرة العجيبة : منقعر ، وهي من المجاز الذي يهتز له رأس البليغ طرباً [1] .

ومن هذا الباب قوله تعالى « تضحى » من قوله (إنّ لكَ أن لا تجوعَ فيها ولا تَعرْى وأنّكَ لاتظْمأ فيها ولا تَضْحى) [2] وقوله تعالى « فلا يسرف في القتل » من قوله (ومن قُتِلَ مَظْلُوماً فقد جَعَلْنا لوليّه سُلْطاناً ،فلايُسْرِفْ في القتلِ إنه كانَ منصُوراً) [3] وقوله تعالى « قراراً » من قوله (أمَّنْ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً .) [4] .

ولا تتسع صفحات هذا الكتاب لشرح وجه ذلك في كل آية ، كما لايتسع المجال لعرض المزيد من الأمثلة ، ولكنّ بإمكانك أن تتأمل فيما شئت من كتاب الله عز وجل لتقف على مانقول .

المظهر الثالث : الجملة وصياغتها . وللاعجاز فيها وجوه كثيرة .

فمنها : ماتجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها وبين تلاحق حركاتها وسكناتها ،فالجملة في القرآن لابد أن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق ، ويتكون من تضامّها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ،ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب مابينها بشكل من الأشكال .

---

(١) انظر أساس البلاغة للزمخشري : ٥١٦ .

(٢) طه : ١١٨ و ١١٩ .

(٣) الإسراء : ٣٣ .

(٤) النمل : ٦١ .

إقرأ مثلاً قوله تعالى (ولَقدْ أنْذَرهمُ بطشْتَنَا فتماروْا بالنُّذُرِ)[1]. واقرأ هذه الجمل الأخرى (ففتَحْنا أبْوابَ السَّماءِ بماءٍ مُنْهمِرٍ ، وفجَّرْنا الأرْضَ عُيُوناً ، فالتَقَى الماءُ على أمْرٍ قد قُدِرْ[2]) وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها ، ثم دقق نظرك وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة مع المهموسة والمجهورة وغيرها ، ثم حاول أن تمعن في تآلف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها . فإنك إذا تأملت في ذلك ، علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار ، وأن ذلك إنما قدّر تقديراً بعلم اللطيف الخبير ، وهيهات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة .

ولا تحسبن أنني إنما أجهد الفكر بانتقاء أمثلة في القرآن لما أقول . بل القرآن كله جار على هذا السنن ، وإنما أضع أمامك النماذج لتهتدي بها في النظر إلى عامة مافي القرآن من جمل وآيات . ولولا أن مبنى هذا الكتاب على الاختصار والكفاية ، لغمرت مباحثه بالأمثلة التي لاتحصى .

وحسبك من الأدلة على هذه الحقيقة ، ماهو معلوم من أن حفظ القرآن أيسر على الانسان من حفظ سائر أنواع النثر ، ذلك لأنه منضبط بأوزان وإيقاعات خاصة به ، وإن لم يكن خاضعاً لأوزان الشعر . فيسهل بذلك حفظه والتنبه إلى الخطأ الذي يقع الحافظ فيه ، بل المعروف لدى من مارس حفظ القرآن أن الخطأ قلما يقع في حفظه وضبطه إلا من وجه واحد هو ماقد يكون بين الآيات من تشابه ، فيأتي الخطأ من خلط آية بأخرى والوقوع في اللبس بينهما .

ومنها : أنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لايكاد الانسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيره ، دون أن تجد فيه اختصاراً مخلاً أو ضعفاً في الدلالة .

---

(١) القمر : ٣٦ وانظر ماكتبه الرافعي رحمه الله عن هذه الآية في كتابه إعجاز القرآن: ٢٥٨
(٢) القمر : ١١ و ١٢ و ١٣ .

من ذلك مثلًا ، ماحدثنا به القرآن من الضمانات التي أعطاها الله تعالى لآدم بعد خلقه مما يحتاجه الانسان في حياته ويعتبر من مقومات بقائه وعيشه ، لقد وضع البيان القرآني هذه الضمانات كلها في جملتين فقط ، وهما قوله عز وجل مخاطباً آدم (إنَّ لَكَ أنْ لاتَجُوعَ فيها ولا تعْرى ، وأنَّكَ لاتظْمأُ فيها ولاتضْحى)[1] فتأمل في هاتين الجملتين وألفاظهما وكيفية صياغتهما وكيف أنهما جمعتا أصول معايش الانسان كلها من طعام وشراب وملبس ومأوى ، وانظر كيف عبَّر عن تأمين حاجته الى المسكن والمأوى بقوله : ولا تضحى !.. أي لك أن لاتصيبك شمس الضحى ويؤذيك حرها ولفحها بما نهيئه لك من المسكن الذي يؤويك[2] .

وتأمل في جمل هذه الآية الأخرى جملة جملة ، وهي تصف شأن فرعون وعمله:

(إنَّ فِرعَوْنَ علا في الأرضِ ، وجَعَل أهلَها شِيَعاً ، يستضْعِفُ طائفة منهم : يُذَبِّحُ أبناءَهم ويَسْتَحيِ نساءَهم ، إنَّه كان من المفسدين)[3].

إن كل جملة من هذه الجمل ، تدل على معنى كبير مستقل بذاته والثاني من من كل منها متفرع ونتيجة عما قبله ، ولو ذهبت تترجم هذه المعاني الى ألفاظ عربية من عندك ، لاحتاجت منك الى أضعاف هذه الكلمات ، دون أن تكون في شيء من بيان الآية وقوتها وإشراقها .

ثم تأمل في الآية التي تليها مباشرة ، وهي تتحدث بالمقابل ، عن وعد الله لأولئك المستضعفين وانظر الى ما تضمنته كل جملة منها من المعاني الواسعة الكبيرة في أقصر لفظ بأوضح دلالة :

---

(١) طه : ١١٨ و ١١٩ .

(٢) هذا إذا اعتبرنا أنه كانت هناك شمس في الجنة حينما أسكن الله آدم الجنة وقال له هذا الكلام أما إن قلنا لم يكن ثمة شمس ولا ظل إذ ذاك فقوله : ولا تضحى مجرد بيان أنه لن يصيبه أذى من حر الشمس ولفحها وامتنان عليه بذلك .

(٣) القصص : ٤ .

(ونريدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استُضْعِفوا في الأرضِ ، ونَجْعَلَهم أئِمَّةً ، ونجعَلَهُم الوارِثين)[1].

ولست أحسب أنك بحاجة الى ما يشعرك بمعنى الربوبية وسلطانها ينبعثان من ألفاظ هذه الآية وصوغها ، ولا الى ما يدلك على المعنى العظيم في قوله « ونجعلهم أئمة » وقوله « ونجعلهم الوارثين » !..

فإذا تأملت ، وأصخت الى صوت هذه الآية ، علمت أن انساناً من البشر لا يملك أن يفوه بشيء من هذا الكلام ، وأنه ليس إلا كلام مالك الكون كله .

وانظر إلى هذه الجمل الخمس الأخرى ، وتأمل كيف جمعت أطراف دستور كامل لكيفية السلوك المعيشي والاجتماعي في هذه الحياة ، في قالب من التعبير لا يستطيع أهل الأرض كلهم أن يستبدلوا به مثله : يقول الله عز وجل : (وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخرةَ ، ولا تنْسَ نصيبَكَ من الدنيا ، وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليكَ ، ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرضِ ، إنَّ الله لا يُحِبُّ المفسدين)[2].

على أنك حينما تتأمل هذه الجمل ، تشعر فيها بروح من وراء اللفظ والدلالة والمعنى ، هي مزيج من الاحساس بالأنس والرهبة والتأثر الوجداني ، وهو إحساس لا تجده إلا في كلام الله عز وجل . ومن أجله لا يطوف بك الملل عند تكراره وترداده ، على خلاف المعروف بالنسبة لسائر أنواع الكلام الأخرى .

ومنها : تلك الميّزة العجيبة التي اختصت بها الجملة القرآنية ، وهي إخراج المعنى المجرد ، في مظهر الأمر المُحَسّ الملموس ، ثم بث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه .

ومكمن الإعجاز في ذلك ، أنّ الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أنيط بها من المعاني ، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ

---

(١) القصص : ٥ .
(٢) القصص : ٧٧ .

وسيلة لصب المعاني الفكرية المجردة ، في قوالب من الشخوص والأجرام والمحسوسات ، تتحرك في داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة الملموسة .

ومقياس هذا الذي نقول ، أنك إذا أقبلت تقرأ شيئاً من كتاب الله عزوجل بإمعان ، رأيت نفسك تستقبل معاني الآيات بكل من عقلك وخيالك معاً ، فالعقل يفهم والخيال يتصور ، وذلك على خلاف المألوف والمعروف لدى قراءة أي كلام أو كتاب آخر ، فالعقل وحده الذي يتفاعل مع الكلام والمعاني ، اللهم إلا تلك المواضيع الأخرى التي تقوم في جوهرها الأصلي على التخيُّل والتصوير . ولكن القرآن ، في مواضيعه كله ، إنما تقوم أداته التعبيرية على التصوير والتجسيم .

وإن لنا عودة الى هذا البحث بتفصيل أوسع ، عندما نتحدث عن التصوير في القرآن . أما الآن فحسبنا أن نلفت النظر الى هذه الحقيقة العجيبة ونأتي ببعض الأمثلة على ذلك .

تأمل في هذا التصوير الذي بلغ أسمى درجات الروعة لحالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وغوايته عن السبيل الصحيح :

(إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ، فهي الى الأذقان فهم مُقمَحون ، وجعلنا من بين أيديهم سَدّاً ومن خلفهم سَدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)(١).

فالآية كما ترى تتركك تتخيل انساناً التف حول عنقه غُلٌّ عريض مرتفع الى الذقن جعل رأسه صاعداً الى الأعلى لا يتحرك ... فتلك هي الصورة الساخرة للمتكبر . ثم هو يقف في مكان قد سدّ عليه بجدران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفه ، وقد غشّى الظلام على بصره ، فهو لا يملك حراكاً نحو أي اتجاه ؛ وتلك هي صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل ، وظل مع ذلك عاكفاً على غيه وضلاله .

---

(١) يس : ٨ و ٩ ومقمحون : أي رافعو رؤوسهم ، يقال أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً.

وتأمل في هذه الآية الأخرى، التي تريد أن توضح لك قيام الكون على أساس من النظام الرتيب والتنسيق الذي لا يتخلف ولا يلحقه الفساد، فتُصور لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة أمام عينيك، وكأنك أمام آلات لمعملٍ تتحرك بسرعة دائبة في نظام مستمر:

(إنَّ ربكم اللهُ الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش، يُغْشي الليلَ النّهارَ يطلبُه حثيثاً، والشمسَ والقمرَ والنجومَ، مسخّراتٍ بأمره، ألاَ له الخلْقُ والامرُ، تباركَ اللهُ ربُّ العالمين)[1].

فانظر في قوله «يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً» وتأمل في الصورة المتحركة التي تطبعها في خيالك. وإنك لتجد هذه الصورة المتحركة نفسها بأسلوب آخر في قوله تعالى (لا الشّمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النّهارِ، وكلٌّ في فَلَكٍ يَسبحُون). فأنت تقف من هذه الآية — كما ترى — أمام حركة دائبة لاتفتر ولا تختلف، يعيها الخيال والشعور.

وانظر في هذه الصورة المتحركة الأخرى التي عمدت الى معنى فكري مجرد فأخرجته في مظهر حرب متلاحمة بين طرفين تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة: (بلْ نقذفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ، ولكمُ الوَيْلُ ممّا تصفون)[2]. فالقذف، والدمغ والزهق، كلمات ما كان ليخطر في بال أي متأمل أن يستعملها في مجال التعبير عن أن الحق هو الذي تتقبله النفوس والعقول الحرة دائماً، ولكن المعجزة القرآنية هي التي طوّعت مختلف ألفاظ اللغة لمختلف المعاني والأفكار.

المظهر الرابع: ما تجده في كثير من آياته من جلال الربوبية وكبرياء الألوهية، وذلك بقطع النظر عن المعنى الذي يؤديه اللفظ، فهو مما لا يقوى أي

---

(١) الاعراف: ٥٤.

(٢) الانبياء: ١٢.

انسان على اختلاقه في أيّ صنف من أصناف المعاني والكلام . وهو من اهم مظاهر إعجاز القرآن ، وإن لم أجد من تحدّث عنه أو لفت النظر إليه من الكاتبين .

وبيان ذلك أن الكلام إنما هو مرآة لطبيعة المتكلم ، فلا بد من أن تتجلّى طبيعته فيما يكتب أو يقول ، وتزداد طبيعته وضوحاً من خلال كلامه كلما طرق مزيداً من المواضيع والأبحاث .

وقد يستطيع بعض الناس أن يوجدوا صورة لطبيعة أخرى في مظهر حركاتهم وأعمالهم غير التي تكمن حقيقة في نفوسهم ، وذلك في مجال كالتمثيل والتمويه الجزئي والستر على الناس مثلاً ، ولكن لايمكن أن يبلغ الأمر إلى حد الازدواج المتناقض في مجال الطبيعة والنفس ، أي لايمكن لإنسان ماأن يكون قد انطبع في جانب من نفسه على البشرية بخصائصها المعروفة ، وانطبع في جانب آخر منها على الألوهية بخصائصها المعروفة أيضاً .

وإذا كان هذا غير ممكن ، فمن غير الممكن لإنسان ما أن يصوغ كلاماً ينشر من حوله جبروت الألوهية ، وتشع منه رهبة الربوبية وكبرياؤها في صياغة لا تكلف فيها ولا تمثيل . لأن طبيعة البشرية لايمكن أن تتخلى عنه لحظة من لحظات حياته ، ومن ثم فهي تعوقه عن القدرة على هذا الأمر ، وإذا حاول أن يجرب عن طريق الصنعة والتمثيل ، فإنه لن يأتي إلا بكلام متنافر متهافت في وحيه ودلالته ، لايدل إلا على ماأقامه في نفسه من ازدواج متكلف كاذب في الطبع والشعور .

إسمع مثلاً هذا الكلام ، وانتبه إلى ماينشره في نفسك من عظمة الألوهية والهيبة والرهبة البالغتين :

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ، ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّاً ، ثم لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً ، وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً

مقضياً ، ثم نُنَجِّي الذين اتَّقَوْا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً) (١) .

أو اسمع هذه الآيات الأخرى (إنَّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدْني وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكري إنَّ الساعةَ آتيةٌ ، أكاد أُخفِيها لِتُجزى كُلُّ نفسٍ بما تسعى) (٢) .

أو قوله عز وجل (حتَّى إذا أخذْنا مُتْرَفِيهم بالعذابِ إذا هُمْ يَجأرُون، لا تَجأرُوا اليومَ إنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُون ، قدْ كانتْ آياتي تُتْلى عليكُم فكُنْتُم على أعْقابِكُم تَنكِصُون ، مُسْتَكبِرينَ به سامِراً تهجُرُون) (٣) .

أو اسمع هذه الآيات التي يخاطب بها الله عز وجل محمداً عليه الصلاة والسلام، وتأمل كيف تتنزل معانيها من علوٍّ عظيم ،وكيف تغمرك بصورة القوة التي لا تحد والهيبة التي ليست مما يتصف به البشر :

(وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الّذي أوحيْنا إليْك لتَفْتَريَ عليْنا غيرَه وإذاً لاتَّخذُوكَ خَليلًا ، ولوْلا أنْ ثبَّتْناكَ لقدْ كِدْتَ تركَنُ إليهمْ شيْئاً قليلًا ، إذاً لأذقْناكَ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ ثُمَّ لاتَجِدُ لكَ عليْنا نصيراً وإنْ كادُوا ليَسْتَفِزُّونَك مِنَ الأرْضِ ليُخرِجُوكَ منها وإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قليلًا ، سُنَّةَ منْ قد أرْسلْنا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنا ولا تَجِدُ لسُنَتِنا تحْويلًا) (٤) .

أفتجد أن مثل هذا الكلام ، مما يمكن لبشر أن يصطنعه إصطناعاً وأن ينطق به تمثيلًا وأن يتحلّى به تزويراً ؟! ..

أمـا إنَّ الطبع لَغلاّب ، ولْيَقُمْ أيّ فرعون من الفراعنة المتألهين أو

---

(١) مريم : ٦٨/٧٢ .
(٢) طه : ١٤/١٧ .
(٣) المؤمنون ٦٤/٦٧ .
(٤) الإسراء : ٧٢/٧٧ .

المتجبرين ، ثم ليجرب أن ينطق بمثل هذا الكلام الذي يتنزل من عرش الربوبية ويغمر النفس بالرهبة والجلال ، فإن لسانه سيدور في فمه على غير هدى ، وإذا تكلم فسيأتي بكلام يكشف بعضه بعضاً ، فيه محاولة التمثيل وليست فيه صنعته ، إذ هو مما لايسلس القياد فيه لتصنع ولا لتمثيل .

وحسبنا هذا القدر في بيان مظاهر إعجاز القرآن ووجوهه ، وما أحسب أنك بحاجة إلى مزيد . فإن حرصت على الاستزادة من هـذا البحث والاطلاع على تفصيلات أكثر فيه ، فدونك فاقرأ ماألف في هذا الموضوع خاصة .

والكاتبون في اعجاز القرآن من العلماء وأئمة البيان كثير ، وأول من كتب في ذلك الجاحظ رحمه الله (ت : ٢٥٥) فقد ألف في ذلك كتاباً سماه (نظم القرآن) . ثم ألف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت : ٣٠٦) كتابه (إعجاز القرآن) وجاء من بعده عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١) فشرحه شرحاً مستفيضاً سماه : المعتضد . كما ألف كتابه المشهور (دلائل الإعجاز) . ثم جاء أبو عيسى عليّ الرماني (ت : ٣٨٥) فألف هو الآخر كتاباً في إعجاز القرآن ، وظهر من بعده كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني (ت : ٤٠٣) واسمه أيضاً : إعجاز القرآن ، وهو كتاب جليل سلك فيه مؤلفه أقرب الوسائل إلى كشف جوانب الإعجاز القرآني وتذوقه .

وكتب من بعدهم كثيرون في هذا الباب ، كالإمام الخطابي وفخر الدين الرازي وابن أبي الاصبع ؛ أما في عصرنا هذا فأحسب أن خير من كتب فيهذا الموضوع المرحوم مصطفى صادق الرافعي صاحب كتاب إعجاز القرآن . أما سيد قطب رحمه الله فقد عالج نواحي خاصة من إعجاز القرآن ، فأبدع فيها وأجاد ، ومن خير آثاره في ذلك ، التصوير الفني في القرآن ومشاهد يوم القيامة في القرآن . هذا إلى جانب تفسيره ؛ في ظلال القرآن ، فقد نهج فيه نهجاً جديداً قد يكون بعيداً عن تحقيق المسائل والقضايا العلمية ، ولكنه لامس حاجة في نفوس كثيرين من الناس وهي التطلع إلى الكشف عن وجدانيات القرآن وتبسيطها وتقريبها للأفهام بعيداً عن التأملات العلمية والفكرية العويصة .

موضوعات القرآن

وطريقة عرضه لها

تدور أبحاث القرآن كلها على غرض رئيسي واحد ، هو دعوة الناس كلهم الى أن يكونوا عبيداً لله عز وجل بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيداً له بالجبر والإضطرار [1] .

وتلك هي خلاصة ماينطوي عليه الدين الحق الذي ألزم الله به عباده منذ أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام الى أن بعث خاتم الأنبياء محمداً ﷺ .

وكل مافي القرآن من مواضيع ، فإنما هو متفرع عن هذا المقصد الرئيسي الأسمى .

اذ كان لابد لكي يدين الناس بالعبودية لله وحده من أن يطلعوا على دلائل وجوده ووحدانيته وأن يستيقنوا قيام الناس لرب العالمين من بعد الموت وأن الذي ينتظرهم اذ ذاك اما سعادة عظيمة في جنات الخلد أو شقاء وبيل في نار تتلظى . فكان لابد من أن يعرض القرآن لموضوع العقيدة وكلياتها ، وضرورة ايمان كل انسان عاقل بها .

فهذا هو الموضوع الاول ؛ وطريقة عرض القرآن له تقرير كليات العقيدة التي لابد من الاعتقاد بها من وحدانية الله عز وجل وبعث الناس بارواحهم وأجسادهم يوم القيمة ، والحساب والصراط والجنة والنار .وما الى ذلك ، ثم عرض الادلة على هذه الكليات وأهمها وجود الله ووحدانيته ، بأسلوب يشترك في فهمه سائر

(١) انظر ص ١٠٧ من هذا الكتاب .

صناف الناس وطبقاتهم ، ولذلك تراه ينبه الناس الى أدلة الكون وما يشيع فيه من دقة النظام وروعة الخلق وجمال التنسيق ، دون أن يعرض لشيء من الأدلة المنطقية الفلسفية أو العلمية التي تختص بفهمها فئة معينة من الناس ، اللهم الا أن تدل الآية على شيء من ذلك من وراء دلالتها على القدر المشترك الذي يفهمه الناس كلهم ففي القرآن من ذلك كثير وقد مر بيانه فيما مضى .

وإذا تأملت في معالجة القرآن لموضوع العقيدة ، فإنك قلما تجده يعرض للدليل على أصل وجود الله عز وجل ، وإنما هو يقرر وحدانيته وينبه العقول إلى الأدلة المختلفة على ذلك . والسبب ، هو أن وجود الله عز وجل أمر مفروغ منه لا نزاع ولا حاجة إلى البحث فيه ، وإنكار وجوده أو الشك فيه شيء لا يتصوره عقل عاقل . فهذا ما أراد القرآن أن يوحي به عندما لم يعرض للاستدلال على أصل وجود الخالق عز وجل . والحقيقة أن نزعة الحديث عن وجود الله والشك فيه أو فرض عدم وجوده ، شيء لم يُعرف إلا في القرون الأخيرة . أما فيما مضى فقد كان الايمان بوجود الخالق جل جلاله أمراً مفروغاً منه ، أما مظاهر الضلال فإنما كانت تحوم حول تفسير هذا الخالق أو توهم تعدده ووجود شركاء له ، أو توهم حلوله في الأفلاك العشرة أو العقول العشرة كما كان يتخيل بعض فلاسفة اليونان.

ثم كان لا بدّ من عرض العبر والآيات المختلفة التي مرت مع التاريخ ، كي يستنير بها العقل في مجال اعتباره واستدلاله ، وكي تتجلى مظاهر عظمة الله عز وجل وقدرته فيما سجله الزمن من وقائع واحداث . فمن أجل ذلك عرض القرآن لموضوع آخر هو : القصص ، قصص الأمم الخالية وما آل اليه أمرها من الهلاك والدمار وقصص كثير من الأنبياء الذين تعاقبوا على الدعوة إلى دين واحد وكرروا ابلاغ الناس حقيقة واحدة لم يختلفوا عليها ولم يتفرعوا عنها في طرائق متعددة أو متباينة . ولا نطيل في الحديث عن القصة وكيفية عرض القرآن لها ، فإن لذلك فصلا خاصاً به سيأتي إن شاء الله .

ثم كان لا بدّ أن تقوم حياة الناس في دنياهم على نظام يضمن لهم مصالحهم وأسباب عيشهم ، ويجمعهم على صراط من التحابب والتعاون ، فكان من مقتضى ذلك أن يعرض لموضوع ثالث ، هو : التشريع ، وقد أوضح القرآن في عرضه لهذا الموضوع الأحكام المتعلقة بعامة المعاملات المدنية المختلفة ، حيث قرر الاحكام المتعلقة بالبيوع والايجار والشركات وعامة العقود المالية وغيرها وقرر الأحكام المتعلقة بمختلف الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وعامة ما يتعلق بذلك من أحكام الأسرة ، وتحدث عن الجنايات والجرائم المختلفة وعقوباتها ، وعما ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلمين ، كدولة ، بالدول والجماعات الأخرى . والحاصل أن القرآن قد عرض لعامة ما يسمى اليوم بالقوانين المدنية والجنائية ، والنظم الدستورية والإدارية ، والقانون الدولي .

غير أن طريقة عرض القرآن لهذه النظم والأحكام ، اختلفت إلى ثلاثة طرق وذلك حسب اختلاف متعلقات تلك الأحكام .

فمنها ما نص القرآن على حكمه بعبارات حاسمة واضحة مفصلة لا تعليق فيها ولا إبهام أو اجمال ، وذلك مثل فريضة الميراث وحقوق كل من الورثة في مال المورث ، ومثل عقوبات بعض الجرائم كالزنى والسرقة والقذف وجريمة القتل وقطع الطرق ، ومثل كثير من مسائل الاحوال الشخصية .

ومنها ما اكتفى ببيان حكمه من وجوب أو حرمة أو إباحة .. وعرف به إجمالاً ، ثم وكل إيضاح الشروط والصفات وكيفية التطبيق إلى بيان الرسول ﷺ ، وذلك مثل عامة العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ، ومثل كثير من أحكام المعاملات .

ومنها ما وضع فيه المبادىء الاساسية وقرر بحقه الأحكام الكلية ثم أناط تعيين الاحتمالات ووجوه التطبيق فيه بأعراف الناس وتطورات الزمن والأحوال .

ثم كان لابدّ ، لتقوم حياة الناس على مبدأ قويم ونظام صالح ، ولتتوفر

ضمانات تطبيق ما وضعه أمامهم من الأحكام التشريعية – من أن يحيي القلب الانساني بمراقبة الله عز وجل في كل الظروف والأحوال ، وأن تقوم بين الناس وشائج من الاخلاق الفاضلة والمحبة والإيثار وما إلى ذلك .. فمن أجل ذلك عرض القرآن لموضوع رابع وهو : الأخلاقيات ، فعني به عناية كبرى ، وجعله من الثمرات الأولى للإيمان بالله عز وجل ، وأوضح أن هناك تلازماً شديداً بين عبودية الانسان لله عز وجل والسلوك الأخلاقي الفاضل في المجتمع .

والطريقة القرآنية لعرض هذا الموضوع ، أنه يربط بين مباديء العقيدة والإيمان بالله عز وجل ، ومبادىء سلوكية معينة في الحياة ، ويكشف عن التلازم الذي بينهما وأن الثانية دائماً نتيجة وثمرة للأولى .

فهو يوضح لك الرابطة المتينة بين اعتقادك بأنك عبد لله عز وجل ، والتواضع ولين الجانب لأخوانك من الناس ، ويأمرك بالثاني من حيث أمرك وألزمك بالاول فهو يقول مثلاً : (وعبادُ الرحمٰن الذين يمْشُون على الارْضِ هوْناً وَإذا خَاطبهُمُ الجاهلُونَ قالُوا سلاماً) (١) .

وهو يوضح لك وجه التلازم بين اعتقادك بأن الرزق إنما يأتي من عند الله عز وجل وبتقديره ، وبأن المال انما هو مال الله جعل الناس خلفاء فيه ، وبين ما ينبغي أن تلتزمه بصدد الإنفاق ، من القصد في ذلك وعدم الإقتار ولا الإسراف ، ويوضح لك أن الثاني نتيجة للأول دائماً . فهو يقول (ولا تجعلْ يدَكَ مغلُولةً إلى عُنقك ولا تبْسُطها كلَّ البسطِ فتقْعُدَ ملُوماً محْسوراً) (٢) ثم يوضح أساس هذا الامر قائلاً : (انَّ ربَّكَ يبسُطُ الرِّزْقَ لِمنْ يشاءُ ويقْدرُ إنَّهُ كان بعبادِه خبيراً بصيراً) (٣) .

---

(١) الفرقان : ٦٣

(٢) الاسراء : ٣٠

(٣) الاسراء : ٣٠

أي فالقرآن يقوّم المعايير الاخلاقية تقويماً دينياً ، ويجعل وجه ضرورة الالتزام بها الإيمانَ بالله عز وجل بكل ما يستلزمه من توابع ومتممات ، بل إنه ليهدد أولئك الذين يفضلون العتو والفساد في الارض بأخلاقهم السيئة ، بأن افئدتهم وعقولهم لن تتفتح لفهم الحقائق وأنها ستظل منصرفة عن أن تعي شيئاً من دلائل الايمان بالله ، فهو يقول مثلًا (سأصرِفُ عنْ آياتي الذِينَ يتكبَّرُون في الارضِ بغيرِ الحقِّ ، وإنْ يرَوْا كلَّ ايةٍ لا يُؤمِنُوا بها ..) [1] .

◆ ◆ ◆

فهذه جملة المواضيع التي يتناولها القرآن بالبحث وتلك هي طريقة عرضه لها ذكرناها بسرعة واختصار ، وهي كما قلت لك فروع عن المقصد الاول الذي خاطب القرآن من أجله البشر ، ألا وهو أن يدخل الناس في العبودية لله بالإيمان والطاعة طوعاً ، كما أدخلهم فيها بالفطرة والطبع كرها .

★ ★ ★

(١) الاعراف : ١٤٦

التصوير في القرآن

مظهره ووسائله

يقول علماء العربية والبيان : الكلام ينقسم إلى خبر وإنشاء .

والخبر هو — كما تعلم — الحديث عن معنى قد وقع ، على سبيل الإطلاع عليه لمن كان جاهلًا ، أو التذكير به لمن كان ناسياً ، والإنشاء هو تحصيل معنى عن طريق استفهام أو طلب .

فشأن الكلام — على كل حال — مرتبط بالمعنى ، إخباراً به أو استفهاماً عنه أو طلباً له ، وليس له من شأن بما وراء ذلك .

وما هو المعنى ؟ ... إنه عبارة عن كل ما يدركه العقل ، فكل ما علمه العقل فهو معنى .

ومن هنا ، كانت صلة الكلام ، بالعقل دائماً ؛ والمتكلم إنما يخاطب في الناس عقولهم ؛ فاذا أدرك العقل واستوعب ، حمل إلى مكامن الإحساس والوجدان من ذلك المعنى ما يلائمه من التأثيرات المختلفة . فتفاعل الاحساس بها وتأثر .

غير أن لكلام القرآن طريقة أخرى في الخطاب .

إنه لا يخاطب العقل وحده ، على نحو ما نعلم من طبيعة سائر أنواع الكلام ولكنه يخاطب كلًا من العقل والخيال والشعور معاً ؛ أو قل إنه يحمل إلى العقل

معنى يخاطبه به وينهيه إليه ، وينفث في المشاعر والخيال إحساساً بصورة ذلك المعنى وينبهها إلى ما فيه من حركة وحياة .

وكلام القرآن ، لا يعثر على هذا السبيل في الخطاب اتفاقاً ؛ أو بأن يتهيأ له سبيل إلى تشبيه أو استعارة أو مجاز ، حتى إذا تجاوز ذلك عاد إلى النسق المألوف والكلام العادي . بل هو في القرآن نسق مطرد ، وطريقة متبعة ، وسبيل عرفت به وعرف بها ؛ سواء كان يأمر وينهى ، أو يخبر ويقص ، أو يعلّم ويشرّع ، أو يتحدث عن غيب أو يحذر من عذاب .

وسرّ العجب والاعجاز في ذلك ، كلٌ من حقيقتين اثنتين :

الأولى : أن المعاني ، في حقيقتها ، ليست الا مجردات اعتبارية ، يضمها ويدركها العقل وحده . فتحوّلها وتشكلها في صورة مما تألفه العين ويدركه الشعور والخيال ، مما لا يقدر عليه الانسان الا في حدود ضيقة وبالنسبة لمعان معينة .

الثانية : أن الألفاظ ، ليست الا حروفاً صوتية جامدة ، فتحوّلها إلى ريشة تنبع في رأسها الأصباغ والألوان المختلفة المطلوبة لتحيل المعنى إلى صورة في لوحة يتأملها الخيال بل وتكاد أن تدركها العين قبل أن يستوعبها العقل — أمر لا يقوى عليه شيء مما نسميه المجاز أو البلاغة والبيان .

ومع ذلك فإن لكل من المعنى واللفظ في القرآن شأناً آخر !..

فليست المعاني في القرآن مجردات اعتبارية لا يدركها إلا العقل ، وإنما هي صور حية تمرّ بخيال القارىء ، ويلمسها إحساسه ، وتكاد أن تراها عينه . وليست الألفاظ في القرآن تلك الحروف التي لا تدل إلاّ على المعنى ، بل هي ينبوع للصور والأحاسيس والألوان .

وآية هذا الذي نقول — قبل أن نعرض للدليل التطبيقي — أن تتذكر انطباعاتك النفسية والشعورية تجاه القرآن عندما كنت تتلوه أو تنصت إليه في زمان طفولتك (إن كنت ممن أتيح لهم أن يمارسوا تلاوة القرآن في عهد الطفولة) ؛ فستتذكر أنه قد كانت لخيالك جولة كبرى ونشاط غريب في آفاق

واسعة بعيدة أثناء تلاوته أو الإنصات إليه ؛ وستردّك ذاكرتك الى صور وأشكال وأخيلة غريبة منطبعة في خلدك ، كلما قرأت شيئاً من آياته .

وإن في خزانة فكري اليوم لنماذج كثيرة من هذه الأخيلة والصور التي انطبعت فيها مما كانت ترسمه الآيات في ذهني أيام كنت منكباً على دراسة القرآن وتعلمه ، وأنا طفل ، والكثير منها غريب ومضحك !..

ولقد كنت أحسب فيما مضى أن مردّ ذلك الى حالة خاصة بي هي الجهل أو نحوه ، ولكن لدى دراسة معاني القرآن وآدابه ، علمت أن ذلك هو شأن القرآن وعمله في الأخيلة كلها ، ورأيت الكاتب والإنسان الكبير : سيد قطب رحمه الله ، يذكر هذا المعنى ويصف الصورة التي كانت ترسمها هذه الآية في خياله إذ هو طفل : (ومن النّاسِ من يعبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنْ أصابهُ خيرٌ اطْمأنَّ به ، وإن أصابته فِتنةٌ انقلبَ على وجههِ ، خسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسرانُ المبين)[1] .

وأهمية الطفولة بالذات ، لكشف هذا الجانب من أسلوب القرآن ومنهجه ، هي أن الطفل بمقدار ما يكون استعداده لتلقي المعاني المجردة ضعيفاً ، يكون استعداده لتصور الرسوم والتقاط الأشكال قوياً ؛ فللطفل خيال مشبوب ، ومرآة صافية سرعان ما يلتقط بها صور الأشياء . ومن هنا كانت لهذه الظاهرة قيمة كبرى في كشف معنى « التصوير القرآني » والبرهنة عليه .

فلا يهمنا إذاً ، أن تثبت هذه الصور في ذهن الطفل مشوهة أو ناقصة أو غير ذات دلالة ، لأن ذلك هو شأن تخيل الصورة دون إدراك المعنى ، ولكن المهم أنه يجد في هذا الكتاب ما يخاطب خياله ، وإن لم يجد فيه إلا القليل مما يخاطب عقله ، على حين أن ذلك لا يتفق له بالنسبة للكتب الأخرى اللهم إلا تلك التي صيغت خصيصاً من أجله .

. . .

(١) الحج : ١١ وانظر مقدمة كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، وهو مرجع ذو أهمية بالغة في هذا الباب .

ثم إن التصوير القرآني يتدرج في مظاهر متعددة بوسائل مختلفة ، وكثيراً ما تجد هذه المظاهر كلها مجتمعة في نص واحد ، وقد تجد بعضها متفرقاً في نصوص متعددة .

فأول مظهر للتصوير ، هو اخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد الى الصورة المحسوسة والمتخيلة ، المظهر الثاني : تحويل الصورة من شكل صامت الى منظر متحرك حيّ . المظهر الثالث : تضخيم وتجسيم المنظر حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك .

والوسيلة القريبة الى تحقيق هذه المظاهر ، لا تعدو أن تكون استعارة ، أو مجازاً مرسلًا ، أو تشبيهاً وتمثيلًا . وهذه الوسائل التي وضع عليها علم البيان إنما هي قواعد استخلصت واستنبطت من التصوير الذي انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم ؛ فالقرآن هو الأساس لهذه القواعد وليس العكس كما قد يتوهم .

أما الوسيلة البعيدة ، فلسنا نملك منها إلا الوصف التقريبي ؛ إذ هي سر إعجازه وهي الغاية التي تقف دونها طاقة أئمة البيان . وكل ما نستطيع أن نقول عنها أنها الكيفية اللطيفة الدقيقة التي تتألف الكلمات على وفقها ، وتتناسق الحروف والحركات وما يتبعها من مدود وشدات على أساسها ، فتخرج الكلمة والجملة في قالب من اللفظ وطريقة الأداء يبث في الاحساس والخيال صورة مجسمة حية للمعنى !..

ولو ذهبت تفكر ، لتقف على القاعدة التي بها يتم تصوير اللفظ للمعنى ، كي تتخذ منها دستوراً لصياغة الكلام ، على نحو ما فعل العلماء في أستنباط قواعد الاستعارة والمجاز وغيرهما — لما انتهيت إلى شيء !.. كل ما يمكن للفكر أن يعلمه ، وكل ما يمكن للحس أن يشعر به ، هو أن هذه الألفاظ القرآنية تلصق صورة المعنى وشكله بإحساسك ، وأن لتناسق حروفها المعنية وتوالي نوع حركاتها مدخلًا وأثراً كبيراً في هذا التصوير .

ثم إنك قد تجد الجملة كلها تحمل الى خيالك صورة المعنى وتبث فيه الحركة والحياة ، وقد تجد كلمة واحدة تؤدي هذه المهمة كلها .

وما أظنك إلا مستعجلاً في الانتقال الى عرض نماذج وأمثلة لكل هذا الذي نقول ، فلنكتف بما ذكرناه من التقرير والتعريف النظري ، ولنبدأ بذكر بعض الأمثلة . ونقول ، قبل عرض الأمثلة ، كما قال المرحوم سيد قطب : إن الأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله ، حيثما تعرّض لغرض من الأغراض ، حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد أو حالة نفسية ، أو صفة معنوية ، أو نموذج انساني ، أو حادثة واقعة ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد يوم القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب[1].

• • •

وإليك الآن هذه النماذج :

١ً – أخبر الله رسوله أن لا يضيق صدره بكفر الكافرين ، وإلاّ فليجهد جهده وليعمل كل ما بوسعه في تقديم آية لهم ، إن كان قادراً ، يبرهن بها على صدقه ويدخل بها الإيمان في قلوبهم . فالتعبير عن هذا المعنى بمثل هذه الألفاظ أو نحوها مما هو مألوف ومقدور عليه ، وهو معنى يخاطب به العقل والفكر مباشرة ، ولكن انظر إلى التعبير القرآني :

(وإنْ كانَ كبُر عليك إعراضُهم ، فإنِ استَطعْتَ أن تبتغيَ نفقاً في الأرضِ أو سُلَّماً في السماء فتَأتيهمُ بآية ، ولو شاء اللهُ لجَمعَهُم على الهدى ، فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهِلين)[2] .

فقد صور أولاً التألم من إعراضهم ، في صورة شيء قد كبر وضخم حجمه ينوء الرسول ﷺ تحت ثقله ويضيق ذرعاً به . ثم صور الجهد الذي لن يأتي منه بطائل إن هو أجهد نفسه به ،بصورة من يريد أن يتخلص من ذلك الثقل العالق به ، فهو ينبعث ، في قلق وبحث دائب ، نحو كل الجهات . وخلف كل حجاب وستر ليعثر على ماقد ينشط به من هذا العقال المتشبث به . فأنت ترى الآية قد

---

(١) التصوير الفني : ٣٥
(٢) الانعام : ٣٥

أخرجت هذا المعنى الفكري في مظهر شيء محسوس ، ثم بثت فيه الحركة والحياة كما قد رأيت ، ثم جسمت الفكرة نفسها في هذه الصورة الحية المتحركة ؛ وخاطبت بذلك كله الخيال قبل أن تخاطب مجرد الفكر والذهن .

٢ ـ أمر الله رسوله ﷺ إن هو التقى بجموع الكافرين الذين أصروا على عنادهم ، أن يشتد في قتالهم حتى تحيق بهم الهزيمة ويدخل في قلوبهم الرعب . فانظر إلى الأداة التي استعملها في التعبير عن هذا المعنى : (فإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ ، فشَرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهُم ، لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون) [١] فقد أخرج معنى التلاقي الذي يكون بين المسلمين وأعدائهم ، في صورة من ظل يتربص بشيء حتى ظفر به ووقع عليه . وعبر عن ذلك بقوله : « تثقفنَّهم » بجموع ماتحمله هذه الكلمة من الدلالة ، ومن الصياغة اللفظية ، ومن تناسق السكْنات والحركات والتشديد البارز بينها . ثم أخرج معنى : إلحاق الهزيمة ، في صورة فريدة عجيبة ، هي صورة جند أقوياء أشداء انقضوا في هجوم صاعق على طلائع أعدائهم أو الصفوف الأولى منهم ؛ فأخذ الرعب والفزع منهم كل مأخذ ، حتى سرى ذلك منهم إلى من خلفهم من بقية الجموع فتبعثروا في كل جهة قبل أن يصل إليهم السوء ويلامسهم .

لاريب أنك إنما تتسمع إلى هذا الوصف بخيالك وإحساسك ، ولا ريب أنك تتصوره الآن منظراً حياً في فلاة واسعة ، أو على مسرح يعج بالحركة الصاخبة . وقد استنفد بيان هذه الصورة بضعة أسطر كما قد رأيت . فتأمل كيف صاغها بيان التنزيل في أقل من سطر واحد ! ...

٣ ـ وصف الله المنافقين بالجبن وبين أن مايتظاهرون به من الشجاعة كذب ، وأن الرعب سرعان مايستولي على قلوبهم فينهزمون ، لايلوون على شيء . فانظر كيف عبر عن هذا المعنى : (لوْ يَجِدُونَ مَلْجأً أو مَغَاراتٍ أو مُدَّخلًا ، لَوَلَّوْا إليْه وهم يجْمحُون) [٢] .

---

(١) الانفال : ٥٧

(٢) التوبة : ٥٧

فتأمّل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة ، وأخرج هذا المعنى الفكري في صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما سيطر عليها من الرعب ، فهي تتقذف هنا وهناك بحثاً عن المأمن والمهرب في حركات عجيبة غريبة . وقد يحسب صاحب النظرة العجلى أن هذه الكلمات الثلاث : ملجأ ، مغارات ، مدّخل ، مترادفة المعنى . ولكنها في الحقيقة ليست كذلك ، بل كل منها تصور في الذهن شكلاً معيناً للملاذ الذي يبحث عنه المنهزم والخائف ، بدءاً من الشكل الطبيعي المألوف وهو الملجأ العادي من دار أو غرفة أو جماعة من الناس ، إلى الشكل الذي لا يألفه ويرتضيه إلا من اشتد خوفه وهو المغارة في باطن الأرض أو بطن جبل ، إلى الشكل الذي هو أبعد في القبول والإلف من كليهما وهو : المدّخل ، أي المكان الضيق الذي لايكاد يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد ولا يكاد يستطيع أن يستقرّ فيه إلا تضاؤلاً والتصاقاً . وانظر كيف تؤدي كلمة « مدّخلًا » هذه الصورة وتجسمها في الحس بوزنها وجرسها وشدة الدال فيها . ولو ذهبت تحذف هذه الشدّة وتقول « مدْخلًا » لضاعت الصورة كلها وتبدل المعنى واختلف تناسق الوزن . ثم تأمل فيما تصوره في خيالك كلمة : لولّوا إليه . ثم فيما تتركه كلمة : يجمحون من الصورة المضحكة الساخرة . تأمل في صورة هتين الكلتين ، فمهما شرحت وفصلت ، فلن أبين أكثر مما يبينه خيالك وشعورك وأنت تتأمل جرسهما ووقعهما . .

ثم ارجع النظر مرة أخرى إلى الجملة كلها لتبصر الريشة الإلهية العجيبة وهي تصور الهزيمة والجبن والقلق النفسي هذا التصوير المتحرك الساخر ، وكيف تتجسد الصورة في خيالك حتى لتكاد العين الباصرة تراها واليد اللامسة تتقرّاها .

٤ — أخبر الله رسوله أن مسؤولية كل عمل متلبسة بصاحبه خيراً كان أم شراً ؛ فلا يُسأل إنسان عما لم يعمل ، ولا ينبعث الشر من مصدر طيرة أو شؤم ، وإنما ينبعث من فاعله الذي فعله . فتأمل كيف عبر عن هذا المعنى : (وكُلَّ إنْسانٍ ألزَمْناهُ طائِرَه في عُنُقِه ، ونُخْرِجُ له يومَ القيامة كتابا يَّلقاه

منشوراً) [١] إذا تأملت في هذا التعبير ، بعد أن علمت أن العرب في الجاهلية كانوا يرون في مظاهر بعض الأنواء والحيوانات والطيور سبباً وباعثاً للمصائب والشرور ، تخيلت صورة إنسان قد تجمعت كل أسباب الشؤوم والطيرة المختلفة فالتصقت به وتعلقت بعنقه ، ليدل بذلك على أن الذي يقوده إلى الشر إنما هو ذاته نفسها ، وإذا كان لابدّ أن هناك مصدر طيرة وشؤم ، فإنه على كل حال مصدر متعلق به لاينفك عنه .

وإنما أخرج المعنى بهذا المظهر الحسي الملموس ، ليكون أوقع في النفس وأدل على المقصود وليحمل التعبير معنى السخرية بأوهام الجاهلية وسخافاتها .

٥ ـ أخبر الله تعالى أنه جعل من الليل والنهار دليلين على وجود الخالق العظيم ووحدانيته ، وأنه جعل الليل مظلماً لتهدأ فيه الرِّجْلُ ويستريح الانسان، وجعل النهار مضيئاً ليتهيأ له فيه السعي والعمل ، ولكنه لم يعبر عن هذا المعنى بهذه الطريقة وانما قال (وجعلْنا الليْلَ والنَّهارَ آيتَيْن فمَحَوْنا آيةَ اللَّيلِ وجَعلْنا آيةَ النّهار مُبْصِرةً لِتَبْتغُوا فضْلًا مِن ربّكم ولتعْلمُوا عدد السنينَ والحسابَ) [٢] واذا قرأت هذه الآية ، أسرع خيالك فتصور حيوانين أو شبحين عظيمين أحدهما يظل مطبقاً عينيه لايفتحها على نور ، والآخر يظل فاتحاً عينيه لايطبقها على ظلام . فأما الأول فيتجسد فيه ظلام الليل وانطواؤه وهدوؤه ، والآخر يتجسّد فيه ضياء النهار وحركته والتماعه .

٦ ـ أخبر الله تعالى عن كراهية أهل الجاهلية للأنثى اذ تولد في دار أحدهم وبين أنّ الكرب يأخذ من أحدهم كل مأخذ اذا ما أخبر بأنثى قد ولدت له ، وأنه يراود فكره أن يدفنها في التراب حية . ولكنه عبر عن هذا الشعور النفسي باسلوب تصويري تسجد له البلاغة في أسمى مظاهرها وألوانها . يقول الله عز وجل : (واذا

(١) الاسراء : ٢٣

(٢) الاسراء : ١٢

بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهُهُ مسودّاً وهو كظيم ، يتوارَى مِن القَوْمِ من سُوءِ مابُشّر بــه ، أيُمْسِكُه على هُونٍ أم يَدُسُّهُ في التّراب الا سَاء مايحكُمون) [١] .

فقد صوّر تهكّم مَن حوله به بكلمة « بُشّر » ، ثم صور شدة الكرب الذي انتابه بقوله « ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم » ، ثم صور وقع النبأ الذي حمله إليه القوم مبشرين – أي متهكمين ومشفقين – بقوله « يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به » ، ثم صور الحيرة التي تراوده وتطوف بخاطره بقوله « أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » . وردّد النظر والفكر في هذه الكلمة المعبرة الرائعة : يدسه ، لتبصر كيف أنها تشف عن الغيظ والعصبية والشدة التي تلبست بها حالة الرجل وأعضاؤه ، وكيف تصور لك مقاومة الدفع المغتاظ للرحمة في مظهرها الضعيف المتألم المسالم !..

٧ – أخبر الله الناس أنه ما من خبر من الغيبيات التي أخبر الله بها إلا وسيأتي يوم يتضح فيه صدقه ووقوعه كما أُخبروا به . فانظر الى التعبير القرآني عن ذلك : (لكل نبأ مستقرٌ وسوف تعلمون[٢]) . وأنا فما أذكر أنني قرأت هذه الآية مرة إلا وتخيلت أن في جو السماء شبحاً يسبح في أنحائه لا يدري الناس ماهو ، والكل رافع برأسه محدق بنظره يتأمله وكل منهم يتوهمه حسبما يخيل إليه ، والجميع ينتظرون ساعة هبوطه واستقراره في الأرض ليعلموا حقيقته وليتخلصوا من أوهامهم وتخيلاتهم فيه . إن الله عزوجل يصور الإخبار عن قيام الساعة وما يلوذ بها من الغيبيات بصورة هذا الشيء الذي طاف حوله لغو كثير من القول ، وأبى كثير من الناس أن يؤمنوا بحقيقته تبعاً لما جاء فيه من كلام رب العالمين ، ليقول لهم إن لهذا الشيء مكاناً وزماناً يستقر فيه عياناً أمام أبصاركم ، ولسوف تعلمون حينئذ دون أن يفيدكم العلم .

---

(١) النحل : ٥٨

(٢) الانعام : ٦٧

وتُصوِّر مثل هذا التصوير كلمة « مرساها » في قوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيّان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو ...)[1] فالساعة في تعبير الآية كالسفينة محجوبة عن الاعيان في غمار بحر عظيم متلاطم ، والمنكرون يستعجلون في طلب ارسائها عند الشاطيء ليشاهدوا حقيقتها بأعينهم .

٨ — بين الله عزوجل أن الأموات سوف يبعثون من قبورهم وتعود اليهم الحياة ليواجهوا جزاءهم ، وأن ذلك يسير على الله عزوجل ، فجاء التعبير القرآني عن ذلك بهذا الشكل : (يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً ، ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ)[2] . . ولا ريب أنك إذا قرأت هذه الآية تصورت أمامك أرضاً واسعة المدى تتشقق عن أشخاص هنا وهناك يخرجون منها ليسرعوا الى حيث لايدرون . أجل ، فالآية تترك في ذهن القارىء هذه الصورة الحية المتحركة ، ليتصور الأمر البعيد واقعاً يشاهده أمام عينيه في بساطة ويسر .

٩ — قرر الله عزوجل أن من سنته في الكون أن يعرض الأمم للمصائب والمحن ، فإن لم يتنبهوا بذلك للخضوع والتوبة والتضرع إلى الله ، غمسهم الله تعالى في أصناف الملذات حتى إذا فرحوا بذلك واستغرقوا في لهوهم وانشغالهم عن الله أهلكهم الله على حين غرة ، فقال في ذلك (فلما نَسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذْناهم بغتةً ، فإذا هُمْ مُبْلِسون)[3] .

فانظر الى قوله « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » ، لكأن أسباب النعيم والترف واللذائذ ممثلة في مخازن من وراء أبواب ، فما هو إلا أن فتحت هذه الأبواب حتى اندلقت عليهم من كل جانب ومن كل نوع . . ثم تأمل في قوله « أخذناهم » وأي تصوير لضآلة شأنهم ونسيانهم أنفسهم أبلغ وأروع من هذه الكلمة : أخذناهم ،

---

(١) الاعراف : ١٨٧
(٢) ق : ٤٤
(٣) الانعام : ٤٤

ثم انظر كيف يتقارب الزمن الطويل متحركاً متنقلاً من مشهد الى اخر خلال هذه الآية وذلك بوحي وتصوير تتابع هذه الأحرف والكلمات « فلما .. حتى إذا بغتة .. فإذا هم . » مشهد من وراء آخر ومرحلة تلي ما قبلها ، قد يكون الفترة بينهما طويلة ، ولكن التعبير القرآني يقارب بين هذه المراحل في بضع كلمات ، ويصورها في ذهن القارىء وكأنها تاريخ سريع يمر من أمامه .

١٠ ـ ومن التصوير الرائع البديع الذي تنفرد به كلمة واحدة قوله تعالى (مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض)[١] . والمقصود الأصلي هو استنكار تكاسل بعض المسلمين أمام داعي الجهاد في سبيل الله . ولكن انظر إلى الأداة التعبيرية عن ذلك « اثّاقلتم إلى الأرض » : لقد أخرج معنى الكسل الذي هو من مدركات العقل في صورة جرم ثقيل كلما حاولت أن ترتفع به الى الأعلى انحط بك الى الأرض ؛ وهو من الثقل بحيث لا ينفك عالقاً وملتصقاً بكل ما هو دونٌ ، من أرض وغيرها . وكما يقول سيد قطب : لو أنك حذفت الشدة من الكلمة فقلت « تثاقلتم » لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها اللفظ واستقل برسمها[٢].

١١ ـ وأنبأنا الله تعالى عن دخول هذا الكون كله تحت سلطانه وأنه ليس إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لملكه وعظم قدرته ، ولكنه وضع هذا المعنى في صورة مخيلة محسوسة يتلىء بها الخيال والحس ، ويذوب فيها الشعور . يقول الله عزوجل (وما قدَرُوا اللهَ حقَّ قدْرِهِ ، والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامةِ والسّمٰوات مطويّاتٌ بيمينه ..)[٣].

فأنت لست من هذه الآية أمام كلمات الملك والسلطان والعظمة ونحوها مما هو من مفهومات الفكر المتأمل .. ولكنك أمام الهول العجيب الذي يذهل له

---

(١) التوبة : ٤٨

(٢) انظر التصوير الفني وما ذكره سيد قطب في تحليل هذه الآية : ص ٧٨

(٣) الزمر : ٦٧

الحس وتخشع له المشاعر : الأرض جميعاً شيء صغير في قبضة الله ، والسموات كلها بأجرامها العظيمة قد طويت كما يطوى البساط أو الصحيفة ، فهي ليست إلا جرماً صغيراً لاتكاد تمتليء به العين مخبوءة في يمين الله عزوجل . وليس هناك من يمين ، ولا قبضة ، ولا طي بالمعنى الحسي المعرف ، ولكنه التخييل والتجسيم للمعنى الذهني ، كي يفيض الشعور والخيال إحساساً به .

١٢ — وربما اقتضى المشهد في بعض الأحيان أن تمثل الصورة أمام الخيال شاخصة صامتة لاحراك فيها ، وذلك كما في قوله تعالى (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) (١) والمعنى المقصود إلفات النظر إلى الأمم التي جاءت ومضت وتركت آثارها من ورائها . ولكنه أقام من هذه اللوحة التصويرية في الآية تعبيراًمجسماً عنه .

وهي لوحة صامتة شاخصة ، تبصر فيهابيوتاً خالية قد سقط بعضها على بعض .. وتبصر في جانب منها بئراً متروكة معطلة ، وقصراً لاتزال فيه جدران باقية قائمة ..

ولا والله ، ماتلوت هذه الآية مرة إلا ورأيتني أمام لوحة فنية رائعة صورتها كلمات هذه الآية في رسم معبر نادر ، يجلله صمت رهيب ، تلوح عليه آثار القرون والسنين !!..

• • •

وبعد ، فهذه أمثلة قليلة ، قس عليها كلام القرآن كله .

ولن نستطيع أن نفيض في بيان الأمثلة والنماذج ؛ فقد التزمنا في هذا الكتاب القصدَ في البحث ، كي يتسع المجال لعرض المسائل والأبحاث الأخرى ، ولوأردنا أن نستقصي الكلام في تصوير القرآن وأشكاله ومظاهره ، لجف المداد ونفد الورق دون أن نوفيّ البحث حقه : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) .

---

(١) الحج : ٤٥

فإن كنت قد ألقيت السمع إلى ماقلنا وأنت شهيد بعقلك الصافي المتحرر ، وقفت على الحق في كل الذي ذكرنا ، وأدركت أن نظيره مثلُه مما لم نقل ، وأيقنت أن هذه المعجزة التي تصوَّرت كلاماً يتلى ليست مما يصوغه بشر ، ولاينبغي أن تكون مادّةَ كِذب كذَب بها محمد ﷺ على الله ، بعد أن عاش أربعين عاماً يتوقى الكذب فيها على الناس .

أمّا إن كنتَ تتسمع إلى ماأقول بأذن يجثم من ورائها عنادٌ متحكم، أو غيظ متغلب ، أو غرض مستعبِد ، أو هوى لاقبل لك به ، فليس للمنطق أي حيلة مع مثل هذه الأذن وإن بدت أنها صاغية . ولقد جسد الله عز وجل هذا العناد والغيظ والغرض والهوى ، في صورة محسوسة منظورة ، إذ قال (ولو فتَحْنا عليهِمْ باباً مِّنَ السَّماء فظلُّوا فيه يعْرُجُون ، لقالُوا إنما سُكِّرَتْ أبْصارُنا بل نحنُ قومٌ مسْحُورُون) [1] .

* * *

(١) الحجر : ١٤ و ١٥ هذا وإن شئتأن تقف على مزيد من الأمثلة للتصوير الفني في القرآن فارجع إلى كتاب التصوير الفني لسيد قطب ، ففيه فيض كبير من الامثلة ، هذا وقد حرصت أن تكون غالب الأمثلة التي أتيت بها مما لم يذكره سيد قطب ، وذلك حتى لا يتوهم متوهم أن مدار التصوير في القرآن ، على طائفة من الآيات المعينة لا مزيد عليها . بل هي كما قلنا الطريقة المتبعة في التعبير دائماً .

القصة في القرآن

اغراضها، خصائصها

موضوع القصة في القرآن ، يشترك مع موضوعات القرآن الأخرى ، في القصد الى تحقيق الغرض الكلي الذي تنزل القرآن من أجله . فالقصة في القرآن إذاً غرض أساسي ، هو تحقيق المعنى الكلي الذي جاء به القرآن إلى الناس .

ولكن لها ، الى جانب ذلك ، أغراضاً فرعية ، لاتخرج في هدفها الأول عن ذلك الغرض الأساسي .

ونحن نلخص هذه الأغراض في ثلاثة أمور :

الأمر الأول : إثبات الوحي الإلهي والرسالة النبوية لرسول الله ﷺ . فقد كان عليه الصلاة والسلام ، كما علمت ، أمياً . وقد علم التاريخ ورجاله أنه لم يقصد الى أحد من علماء اليهودية أو النصرانية يسمع منهم أخبار عيسى وموسى وغيرهما من الأنبياء السابقين عليهم صلوات الله وسلامه . ولو فعل ذلك ، لما كتمه عن الناس ولاموّه عليهم ، كيف وقد عرف بين قومه طوال أربعين سنة من العمر بالأمانة والصدق والوفاء مع الناس .

فلما جاءه القرآن بقصص الأنبياء السابقين والأمم الغابرة ، على نحو يتفق جملة وتفصيلًا مع ماأثبته التوراة والإنجيل من عرض تلك الأخبار والقصص ، كان ذلك دليلًا لايقبل الشك بأن هذا القرآن ما كان حديثاً يُفترى ، ولكنه وحي من الله عز وجل [1] .

(١) أنظر مبحث تاريخ الواحدانية في كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي : ص ١٩٤ ومابعد

ولتنبيه الناس الى هذه الدلالة ، يعقّب الله عز وجل على كل قصة ينتهي من عرضها بما يثير الانتباه الى أن هذه المعلومات لايمكن أن تكون قد أتت الى محمد عليه الصلاة والسلام إلا من نافذة الوحي المجرد . فهو يقول بعد الانتهاء من ذكر قصة مريم وولادتها وكفالة زكريا لها : (ذلك مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليْكَ وما كُنْتَ لديهم إذ يُلْقُونَ أقلامَهم أيُّهم يكفُلُ مريمَ ، وما كُنْتَ لديْهم إذ يختصِمُون) [١] ويقول بعد عرض قصة يوسف بتفصيلها الواسع المعروف (ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليْك ، وما كُنْتَ لديْهم اذْ أجمعُوا أمْرهُمْ وهُمْ يمكرُونَ) [٢] ويقول . بعد ذكر قصة موسى وفرعون وما يتعلق بها من أخبار (كذلك نَقُصُّ عليكَ مِن أنباءِ ماقدْ سبَقَ وقد أتيْناكَ مِن لدُنّا ذِكْراً) [٣] . ويسرد علينا قصة موسى نفسها بتفصيل أوسع ، وأسلوب مختلف في سورة القصص ، حتى اذا انتهى من بيانها وتصويرها ، عاد يخاطب محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الآيات :

(وما كُنتَ بجانِبِ الغرْبيِّ اذْ قضَيْنا الى مُوسى الأمْرَ ، وما كُنْتَ مِنَ الشَّاهدين . ولكنّا أنْشأنا قُروناً فتطاوَلَ عليهِمُ العُمُرُ ، وما كُنْتَ ثاوياً في أهْلِ مدْيَنَ تتْلُو عليهِمْ آياتِنا ولكنّا كُنّا مُرْسلِين . وما كُنْتَ بجانِبِ الطُورِ اذْ نادينْا ، ولكن رَحْمةً مِن رَّبِك لتُنْذِرَ قوْماً مّا أتاهُمْ مِنْ نذيرٍ مِّنْ قبْلِكَ لعلَّهمُ يتذكرون) [٤] .

الأمر الثاني : العبرة والموعظة ، وتأتي في أحد مظهرين :

الأول : بيان مدى قدرة الله تعالى وبالغ جبروته وسطوته ، والكشف عما

---

(١) آل عمران :

(٢) يوسف : ١٠٢

(٣) طه : ٩٩

(٤) القصص : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦

لحاق بالأمم الماضية من فنون العذاب والهلاك لتجبرها وعنادها واستكبارها على الحق للتنبيه الى أنّ مثل ذلك يوشك أن يقع بمن أبى الا أن يمشي على دربهم متبعاً خطاهم.

ومن الأمثلة على هذه تلك القصص المتتالية السريعة التي تقرأها في سورة : القمر . فقد سيقت على هذا المساق ، وهو الكشف عن جبروت الله وبالغ قدرته ، وأنّ أخذه للظالمين أليم شديد . ولذلك تجده عندما ينتهي من عرضها : الواحدة إثر الأخرى ، وبيان ماحاق بكل أمة من الأمم الباغية من أنواع الدمار المختلفة ، يتجه بالخطاب الى الناس قائلًا : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ؟ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (١).

ومن ذلك ماتقرأه من قصص الأمم الغابرة في سورة هود ، فقد أريد منها التنبيه الى ضرورة عدم الاغترار بشيء مما يتخيله الانسان في نفسه قوة أو علماً أو سلطاناً ، والى أن الله تعالى إنما يمهل .. فإذا شاء أخذ .. واذا أخذ لم يفلت . ولذلك ختم البيان القرآني تلك القصص بهذه الآيات :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (٢) .

المظهر الثاني : التنبيه الى أن الدين السماوي الذي بعث به الأنبياء واحد ، وأن رسالات الرسل والأنبياء واحدة لاتعارض فيها ولا اختلاف .

من أمثلة ذلك ، ماتقرأه في سورة مريم من قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وكيفية ولادته ، فهو يقول في آخرها (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ اذا قضى أمراً فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٣) .

---

(١) القمر : ٤٣ و ٤٤ .

(٢) هود : ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢

(٣) مريم : ٣٤ و ٣٥

ومن ذلك ما تقرأه في سورة الأعراف ، من قصة عاد وثمود وأهل مدين ، فهو يبدأ قصة كل امة من هذه الأمم ببيان أنه سبحانه وتعالى أرسل إليها رسولاً يخبرها بوجود الله تعالى وأنه واحد لا شريك له .

فهو يقول : (وإلى عادٍ أخاهم هُوداً قال يا قومِ اعبُدوا اللهَ مالكم مِّن إلهٍ غيرُه أفلا تتّقون)[1] .

ثم يقول : (وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قومِ اعبُدوا اللهَ مالكم مِّن إلهٍ غيرُه ..)

ثم يقول : (وإلى مدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً قال يا قومِ اعبُدوا اللهَ مالكم مِّن إلهٍ غيرُه ..)

وإنما ذلك ، ليتبين أن بعثة هؤلاء الرسل إنما كانت لتأكيد حقيقة واحدة لا خلاف حولها ؛ بل انه لا يجوز اختلافهم حولها ، ما دام جميعهم أنبياء ورسلًا صادقين .

الأمر الثالث : تثبيت فؤاد الرسول ﷺ في مجال الدعوة ، وحمله على الصبر على ما قد يراه من أذى قومه له ، وبيان أن الله عزوجل ينصر رسله مهما نزل بهم من العذاب وطاف حولهم من البلاء .

ولا شك أن في ذكر أخبار الأنبياء من قبله وما كابدوه من إيذاء قومهم ، ثم انتصار الله عزوجل لهم ، ما يدعوه إلى التحمل والصبر ويبث في قلبه روحاً من الطمأنينة والنشاط .

تقرأ من الأمثلة على ذلك قوله تعالى : (فاصبر كما صبر أُولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ..)[2].

---

(١) الاعراف : من ٦٥ الى ٩٣

(٢) الاحقاف : ٣٥

وقوله تعـــالى : (اصبر على ما يقولونَ واذكُـر عبدنا داودَ ذا الأيْدِ ، إنـّه أوّاب)[1].

وليس معنى هذا الذي ذكرناه من أغراض القصة القرآنية ، أن هذه الأغراض موزعة على النصوص القصصيـة في القرآن بحيث ينفرد كل نص منها بغرض ، بل الغالب هو اجتماع هذه الأغراض ، أو الحِكم ، التي ذكرناها معاً في مختلف النصوص القصصية في كتاب الله تعالى .

فهذا القدر الذي ذكرناه ، يكفي في بيان أهداف القصة في القرآن .

• • •

منهج القصة في القرآن :

للقصة في القرآن منهج فريد ، لا يشبه أي اسلوب من الأساليب المعهودة للقصة .

وهي تتبـع في ذلك الأغراض التي سيقت من أجلها ، مما عرضنا له آنفاً باختصار ، فقد تبين لك أن القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مقصوداً لذاته ، وإنما هي مسوقة لغرض ديني مهما تنوعت أقسامه وتفرعت أشكاله .

غير أنك قد علمت أن القرآن يتخذ من الجمال الفني أداة لتحقيق هذا الغرض ، وما الإعجاز في مجموع مظاهره وأنواعه إلا أداة أيضاً لتحقيق المقصد الديني . فإن المتأمل اذا أدرك اعجازه آمن بأنه من عند الله ، وإذا آمن بذلك استعصم وتمسك بما جاء فيه .

وهكذا ، فإن المنهج الذي تسير عليه القصـة في القرآن أثر من آثار الغرض الذي سيقت من أجله ؛ وهو منهج يقوم – في الوقت نفسه – على أروع مظاهر الجمال الفني والإشراق البياني .

---

(١) ص : ١٧

يتكون منهج القصة في القرآن من المظاهر التالية :

المظهر الأول : التكرار . فأنت تجد أن القصة الواحدة قد تكررت في القرآن مرات عديدة ، كقصة موسى وفرعون ، وكقصة نوح ، وقصة خلق آدم .

غير أن هذا ليس تعبيراً دقيقاً عن هذه الظاهرة . فالذي يحدث ، عند تناول القصة أكثر من مرة في القرآن ، ليس هو التكرار بمعناه المعروف . إنما الذي يحدث هو أن القرآن يتناول من القصة الواحدة في كل مرة جانباً معيناً فيها ، وهو الجانب الذي تستدعيه المناسبة . وقد يحدث أن يتكرر عرض القصة نفسها أو عرض الجانب الواحد منها ، بحسب الظاهر ؛ ولكن تلك القصة أو ذلك الجانب منها ينطوي على عبر وعظات متعددة ، فيقتضي الغرض الديني أن يعاد ذكرها عندما تأتي مناسبة كل عبرة من عبرها ، فتلبس القصة في كل مرة من الأسلوب والإخراج التصويري ما يناسب المعنى الذي سيقت بصدده ، حتى لكأنك منها أمام قصة جديدة لم تتكرر على مسامعك ولم تعرض أحداثها على خاطرك من قبل . وإذا أردت أن تقف على مثال لهذا فاقرأ سورة هود وأمعن فيما تجد فيها من قصص الأنبياء والأمم الغابرة . ثم اقرأ سورة القمر ، ففيها عود الى نفس تلك القصص ، ولكنك تلاحظ من اختلاف الأسلوب والعرض وجرس الألفاظ ما يخيل اليك أنك أمام قصص وأخبار لم تكن تعلم بها ، ثم انك تجد فيها من المعنى والعظات ما لم تكن قد تنبهت اليه في المرة الأولى .

المظهر الثاني : الاقتصار من حوادث القصة على ما يتعلق به الغرض . ومن أجل هذا فإنك قلما تجد القرآن يسرد حوادث القصة سرداً تاريخياً ، تبعاً لسلسلة الوقائع والأحداث ، لأن ذلك يبعد القصة عن مقصدها الذي أوضحناه .

ولنعرض أمثلة لذلك :

قص علينا القرآن في سورة (الكهف) قصة أصحاب الكهف ، فبدأها بهذه الآيات :

(نحن نقصُّ عليكَ نبأهُم بالحقِّ ، إنّهم فِتيةٌ آمنُوا بربّهم وزدناهُم هدى ، وربطْنا على قلوبِهم إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السّمواتِ والأرضِ لنْ نّدْعوَ من دُونِهِ إلهاً لقد قُلنا إذاً شططاً ، هؤلاء قومُنا اتّخذوا مِنْ دونِهِ آلهةً ، لولا يأتُونَ عليهم بسُلطانٍ بيِّنٍ فمنْ أظْلمُ ممّن افترى على اللهِ كذِبا ..)[1].

فأنت ترى أنه بدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله عزوجل ووحدانيته مخالفين ما عليه سائرهم من الشرك والكفر ، وأنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم ويخرجوا من بينهم .. ثم تمضي القصة على هذا المنوال .

فمن هم هؤلاء القوم ؟ وفي أي بلدة كانوا يسكنون ؟ وكم كان عدد هؤلاء الفتية ؟ وما هي أسماؤهم ؟

هذه أسئلة كان من مقتضى السرد التاريخي أن تجيب القصة عنها ، ولكنها لو أوضحت ذلك وسارت في تتمتها على هذه الطريقة لما وفت بالغرض الديني الذي تستهدفه ، ولانصرف فكر القارىء إلى تتبع أحداث تاريخية يريد أن يعرفها ، ولغفل بذلك عن العبرة والعظة التي سيقت القصة من أجلها .

وعندما يقص علينا القرآن قصة خلق آدم ، وسكناه في الجنة ثم نزوله الى الأرض ، لا يتحدث عن وصف نزوله الى الأرض وحياته فيها بأكثر من قوله (قال اهبِطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإمّا يأتينّكم مني هُدىً فمن اتّبع هدايَ فلا يَضِلُّ ولا يشقى)[2] .

ففي أي مكان من الأرض نزل ؟ وكيف كانت معيشته وسكناه إذ ذاك ؟ إن الإجابة على مثل هذه الاستيضاحات ، وإن كانت مما يتشوف إليه الفكر ؛ من شأنها أن تقصي القارىء عن الانتباه الى المقصود من سرد القصة ، فحسبه ، لكي

---

(١) الكهف : ١٣ و ١٤ و ١٥

(٢) طه : ١٢٣

لا يشت ذهنه وراء الأحداث التاريخية ، أن يعلم من القصة ما يحمله على الانصياع للمقصد الديني الذي تنطوي عليه .

وربما اقتضى الغرض في بعض الأحيان أن تسرد القصة من أولها الى آخرها ، وأن يسير البيان القرآني في عرضها باسلوب يتتبع سلسلة الوقائع والأحداث مع التعرض لبيان كثير من جزئيات القصة التي لا تكاد تنطوي في الظاهر على عبرة أو فائدة توجيهية . وذلك عندما يكون الغرض الرئيسي هو إثبات الوحي الإلهي وتأكيد نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو عندما يكون الغرض تصحيح قصة أو حادثة تاريخية وقع فيها خلط أو لغو .

فمن قبيل الأول ، قصة يوسف عليه السلام ، فقد عرضت عرضاً تفصيلياً تضمن بيان حياة يوسف وتاريخها منذ طفولته الى وفاته ، وإنك لتجد في عرضها كثيراً من الصور الجزئية يتناولها القرآن بالكشف عنها ، مما لا تكاد تجده في عرض القصص الأخرى . والمقصود من ذلك تنبيه الأذهان الى الوحي الذي يؤيّد به الرسول ﷺ ، فيطلعه على ما لم يكن يعرف من قبل .

ومن قبيل الثاني قصة مريم في سورة آل عمران ، وقصة ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام في سورة مريم . ففي كل من السورتين سرد تفصيلي للقصة وسير طبيعي مع مراحلها الواقعية ، وكشف لمختلف الجوانب المتعلقة بها ، إذ الغرض من عرض القصتين تصحيح ما ادعاه بعض أهل الكتاب من بنوة عيسى بن مريم لله عزوجل ، فاقتضى ذلك عرض حقيقة الواقعة عرضاً مفصلاً شافياً يزيل الغموض والاشكال ويكشف بطلان ما توهمه بعض الناس .

المظهر الثالث : إقحام النصائح والعظات في ثنايا القصة ، وهو مظهر عام يشمل شتى المواضيع القرآنية كما أوضحناه فيما مضى .

فالقرآن لا يدع القارىء يندمج مع موضوع من مواضيعه وينصرف اليه بكل تفكيره ، دون أن يفصل بين أجزائه بفواصل من العظات تنبهه الى المقصود من

كل هذه المباحث ، وتربط على قلبه برباط من الخشية والمراقبة الإلهٰية عند قراءتها والتأمل فيها .

فمن أجل ذلك لم تكن في القرآن فصول خاصة في التشريع ، وفصول خاصة في سرد المغيبات من جنة ونار وما يتعلق بها . وقد أوضحنا هذا عند الحديث عن خصائص الأسلوب القرآني فارجع إليه إن شئت .

ولنضع أمامك الآن بعض الأمثلة لدمج عبارات الموعظة والتذكير بخشية الله في ثنايا القصة وخلال سردها .

يقول الله تعالى في سورة طٰه ، أثناء عرضه لقصة موسى مع فرعون : (قال فمن ربُّكما يا موسى ، قال ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هدى ، قال فما بالُ القرون الأولى ، قال عِلمُها عند ربي في كتابٍ لا يَضِلُّ ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكم الأرضَ مَهْداً وسَلك لكم فيها سُبُلاً وأنزل لكم من السماءِ ماءً فأَنبَتْنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى ، كلوا وارعَوا أنعامَكم إنّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُّهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدُكم ومنها نُخرجُكم تارةً أخرى)[1] .

فقد تحوّلت الآيات هنا عن القصة وسردها الى التذكير بعظمة الله ومظاهر ألوهيته ودلائل وجوده ، حتى إن ضمير الخطاب فيها تحول عن خطاب موسى لفرعون إلى خطاب الناس كلهم كما تجد في سرد الآيات .

وفي سورة الكهف ، تتابع الآيات عرض قصة أصحاب الكهف ، وفي أثناء ذلك تلتفت عن القصة لتخاطب الرسول ﷺ والمسلمين ببعض الأوامر والعظات :

يقول الله تعالى : (سيقولون ثلاثةٌ رابعهم كلبُهم ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم ، قُل ربي أعلمُ بعِدّتهم ما يعلمُهم إلا قليل ، فلا تُمارِ فيهم إلاّ مِراءً ظاهراً ولا تستفتِ منهم أحداً ،

(١) طه : ٤٩ – ٥٤

ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاءَ الله ، واذكُرْ ربَّك إذا نسيت وقل عسى أن يَهديني ربي لأقْرَبَ من هذا رَشَداً)[1].

فأنت ترى كيف فتحت الآيات أثناء عرض القصة مناسبة لتوجيه هذه العظات الى رسول الله ﷺ ليسمعها المسلمون فيتعظوا ويتمسكوا بها ، ثم ماهو إلا ان يعود السياق الى تتميم القصة بعد ذلك .

• • •

هذه المظاهر لمنهج القصة في القران ، هي كما رأيتَ وليد الغرض الديني الذي يقوم عليه جوهر القصة في كتاب الله تعالى .

ولكن ليس معنى هذا أن الجانب الفني فيها متروك أو مهمل تحقيقاً لهذا الغرض ، بل القصة في القرآن تقوم على أسس وخصائص فنية رائعة ، يطول بنا الحديث لو دخلنا في شرحها وتحليلها . ومع ذلك فلنذكر بعض خصائص القصة القرآنية من الناحية الفنية .

الخاصة الأولى : العرض التصويري ، فأسلوب القرآن عند ذكر قصة من القصص ، لا يخبرك عنها إخباراً ولكنه يمر بشريط حيّ لها على مخيلتك وإحساسك ، وقد تحدثنا عن التصوير في القرآن وعرضنا أمثلة له ، فإذا كان ذلك جلياً في عامة أبحاث القران ، فإنه ليزداد جلاء وقوة عند عرض قصة أو مشهد من خبر . ولا نطيل في إيضاح هذا الأمر بعد الذي ذكرناه في الفصل السابق ، ولكن ماعليك إذا أردت أن تقف على التصوير القرآني في القصة إلا أن تعود الى ما كتبه المرحوم سيد قطب في ذلك في كتابه « التصوير الفني في القرآن » .

الخاصة الثانية : التنويع في الاستهلال بالقصة ووضع المدخل اليها ، وأنت تعلم أن أهم مظاهر التشويق في القصة ، ينبغي أن يكون متجمعاً وبارزاً في أولها ، حتى يندفع القاريء بذلك إلى المضي في استطلاعها والتأمل في مختلف مراحلها .

---

(١) الكهف : ٢٢ و ٢٣ و ٢٤

فالقصة في القرآن ، تبدأ في كثير من الأحيان ، بأغرب مشهد ملفت للنظر فيها ، حتى إذا أثار ذلـــك انتباه القارىء انطلق البيان القرآني في عرض كافـة مشاهدها المتلاحقة ، وقد يكون هذا المشهد الذي أقيم في مدخل القصة ، متأخراً من حيث سلسلة الوقائع والأحداث المتلاحقـة فيها ؛ فيعمد البيان القرآني العظيم الى استدراك ماتركه من قبله ، ويعرضه خلال القصة بمناسبة مّا ، وفي إطار يزيد من جمال العرض وروعته .

ولنقرأ ـ مثالاً لذلك ـ قصة موسى وفرعون في أول سورة طه . أنظر الى هذا المشهد الذي وضعه مدخلاً للقصة :

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي أتيـكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) [1] .

لاريب أنه كما ترى مشهد ملفت للنظر باعث على الإنتباه والتطلع إلى ماوراءه . ولكن البداءة منـه فوتت ـ كما ترى ـ على القارىء معرفـــة ماسبق ذلك من الأحداث ؛ فيستدركها البيان القرآني في ثنـايا العرض ويصورها للقارىء وكأنها قصة ضمن قصة .

وانظر كيف جاءت المناسبة ، وكيف عادت القصة الى عرض الأحداث من أولها بمناسبة معينة . فعندما ذهب موسى إلى حيث رأى النار المشتعلة ، سمـع هناك نداء الله عز وجل يكلمه ويضعه أمام مسؤولية الرسالة التي سيكلف بها ، فيقول موسى إنه وحده ضعيف عن تحمل هذه المهمة الشاقة ، فليكن أخوه هرون معيناً له ومساعداً في ذلك . فيجيبه الله إلى ذلك ويذكّره ممتناً بنعمه التي أسبغها عليه منذ ولادته الى اليوم ، وهكذا تأتي المناسبة وتعود القصة من أولهـا بهذا الشكل :

(قال قد أوتيت سؤلك ياموسى . ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا الى أمّك مايوحى ، أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ، فليُلقه اليمُّ بالساحل

---

(١) طه : ٧

يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيتُ عليك محبة مني ولتُصنع على عيني ، إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كي تقرَّ عينها ولا تحزن وقتلتَ نفساً فنجيناك من الغم وفتنّاك فتونا ، فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى) (١) .

ولعله لايخفى عليك أن هـــذا الأسلوب في عرض القصة يعتبر من أحدث الأساليب الفنية في إخراج الروايات والقصص كتابة وتمثيلًا .

غير أن هذا الأسلوب لايعتبر الطريقة المفضلة دائماً ، فقد يكون العمل الفني بالنسبة لبعض القصص يحتاج إلى طريقة أخرى في الاستهلال والعرض .

فمن ذلك أن ينتزع أهم مظاهر العبرة من القصة ، فتصاغ بشكل خلاصة لها ، ثم توضع تمهيداً ومدخلًا إليها . وذلك كالطريقة التي ابتدأت بها قصة أهل الكهف . فقد مهد لها أولاً بهذه الخلاصة عنها :

(أم حَسِبْتَ أنّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيم كانُوا مِن آياتِنا عَجباً ، إذْ أوى الفتيةُ الى الكهف فقالوا ربَّنا آتنا من لَّدُنْكَ رحمةً وهَيِّئْ لنا من أمرنا رشداً ، فضربْنا على آذانِهم في الكهف سِنينَ عَدَداً ، ثم بعثْناهُم لنعْلَم أيُّ الحِزْبين أحْصى لما لَبِثُوا أمداً) .

ثم بدأ يعرض تفصيلها قائلًا : (نحن نقصُّ عليْك نبأهُم بالحق إنهم فتيةٌ آمنُوا بربِّهم وزِدْناهم هُدى (٢) ...) الآيات .

ومن ذلك أن يمهد لهـــا بعبارات يكشف فيها عن حكمة أحداثها وسبب وقائعها ، لتتجسد بذلك العبرة التي ينبغي أن تؤخذ منها ، حتى إذا نبّه الى ذلك فكر القارىء بدأ يسرد عليه القصة وهو متيقظ لمراميها ومكان الهداية منها . وذلك كالاسلوب الذي مهد به لقصة موسى وفرعون في أول سورة القصص . فقد ذكر الله جل جلاله بين يدي القصة هذه الآيات الممهدة :

---

(١) طه : ٣٦ - ٤٠ (٢) الكهف : ٩ - ١٣

(إنّ فرعونَ علا في الأرض ، وجعل أهْلَها شِيَعاً يستضْعِفُ طائفةَ ّمِنهم يذبّح أبناءهُم ويستَحيي نساءَهم ، إنّه كان عالياً من المُسْرفين ، ونريد أن نَمُنّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرض ونجعَلَهُم أئمّة ونّجْعَلَهم الوارثين ، ونُمكّنَ لهم في الأرض ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون)[١] .

الخاصة الثالثة : العرض التمثيلي الذي يعتمد على إبراز المشاهد جلية مشرقة أمام الناظر أو المتخيل ، ويطوي مابينها من الروابط البدهيــة إعتماداً على سير المخيلة وتصورها .

وأنت تعلم أن القصة اذا ماأريد عرضها بأسلوب تمثيلي حيّ ، فلابد فيها من طيّ تلك الأحداث التي يفرضها الفكر والخيال بالبداهة ، بل وان القيمة الفنية للقصة وحيوتها تقلّ كثيراً اذا ماشغل فكر الناظر أو السامع بالحديث عن تلك الروابط وتبيانها .

والقصة القرآنية قائمة على هذه السمة والنهج دائمــاً مها كانت القصة أو كان موضوعها . أنظر مثلاً الى قصة نوح التي وردت في سورة هود ، وانتبه إلى قوله عز وجل فيها (وأُوحِيَ الى نُوحٍ أنّه لن يؤْمِنَ من قومِك الا مَنْ قَدْ آمنَ ، فلا تبْتَئِسْ بما كانُوا يفْعلون . واصْنَعِ الفُلْكَ باعْيُنِنا ووحْينا ولا تُخاطبني في الذين ظلمُوا انهم مُغرقون . ويصنَعُ الفلك وكلما مرّ عليه ملأُ مّن قومِه سخِروُا منه ...)[٢].

فأنت تجد نفسك في أول هذه الآيات أمام الإخبار الإلهي الذي تنزل على نوح بشأن قومه وأمره اياه بأن ينصرف الى انشاء سفينة لينجو بها مع القلة من أصحابه المؤمنين فإن قومه مقدمون على هلاك بطوفان . ثم يسدل الستار على هذا المشهد ، ليبرز من ورائه مشهد آخر تبصر فيه نوحاً عليه السلام وهو منهمك في

---

(١) القصص : ٣ و ٤ و ٥

(٢) هود : ٣٨ و ٣٨

صنع سفينة . ولاريب أن بين المشهدين أحداثاً طوتها القصة وهي عزم نوح على القيام بهذا الأمر ، واستحضار المواد والوسائل لذلك ؛ ولكنها أحداث جزئية يستقل بها الخيال فلا ينبغي أن يفسد بذكرها عرض القصة .

وانظر مثلاً الى قصة موسى وفرعون في سورة طه ، حينما يأمر الله موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو واقف في المكان الذي آنس منه النار ليلاً ، بأن يذهب الى فرعون فيبلغه أمر الله عز وجل : (قال لاتخافا انّني معكُما اسمعُ وأرى ، فأتِياه فقُولا انّا رسولا ربِكَ فأرْسِلْ مَعنا بني اسرائيل ولا تُعذِبّهم قد جئناك بآية مِّن رَّبِكَ والسلامُ على من اتّبع الهُدى . انّا قد أوحِيَ الِيْنا أنّ العذابَ على منْ كذّب وتولّى . قال فمن ربُّكُما يامُوسى ، قال ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه ثم هدى) [١] .

فأنت في أول الآيات ، أمام مناجاة بين موسى وربه جل جلاله ، يأمره الله فيها كما ترى بالذهاب مع أخيه هارون الى فرعون لتذكيره وتبليغه أمر الله عز وجل ويطمئنهما بأنه لن يصيبهما منه أي مكروه . ثم ينطوي هذا المشهد . ويبرز عقبه تماماً مشهد آخر تجد فيه كلّاً من موسى وفرعون وجهاً لوجه في مناقشة عن الله عز وجل ودلائل وجوده ؛ وهو المشهد الذي يبدأ بقوله جل جلاله : (قال فمن ربكما ياموسى) .

امّا مابين هذين المشهدين ، من ذهاب موسى الى مصر ووسائل ذلك ثم طريقة التوصل الى فرعون ، ثم عرض الدعوة الى الإسلام عليه فهو شيء معلوم يستقل بتصويره الحس والخيال ، وليس من الدقة الفنية في شيء الاهتمام بعرض ذلك وسرده على السامع أو الناظر .

وحسبنا هذا القدر من الحديث عن الخصائص الفنية للقصة في كتاب الله عز وجل ، وان كان البحث في ذلك يطول ، ولكن كتابنا هذا مبني كما قلنا على إعطاء فكرة موجزة عن كل مايتعلق بالقرآن .

• • •

(١) طه : ٤٦ و ٤٧ و ٤٨

القيمة التاريخية لقصص القرآن :

هل يحتاج هذا العنوان إلى بحث ؟

إنك لو علمت أن النظر في كل موضوع أو بحث ، إنما يتم عن طريق المنطق والعقل المتجرد الحر ، لأدركت أن هذا العنوان كلام غريب ، وأن كتابة صحيفة أو صحيفتين تحته تضييع للوقت ومعابثة للبدهيات .

ولكنك تعذرني في أن أكتب في البدهيات ، حينما تعلم أن كثيراً من البدهيات أصبحت في عصرنا نظريات قابلة للجدل والبحث .

إن العقل البشري لم يمرّ بمحنة كتلك التي يمر بها في هذا العصر ، وحسبك مظهراً من مظاهرها أن تقام فرضيّة مّا طبق غرض معين أو شهوة نفسية أو حقد مستحكم ، ثم يساق إليها العقل سوقـــاً ، فيراد على تأييد الفرضية ودعمها ولو بصورة مزيفة من الأدلة والبراهين ، ثم يراد على تفنيد مايخالفها ولو بزيف من الأدلة والبراهين أيضاً .

وكم من فرق بين أن ينطلق الانسان من نقطة الصفر ، ليسير من وراء مايهديه إليه عقله المتجرد الحر ، وبين أن يخط بغريزته السبيل التي يشتهيها ثم يعمد فيقود فيها عقله مكبلًا بالأغلال مسيراً تحت لهيب السياط !...

ومع هذا ، فلم أكن أتصور أني بحاجة الى أن أبحث شيئاً ماتحت عنوان : القيمة التاريخية لقصص القرآن ، أو أن أنفق أي قدر من الوقت في البدهيات ؛ إلى أن أطلعت على كلام في منتهى الغرابة والعجب جـــاء في كتاب : الأدب العربي الحديث : من مقررات طلاب البكالوريا الأدبية .

يقول الكاتب فى صفحة : ٣٠٢ تحت عنوان نماذج قصصية :

(إن مكتبتنا العربية تتدفق بعباب زاخر من قصص وأحاديث ومحاورات وأسمار وخرافات يتجلّى بها وجه المجتمع العربي وتتوضح فيها سماته ، وتختلج روحه وحيويته . فالقرآن الكريم أشار الى كثير من القصص إشارات خاطفـــة ليبين

مواضع العبرة منها . ولا شك أن إشارات القرآن الكريم الى هذه القصص دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائر الذي يتداوله الناس في جزيره العرب).

دعك من الطريقة المقصودة الى إيهام أن منبع القصص القرآني إنما هو ما كان يفيض به المجتمع العربي من خرافات ومحاورات وأسمار . ولكني أريد أن أعلم: في أي مصدر تاريخي أو أدبي أو ديني أو جغرافي أو فلسفي ثبت أو أشير الى أن ماجاء به القرآن من قصص عاد وثمود ونوح وفرعون ويوسف وأهل الكهف ، انما كان من القصص الشعبي السائر الذي كان الناس يتداولونه في أسمارهم ونواديهم ومحاوراتهم ؟!... بل حسبي أن أعلم اسم واحد فقط من العرب وقف أو جلس في ناد من نوادي العرب يتحدث بكلمة واحدة من أي قصة جاء بها القرآن من بعد . . حسبي ذلك لألمح بارقة لرائحة دليل علمي ، لكي أسرع فأقول إن بالإمكان أن يكون هذا صحيحاً ! ! ...

ياعجباً !! .. أترى يكون القرآن كاذباً من حيث صدق الكاتب ؟! ..

القرآن يقول : (تلك من أنباء الغيبِ نُوحيها إليْك ، ما كُنْتَ تعلمُها أنت ولاقومُك من قبْلِ هذا ، فاصبر انّ العاقبة للمتقين) (١)

أما الرجل فيقول : لاشك أن إشارات القرآن الى هذه القصص ، دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائر الذي يتداوله الناس في جزيرة العرب .

والى أن يأتينا الكاتب بأيّ ثبْت أو صورة ثبْت من أي مصدر علمي يستر به سوءة كلمته العارية هذه ، نقول له : لعلك ياهذا نمت نومة ثقيلة صعد فيها إلى دماغك سحاب مركوم من أبخرة معدتك ، فحلمت أنك تسمر في مجلس المتنبي مسيلمة الكذاب وعن يمينه النبيّة الأخرى سجاح .. وأخذت تسمع لقرآن كل منهما حتى استفزك الطرب وتملكتك النشوة من جمال ماتسمع فصحوت وقد انطبع قرآنها الكريم في خيالك !.. فعن ذلك القرآن جئت تقول هذا الذي تقول . ونعوذ

(١) هود : ٤٥ .

بالله من أبخرة تستقر من الرأس في مكان العقل ، فتجعل الرجل يفكر بالأبخرة بدلاً من أن يفكر بالمنطق المشرق الصافي .

• • •

وبعد ، فإن التاريخ هو الذي يستمد قيمته من حديث القرآن وأخباره وليس القرآن هو الذي يستمد قيمة مايقول من التاريخ . هذا إن كنت قد آمنت بالدليل العلمي أن القرآن ليس أكذوبة سجلها محمد (ﷺ) على الله عز وجل ، وإنما هو كلام الله ووحيه إليه ، بلغه الى الناس بصدق وأمانة .

أمّا إن كان في نفسك من ذلك شيء ، فقد دلت السيرة بكل مصادرها ، والتاريخ بمختلف أمهاته ومراجعه أن ماجاء به القرآن من أخبار الأمم البائدة إنما كان يعلم بعضاً منه أهل الكتب الذين درسوا التوراة والأنجيل ، وذلك عن طريق اطلاعهم على الكتب السماوية السابقة . أما العرب المشركون فلم يكن عندهم أي علم بهذا الذي يعلمه أهل الكتب أو يتلوه عليهم محمد ﷺ في القرآن .

ولقد أوضحنا أن القصة في القران مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني ، بسبب أنه ينطوي على أخبار عن الأنبياء والأمم السابقة تتفق مع ماورد في التوراة والإنجيل ، مع أن النبي ﷺ عاش أمياً لايقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه ولم يدرس أو يتردد على واحد من أهل الكتاب .

ولقد تجلى هذا الجانب من الاعجاز القرآني أول ماتجلى لأهل الكتاب الذين عاصروا بعثة النبي ﷺ ، حيث رأوا فيه أبرز برهان على صدق نبوته ورسالته . فأي إعجاز هذا الذي رأوه فيه إن كان كل هذه الأخبار ليست إلا ترديداً لاقاصيص شعبية تروى ، وأي غرابة في أن يكون هو أيضاً واحداً من هؤلاء الرواة ؟

روى محمد بن اسحاق عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد ، فخرجا حتى

أتيا المدينة ، فسألا أحبارها عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وبعض قوله . فقالوا لهما : سلوه عن ثلاث ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو ؟ فرجعا إلى قريش وأخبراهم بقول الأحبار ، فجاءوا يسألون رسول الله ﷺ الأسئلة الثلاثة . فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم غداً عما سألتم ، ولم يقل : إن شاء الله . فتلبث الوحي خمسة عشر يوماً ، وأحزن ذلك رسول الله ﷺ . ثم جاءه جبريل بسورة الكهف ، وفيها عتاب له على حزنه وفيها يقول له (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) ، وفيها قص الله عليه خبر أصحاب الكهف ، والرجل الطواف وهو ذو القرنين ، وأنزل الله معها قوله : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[1] .

ولا ينبغي أن تلتبس عليك حقيقة القصة القرآنية بالأمثلة التي يضربها على سبيل التقريب والتشبيه . فلكل منها اسلوبه المتميز ، وليس في الناس من يجهل الفرق بين مثل يضرب به ، وقصة تروى وتنقل . نقول هذا ونحن نعلم أن في الناس من يتجاهلون الفرق ويغمضون أعينهم عمداً ، ثم يذهبون يقررون أن القصة في في القرآن ليست أكثر من أمثلة تضرب .

وبدهي أن أي عاقل لايمكن أن يصل به الجهل واللبس إلى درجة أن يتوهم بأن قصة مريم وعيسى وهود ونوح وقصة موسى وفرعون ، وأصحاب الكهف - كل ذلك أمثلة تُضرب .

والخلاصة ، أن من آمن بأن القرآن وحي من عند الله ، علم بذلك أن القصة القرآنية هي في موضع القطع الذي لايلحقه أي ريب . ومن لم يؤمن بذلك ، أدرك هذه الحقيقة نفسها إذا ما تأمل في مصادر السيرة والتاريخ وعلاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة .

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام: ١/٢٩٥ وتفسير ابن كثير وابن جرير الطبري في أول سورة الكهف

أما من اشتهى أن لايدرك هذه الحقيقة ، فليس أمامه إلى ذلك إلا سبيل واحد ، هو أن يدعي أن القرآن يكذب !... وذلك لأن القرآن يقول عن كل ما قد رواه من الأخبار والقصص .

(ما كان حديثاً يُفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ورحمة لقوم يؤمنون) يوسف : ١١١ .

أما نحن فنقول : صدق الله رب العالمين

★ ★ ★

المنهج التربوي في القرآن

مرة أخرى أكرر ماقلته من أن القرآن إنما جاء ليتدبره الناس ، فيصبحوا عبيداً لله بالطوع والاختيار ، كما خلقهم عبيداً له بالفطرة والإجبار .

ومن أجل هذا ، كان لابد أن ينهج بالناس نهجاً تربوياً في كل ما يأتيهم به من أخبار وآيات وعظات وأحكام . ومن أجل هذا كان هذا الكتاب أعظم مصدر للتربية إلى جانب أنه أعظم كتاب يقدم للانسان حقائق الكون كله . فما هو منهجه التربوي ، وما هو أسلوبه في ذلك ؟..

إن الإجابة على هذا السؤال ، تستدعي أن يفرد لذلك كتاب خاص ، لافصل مستقل من كتاب . ولكنا ، وفاء بالمنهج الذي التزمناه ، نسرع فنمر على بعض المظاهر التربوية في القرآن ، مكتفين بدراسة وجيزة لها .

المظهر الأول : أنه صبغ كل المواضيع التي طرقها وعالجها ، بصبغة الهدي والموعظة والارشاد . فلم ينسق هذه المواضيع والابحاث على أساس وحدات منفصلة ومستقلة عن بعضها ، كما هو شأن عامة الكتب والمؤلفات المعهودة ، إذ هي بذلك لاتؤدي عملها التربوي المقصود في نفس الانسان ، وإنما بث في جميعها شرايين التوجيه والنصح والهداية ، فصيرها بذلك وحدة كاملة متضامّة تعمل عملاً واحداً ويشير بالانسان نحو غاية لاتختلف ولاداعي إلى أن نأتي لك بالأمثله على ذلك ،

فقد ذكرنا هذا البحث فيما مضى عند كلامنا عن خصائص الاسلوب القرآني ، وعن القصة في القرآن .

المظهر الثاني : ماذكرناه من التدرج في الأحكام وأخذ الناس بها ، فالقرآن كما قد علمت لم يصبّ أحكامه وفرائضه على الناس دفعة واحدة ، ولكنه سعى بهم إليها على مراحل وفي خطوات رتبت على بعضها ومهدت السابقة منها للاحقة . وذلك كما قد علمت من دعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة أولاً ، ثم إلى الاصلاح النفسي والاجتماعي ثانياً ، وكما قد علمت من التدرج في تحويل الناس عن عوائدهم وفواحشهم التي تعودوا عليها .

المظهر الثالث : السير بالناس ، في كل مايلزمهم به من الأحكام ، نحو السهولة واليسر ؛ وإقناعهم بأن كل ما قد يتصورونه قيوداً ، ليس إلا أسساً لابد منها لسعادتهم ولصلاح معاشهم ومعادهم ، فهو يقول مثلاً (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)[1] ويقول (يريد اللهُ بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسر)[2] ويلفت نظرهم إلى أن الشريعة الاسلامية إنما تحمل في طيها إليهم سر الحياة السعيدة للفرد والجماعة فيقول (يا أيها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[3] ويقول (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون)[4] .

المظهر الثالث : أنه يضع المتأمل في آياته في حالة وسطى بين الخوف من عذاب الله تعالى ، ورجاء رحمته وعفوه ؛ وذلك كي لايسيطر عليه من الرهبة والخوف مايجعله في يأس من سعة عفوه ؛ فيمضي بذلك في الطريق التي يشتهيها

---

(١) المائدة : ٦
(٢) البقرة : ١٨٥
(٣) الانفال : ٢٤
(٤) النحل : ٩٧

لاعتقاده بعدم الجدوى من الحذر والاستقامة ؛ ولكي لايفيض قلبه أملاً بمعاني الرحمة والمغفرة وحدها ، فلايجد بذلك ما يصده عن ارتكاب أي منكر والانحراف إلى أي زلل .

والقرآن يربي النفس البشرية هذه التربية باتباع أسلوبين :

الأول : أنه حينما يصف الكفرة والمشركين الذين استحقوا عذاب الله ونكاله يصفهم بأسوء أعمالهم وأحط ما انتهوا اليه من الخصال ، حتى إذا تأملت في حالهم رجعت إلى نفسك فقلت : أحمد الله على أني لست منهم ولم أبلغ مبلغهم في السوء والانحراف . وحينما يصف المؤمنين الذين استحقوا ثواب الله ورضوانه ، يصفهم أيضاً بأسمى خصالهم وأفضل أعمالهم حتى إذا تأملت في حالهم ، عدت إلى نفسك تقول في تألم واسف : أين عملي من أعمالهم وأين تقصيري من سموّ درجاتهم . وبذلك تجد ذاتك في حالة وسطى بين الرجاء في عفو الله والخوف من عذابه .

ولنضرب مثلاً لتجلية هذا المظهر التربوي في كتاب الله عز وجل . أنظر إلى هذه الآيات وهي تصف الأسباب التي أدت إلى شقاء صنف من الناس يوم القيامة (يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نكُ من المصلّين ، ولم نكُ نُطعِمُ المسكين ، وكنا نخوضُ مع الخائضين ، وكنا نكذّبُ بيوم الدين) (١) فأنت إذا سمعت هذه الأوصاف حمدت الله على أنك لست منهم مهما كنت مخطئاً ومقصرا . ثم انظر إلى هذه الآيات الأخرى وهي تصف الأسباب التي بها يسعد الناس في حياة خالدة يوم القيامة : (وعبادُ الرحمن الذين يمشُون على الأرضِ هوْناً وإذا خاطبهُم الجاهلُون قالوا سلاماً ، والذين يبيتُون لربِّهم سُجّداً وقياماً والذين يقولونَ ربَّنا اصرف عنا عذاب جهنَّم إنَّ عذابها كان غراماً ..)(٢)

---

(١) المدثر : ٤١ – ٤٦

(٢) الفرقان : ٥٣ و ٦٤ و ٦٥

أو إلى هذه الآيات التي يقول فيها الله عز وجل (إنما يُؤمنُ بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبُهُم عن المضاجِعِ يدعُون ربّهُم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهُم يُنفقون ، فلا تعلمُ نفسٌ مّا أُخفي لهم من قُرّةِ أعيُنٍ جزاء بما كانوا يعملون) [١] فأنت إذا تأملت هذه الأوصاف ، تضاءلت نفسك أمامك ، وتبدت لك منها مظاهر التخلف والتقصير .

ومن هاتين النظرتين يتولد الخوف والرجاء ويتمازجان في حياة الانسان ؛ ويتولد منهما معنى يدفعه في سبيل معتدلة يجمع فيها بين الوفاء بحق نفسه وحق الله عز وجل .

الثاني : أنك لا تجد آية في كتاب الله فيها الحديث عن الجنة ونعيمها وعن الصالحين وما أعد الله لهم من المثوبة ، إلا وتجد من بعدها آية فيها الحديث عن النار وهولها وعن الكافرين وما أعد الله لهم من العقوبة . ولا تكاد تجد في القرآن آية أو آيات قد انفردت بوصف الشدة أو الرخاء دون أن يكون إلى جانبها آية أو آيات فيها وصف الطرف الآخر . والحكمة من ذلك أن لا يرهب الانسان رهبة تقذف به إلى اليأس ، ولا يرغب رغبة تطمعه بالقعود والكسل .

ولنضرب بعض الأمثلة على هذا :

١ً – (يوم نقولُ لجهنّم هل امتلأتِ وتقولُ هل مِن مّزيد ، وأُزْلِفتِ الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد ، هذا ما توعدون لكلّ أوّابٍ حفيظ) [٢] .

٢ً – (إنّ أصحابَ الجنة اليومَ في شُغُلٍ فاكهون ، هم وأزواجُهم في ظلال على الأرائكِ متّكئون ، لهم فيها فاكهةٌ ولّهم ما يدّعون ، سلام قولاً من ربٍّ رّحيم . وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يابني آدمَ أن لا تعبُدوا الشيطانَ إنّه لكم عدوٌّ مبين ..) [٣] .

(١) السجدة : ١٥ و١٦

(٢) ق : ٣٠ و ٣١

(٣) يس : ٥٥ و ٥٦ و ٥٧

٣ً — (نبِّىءْ عبادي أنـّي أنا الغفُورُ الرّحيم ، وأنَّ عذابي هُوَ العذابُ الأليم) (١) .

٤ً — (قُل ياعبادِيَ الذين أسرفوا على أنفُسِهِم لا تقنطُوا من رَّحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً إنـّه هو الغفورُ الرّحيم ، وأنيبوا إلى ربـّكم وأسلِمُوا له من قبل أن يأتيكم العذابُ ثم لا تُنصرون) (٢) .

وقس على هذه الأمثلة كل ما في القرآن من آيات الوعد والوعيد ووصف الجنة والنار ، لا بد أن تجد الحديث عن كل منها معادلاً للحديث عن الآخر ، ولا يمكن أن تعثر على أي شذوذ في ذلك .

وهذه الظاهر ، من أدق وأهم مظاهر المنهج التربوي في كتاب الله عز وجل اذ هي التي تضعه في مستوى العبودية لله عز وجل ، حيث تشدّه إليه رغبة ورهبة بآن واحد ؛ وهي النهاية التي ينبغي أن ينتهي إليها العبد بالنسبة لربه جل جلاله وقد نبه إليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه،خلال وصيته العظيمةلعمر بن الخطاب اثناء مرض موته .

ولعل من الحَسَن أن نختم هذا الفصل بمقاطع منها :

(.. ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة ، باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً الا حق أن يكون ثقيلًا . ألم تر يا عمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً الا باطل أن يكون خفيفاً . ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاءمعآية الشدة، ونزلتآيةالشدة مع آية الرخاء ، ليكونالمؤمنراغباً راهباً، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه.

(١) الحجر : ٤٩

(٢) الزمر : ٥٣ و ٥٤

ألم تر يا عمر أنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون منهم ، وانما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء ، فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم . فإن حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبّ اليك من الموت ، وهو آتيك . وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله)[1] .

• • •

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٤٥/٢

النزعة الإنسانية في القرآن

القرآن كتاب عربي ، نزل بلغة العرب ، وصيغ بلهجة أوسط القبائل العربية : قريش .

وكتاب هذا شأنه ، كان ينبغي — لو أنه ظهر في الارض ولم ينزل من السماء — أن يتأثر تأثراً ما،من حيث مبادئه وأفكاره ، بنزعة البيئه أو الاقليم أو القوم الذين ظهر بينهم وجاء بلغتهم ، كما هو الشأن بالنسبة لعامة الكتب والمؤلفات الأخرى .

ولكنك لا تبصر من وراء لغته إلا السِّمَة الانسانية المطلقة . فهو في كل ما يصدر عنه من عقيدة وأخلاق وتشريع وعظات ، إنما يقدم من ذلك كله ثوباً قد فصّل على قدر الحقيقة الإنسانية كلها أينما وجدت وكيفما تنوعت .

ومهما نظرت في هذا الثوب ، فلن تجد فيه أي مظهر لطابع البيئة أو القوم أو القبيلة ، سواء في شكله أو في جوهره .

وهذا ما نعنيه عندما نصف القرآن بأنه : إنساني النزعة في كل من موضوعه وأسلوبه . فلنشرح هذا الوصف بالقدر الذي يفي بغرضنا من هذا الكتاب .

أولاً — النزعة الانسانية في القرآن من حيث الموضوع :

تتجلى النزعة الانسانية في عامة موضوعات القرآن ، فلنتلمسها في كل موضوع على حدة :

أ — العقيدة : أوضح القرآن وحدانية الله جل جلاله ومالكيته للعالم كله ،

دون تمييز بين رقعة وأخرى منه ، ودون أن يخص بخطابه في هذا البيان فئة معينة فقال (الحمدُ لله ربِ العالمين) وقال : (فلله الحمدُ ربِ السموات وربِ الأرض ربِ العالمين) [١] .

وأوضح بعثة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام إلى البشر كلهم ، في كل بقاع الأرض ، وفي كل الأزمنة التالية ، دون أي نظرة خاصة في ذلك إلى الذين بعث من بينهم أو إلى البيئة التي ظهر فيها فقال: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) [٢] وقال : (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)[٣] وقال (وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً) [٤] .

وقرر عبودية الإنسان لله عز وجل ، لا فرق بين عرق وآخر أو بيئة وأخرى ولم يلحظ في ذلك أي خصوصية أو امتياز بين العرب الذين كان الرسول منهم وبين أي جماعة أخرى من الناس . فقال : (إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمنِ عبْداً ، لقد أحصاهم وعدّهم عداً)[٥] وقال : (وهو القاهرُ فوق عباده وهو الحكيم الخبير) [٦] .

ولفت أنظار الناس إلى أدلة وجود الله ووحدانيته ، فلم يقدم أيّ دليل يخص بيئة معينة ، أو يوجد لدى قوم بخصوصهم ، أو تفهمه طبقة دون سواها . وإنما عرض من ذلك ما يفهمه ويألفه كل إنسان في كل زمان ومكان . والآيات التي تتضمن الأدلة المختلفة على وجود الله ووحدانيته كثيرة ومشهورة ، لا داعي إلى الاطالة بذكرها . فتأملها تجدها متجهة إلى الفكر الإنساني العام المتمثل في سائر الفئات والجماعات .

---

(١) الجاثية : ٣٦
(٢) الأعراف : ١٥٨
(٣) الفرقان : ١
(٤) سبأ : ٢٨
(٥) مريم : ٩٣
(٦) الانعام : ١٨

ب ـ التشريع : إذا امعنت النظر ، وجدت قانون كل أمة او دولة او جماعة من الناس ، إنما يعكس طبيعتها وأعرافها ويتجاوب مع ظروفها ؛ فشريعة كل أمة إذاً تعبير عن حاجتها ومتطلباتها فقط دون أي نظر إلى ما وراء حدودها .

غير أن التشريع القرآني لا تجد فيه أي منزع إلى عرق أو طائفة أو جماعة .. وإنما هو ينبثق عن أسس ومبادىء إنسانية مطلقة ، بحيث تأتي عامة فروعه متطابقة معها في دقة واضطراد .

ولنضرب أمثلة لإيضاح هذه الحقيقة :

سورة النساء ، من السور التي تفيض بالأحكام التشريعية المتعلقة بتنظيم الاسرة وحقوق المرأة ، ونظام الحكم ، وتقويم العدالة وضبط حقيقتها . فانظر كيف بدأ الله هذه السورة بوضع الركيزة الأساسية لتلك الأحكام كلها ، وكيف لفت أنظار الذين سينصتون إلى هذه الأحكام التالية ، إلى أن المنطلق إلى تقريرها ووجوب الأخذ بها إنما هو النظر إلى مصلحة الاسرة الانسانية المطلقة دون أي التفات إلى الظروف المتنوعة والمختلفة للبيئات والجماعات . وهذه هي الركيزة الأساسية :

(يا أيها النّاسُ اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفسٍ وّاحدةٍ وّخلق منها زوجَها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونّساءً ، واتقوا الله الذي تَساءلونَ به والأرْحام إنّ الله كان عليكم رقيباً) (١) .

فالمنطلق لتقرير كل الاحكام والتشريعات التالية إنما هو (الرّحِمُ) الانساني العام . ففي سبيلها ستتلى الأحكام التالية ، وعلى ضوئها ينبغي أن تفهم حقيقة المقررات التشريعية التي تفيض بها السورة .

وتمضي في قراءة السورة ، فتجد سلطان هذا المنطلق الأول ممتداً الى سلسلة الاحكام والتنظيمات التالية كلها : حقوق اليتامى ، حقوق النساء ، فرائض الميراث أحكام النكاح ومقومات الاسرة ، نظام الحكم وسلطان الحاكم ، والعدالة الاجتماعية وميزانها . ليس في فرع من فروعها أو أي جانب من جوانبها انعكاس ما لنظرة

(١) النساء : ١

إقليمية أو قبلية أو عرقية أو امتيازات طائفية ، بحيث تضيق من آفاق النظرة الإنسانية الشاملة التي كانت المنطلقَ والأساس .

ولنجسد هـذه الحقيقة بمثال للميزان القرآني الذي وضع لحقيقة العدالة ، كأساس للتشريع :

رجل من أهل المدينة اسمه : طعمة بن أبيرق ، سرق درعاً من جار له ، يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في كيس فيه دقيق ، فخبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ؛ وكان الدقيق ينتثر من الجراب في الطريق فاتهم قتادةُ طعمة بالسرقة ، والتُمس الدرع عنده فلم توجد ، وحلف لهم : والله ما أخذها وماله بها من علم . ثم اتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا الى اليهودي فأخذوه فقال لهم : لقد دفعها الىّ طعمة بن أبيرق ، فلم يصدقه أحد . وجاء بنو ظُفُر – وهم قوم طعمة – إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يدافع عن صاحبهم تجاه اتهام اليهودي له بالسرقة واتهامه بأنه هو الذي أعطاه الدرع . وكان قوم طعمة قد تواطأوا مع صاحبهم أن يستميلوا النبي ﷺ اليهم ، كي لا يجد اليهودي أذناً صاغية له واقتنع رسول الله ﷺ معهم بذلك وهمّ بأن يدافع عنه ويحكم على اليهودي بالسرقة . فنزلت هـــذه الآيات المتتالية من سورة النساء ، تكشف للنبي ﷺ الحقيقـة وتفضح ما بيته المنافقون فـيما بينهم وتردُّ الرسول الى الحكم الانساني المتجرّد .

(انا أنزلنا اليكَ الكتابَ بالحقّ لتحكُم بين النّاسِ بما أراكَ اللهُ ، ولا تكنْ للخائنين خَصيما . واستغفرِ الله انّ اللهَ كانغفوراً رحيماً ، ولا تجادِلْ عن الذينَ يختانون أنفُسهم انّ اللهَ لا يُحبُّ من كان خوّاناً أثيماً . يستخفون من النّاسِ ولا يستخفُون من الله وهو معهم ، اذ يبيّتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملُون محيطاً . ها أنتم هاؤلاء جادلتُمْ عنهم في الحياةِ الدُّنيا فمن يُجادِلُ اللهَ عنهُم يومَ القيامةِ أم مّن يّكونُ عليهم وكيلًا . ومن يّعملْ سُوءاً أو يظلِمْ نفسه ثمّ يستغفِرِ اللهَ يجدِ اللهَ غفوراً رّحيماً ، ومن يكسِبْ

اثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان اللهُ عليماً حكيما . ومن يكسبْ خطيئة أو اثماً ثم يرْمِ به بريئاً فقد احتمل بُهتاناً وإثماً مُبيناً . ولولا فضلُ اللهِ عليكَ ورحمتُه لهمّتْ طائفةٌ منهم أن يُضلّوك وما يُضلّون الا أنفُسهم وما يَضُرُّونك من شيء ، وأنزَل اللهُ عليك الكتابَ والحِكمةَ وعلّمك ما لم تكن تعلمُ وكان فضلُ اللهِ عليك عظيما) (١) .

فقد تلاشى في ميزان العدالة في التشريع الاسلامي ، العرق والقرابة والطائفة والتبعية ، ولم يبق فيه الا اعتبار واحد : هو الحقيقة الانسانية المطلقة .

ج — الأخلاق والمبادىء : ليس الخلق النبيل في القرآن ، عبارة عن السلوك الذي ينسجم مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية والخلقية المستحسنة ، كما هي النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم في مقومات الفضيلة والأخلاق .

وانما الأخلاق والفضيلة في القرآن ، هي مجموعة الاعتبارات والمناهج السلوكية التي تتلاءم مع الفطرة الانسانية الصافية من جانب ، وتساعد في ارساء قواعد السعادة الانسانية للفرد والجماعة من جانب آخر . ومن ثم فأنت لا تجد هذه المناهج السلوكية قابلة للاختلاف والتغيُّر ما بين بيئة وأخرى ؛ لأنها لم تنشأ من أعراف بيئة ، ولكنها انبثقت عن الفطرة الانسانية الشاملة .

فمن المبادىء الخلقية في القرآن ، اعتبار الناس كلهم ، مهما اختلفت أعراقهم وأنسابهم وبيئاتهم ، في مستوى واحد من الكرامة والحرية الانسانية ، ولا يتفاضلون بعد ذلك الا بما يحرزه كل منهم من السبق بسعيه الخاص في ميدان الجهد الانساني المفيد المشرف . (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرَمكم عند الله أتقاكم) (٢) .

---

(١) النساء : ١٠٦ — ١١٣

(٢) الحجرات : ١٣

ومن المبادىء الخلقية في القرآن ، الزام الأبناء بحسن معاملة الآباء وخفض جناح اللطف والرحمة لهم ، مهما كان بينهما من تباعد في الرأي أو اختلاف في المذهب . وهو مبدأ انساني غير ناظر الى طبيعة خاصة أو عرف معين ، يقتضيه ضمان سلامة الأسرة الانسانية التي تتدرج صعداً من الخلية الأولى في المجتمع وهي الأسرة. يقول الله عز وجل : (ووصَّينا الانسان بوالديه حملته أمُّه وهْناً على وهن وفصاله في عامَيْن أن اشْكُرْ لي ولوالديْك اليّ المصير. وان جاهداك على أنْ تُشْرِكَ بي ماليْس لك به علمٌ فلا تُطعهُما ، وصاحِبهُما في الدُّنيا معروفاً واتَّبعْ سبيلَ منْ أنابَ اليّ ثم اليّ مرْجعُكم فأنبِّئُكم بما كنتم تعلمون) [1] .

ومن المبادىء القرآنية العامة ما أثبته من أن الانسان لا يلاحق أو يؤاخذ الا بما اجترحه بنفسه ، وأنه لا يؤخذ بعمل غيره أو بشيء من مظاهر الطبيعة وأحداثها فيقول : (وكلّ انسانٍ الزمناهُ طائره في عنُقِهِ ونُخْرجُ له يوم القيامة كتاباً يلْقاه منشوراً) [2] ويقول (من اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنَّما يضلُّ عليها ولا تزرُ وازرةٌ وزْرَ أخرى وما كنَّا معذِبين حتى نبعث رسولا) [3] .

وتأمل في كل ما وصى به القرآن من المبادىء الأخلاقية ، تجد المعني الانساني وحده هو المتمثل فيها وهو الأساس في الدعوة اليها والأمر بها .

ثانياً ــ النزعة الانسانية في القرآن من حيث الأسلوب :

يركز الأسلوب القرآني ، فيما يعبر عنه من المواضيع والمعاني ، على السمة الإنسانية الشاملة ؛ ويحاذر أن يأتي في خطابه للناس أو في شيء من تعليقاته على

---

(١) لقمان : ١٤ و ١٥
(٢) الامراء ١٣
(٣) الامراء : ١٥

الاحداث ، بما ينبه فكر القارىء الى خصوص بيئةٍ أو عرق أو اقليمٍ أو جماعة معينة من الناس .

فأنت ترى الخطاب القرآني يتجه الى المخاطبين،مستعملاً كلمة : الناس ، أو بني آدم ، أوالمؤمنين. ولم ترد ولو مرة واحدة كلمة العرب أو قريش ، أو أهل كذا ، أو ما يشابه ذلك من صيغ الخطاب الخاصة بفئة معينة من الناس . واليك نموذجاً من النداءات القرآنية .

(يا أيها الناس اتقوا ربكم انّ زلزلة الساعة شيء عظيم) [1] .

(يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) [2] .

(ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) [3] .

(قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) [4] .

ثم إن القرآن ، رغم أنه نزل كما قد علمت ، متدرجاً ، ومع مناسبات الوقائع وجواباً على الأسئلة والمشكلات ـ فإنه لم يربط أحكامه وبياناته بشيء من تلك الوقائع والمشكلات ، ولم يسجل أي اسم من أسماء أولئك الذين نزلت في حقهم آيات وأحكام وإنما نزلت الآيات موضوعية عامة ، دون أن تذكر اسم شخص أو تنزل إلى مستوى مشكلة بخصوصها . وذلك كي يبقى القرآن في كل من أسلوبه وموضوعه كتاباً إنسانياً يضع المبادىء والمناهج للبشر كله ، ويشرع الأحكام والأنظمة للانسانية جمعاء .

ولقد مر بك في أسباب النزول نماذج كثيرة من الآيات التي نزلت بمناسبات

---

(١) الحج : ١
(٢) الاعراف : ٢٦
(٣) يس : ٦٠
(٤) الاعراف : ١٥٨

معينة ورداً أو مدحاً لأشخاص بأعيانهم ؛ ولكنها جاءت بصيغ العموم وبأسلوب موضوعي ودون ذكر اسم لأحد .

من أجل هذا كان من القواعد الفقهية المتفق عليها قولهم : العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

أي إن خصوصية السبب لاتؤثر على عموم الصيغة ولا تضيق شيئاً من عمومها؛ لأن منهج القرآن أنه يبني على الوقائع الخاصة أحكاماً ومبادىء عامة .

★ ★ ★

فلسفة القرآن

عن الكون والإنسان والحياة

في الوقت الذي يعتبر فيه القرآن معجزة اللغة العربية وبيانها ، وكتاباً في التشريع والقانون ، ومعلماً للفضيلة والأخلاق – فإنه يحمل الى الناس أسس حضارة إنسانية شاملة ، وذلك عن طريق المفهوم الذي يقدمه عن كل من الكون والإنسان والحياة ووجه التفاعل والتناسق بينها .

ولا يتسع المجال في هذا المقام لشرح التقرير الذي يضعه القرآن عن كل من هذه العناصر الثلاثة للحضارة في كل زمان ومكان ، فإن من شأن ذلك أن يبعدنا عن الغرض الذي نحن بصدده ؛ ولكنا نتناول من هذا البحث القدر الذي يفي بحاجتنا للتعرف الى هذا الكتاب العظيم ، ويكشف لنا أهم خصائصه ومحتوياته .

نظرة القرآن الى الكون :

القرآن يبصّر الانسان بالكون الذي من حوله على أنه جملة من المظاهر المخلوقة أبدعها الله عزوجل في انتظام وتناسق وتفاعل لغرضين اثنين :

الأول : أن يتأمل الانسان فيه ويتنبه الى مدى دقته وتناسق نواحيه وأجزائه ، ليتوصل من ذلك الى الإيمان بالخالق جل جلاله ، ثم الى إدراك ألوهيته وربوبيته المطلقة ، ثم الى إدراك أنه عبد لهذا الإله العظيم . وهو يقول في بيان هذا الأمر الأول . (إنّ في خلقِ السّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنّهارِ والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفعُ الناسَ ، وما أنزلَ اللهُ من السّماءِ من

ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّةٍ وتصريفِ الرّياح والسحابِ المسخّر بين السماءِ والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون)[1] .

ويقول : (إنّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنّهار لآياتٍ لأولي الألباب ، الذين يذكرُونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون في خَلْقِ السّماواتِ والأرضِ ، ربّنا ما خلقْتَ هذا باطلًا سُبحانك فقِنا عذابَ النار)[2] .

الثاني : أن تكون هذه المظاهر الكونية كلها مسخرة لخدمة الإنسان ومصالحه وحاجاته فوق هذه الأرض ، وأن يجد فيها — بمقدار ما يتسع له ادراكه وعلمه — دواء لمصائبه وحلاً لمشاكله وفائدة لحياته . ومن ثم فإن على الإنسان أن يقبل على الكون تفهماً له واستفادة منه . وفي ذلك يقول الله عزوجل في عبارة عامة شاملة : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)[3] .

ثم يقول في بيان مفصل : (اللهُ الذي خلق السّمٰوات والأرضَ وأنزل من السّماءِ ماءً فأخرج به من الثّمراتِ رزْقاً لكم وسخّر لكم الفُلْكَ لتجريَ في البحرِ بأمرِهِ وسخّر لكم الأنهار ، وسخّر لكم الشّمسَ والقمر دائبَيْن وسخّر لكم الليلَ والنهار)[4]. وقال : (وسخّر لكم ما في السماواتِ والأرضِ جميعاً منّـــه ، إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون)[5]. ومن ثم فإن القرآن يحذّر الإنسان من أن ينظر الى شيء من مظاهر الكون وفوائده المختلفة على أنه شيء يجب الصدود عنه وعدم إشغال الذهن أو الحياة به ، ترهباً أو تزهداً أو تعبداً ، ويقول : (قُل من حرّم زينةَ اللهِ التي أخرج لعبادِهِ والطيباتِ من الرّزق)[6].

---

(١) البقرة : ١٦٤

(٢) آل عمران : ١٩٠و١٩١

(٣) البقرة : ٢٩

(٤) ابراهيم : ٣٢ و ٣٣

(٥) الجاثية : ١٢

(٦) الاعراف : ٣٢

وإذاً ، فجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنه خادم أمين مسخر للانسان ، يستفيد منه الانسان بمقدار ما يتأمل فيه ويستبطن ظواهره . وكلمة « التسخير » من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستمرة الدائبة ؛ وأن على الانسان أن يستفيد منه ويسخره لصلاحه في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي .

نظرة القرآن الى الانسان :

الإنسان في القرآن مخلوق يحمل أخطر مميزات وصفات يحملها مخلوق على الاطلاق . هذه المميزات هي : جملة الصفات الانسانية المركبة فيه ، من العقل وما يتفرع عنه من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر أغوارها ، والأنانية وما يتفرع عنها من النزوع الى الأثرة والمنافسة والتملك ، والقوة وما يتفرع عنها من حب العظمة والنزوع الى السيطرة والكبرياء . ونظراً لما لهذه الصفات من الخطورة والأهمية ونظراً لكونها أسلحة ذات حدين : إن استعمل أحدها جاء بالتنظيم العظيم للكون والخير الوفير للانسان ، وإن استعمل الآخرُ أو استُعملا معاً جاء بالشر الوبيل والفوضى الهائلة للحياة ــ نظراً لذلك أطلق القرآن على هذه الصفات اسم الأمانة فقال : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولا)[1]. والذي اقتضاه حمل هذه الصفات كلها ، أو حمل هذه الأمانة ، أنه لم يكن يستطيع بغيرها تسخير شيء من مظاهر الكون .

والإنسان في القرآن ، خليفة الله عزوجل في الأرض ، أي أنه عزوجل شاءت قدرته وحكمته أن يكون الإنسان مظهراً لعدالته ، وأن يكون هو لسان الكون الناطق بحمده وتسبيحه والإيمان به ، وذلك عن طريق تنفيذ أوامره وتطبيق شرعه والاهتداء الى ألوهيته ووحدانيته . وفي بيان هذا يقول الله وهو يقص علينا بدء خلق الإنسان:(واذ قال ربُّك للملائكة اني جاعلٌ في الأرض خليفةً ..)[2]. ويقول مخاطباً الإنسان (أمّن يُجيبُ المضطرّ إذادَعاهويكشفُ السُّوء ويجعلكمُ خلفاءالأرض)[3]. وهذه

(١) الاحزاب : ٧٢ هذا ويجدر بالقارىء أن يرجع إلى مقال كتبته في مجلة حضارة الاسلام الدمشقية العدد ٩ من السنة الثامنة ، تحت عنوان:مسئلتان وجوابها . ففيه تحليل واف بهذا الموضوع الهام الذي أجملناه هنا بهذه الأسطر القليلة .

(٢) البقرة : ٣٠ (٣) النمل : ٦٢

الآية الثانية وان كانت تحمل معنى آخر هو : جعلناكم تتوارثون عمارة الأرض وسكناها ، الا أن كلا المعنيين صحيح ومراد كما قال المفسرون .

والإنسان في القرآن ، بعد هذا موصوف بصفتين : واحدة منها لبيان أصله وحقيقته ، كي لا يطغيه شيء من صفاته التي تحدثنا عنها ، ولا يتجاوز بها حدود عبوديته لله عز وجل . والثانية لبيان مركزه من هذا الكون كله ومستواه بين الخليقة أجمع .

ففي صدد بيان الصفة الأولى ، يقول الله عز وجل (فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق . خُلِق من ماءٍ دافق يَخْرُجُ من بَيْنِ الصُّلبِ والتَّرائب)[1] ويقول (أولم يَرَ الإنسانُ أنّا خلقناه من نُطْفةٍ فإذا هُوَ خَصيم مبين)[2] ويقول (واللهُ أخرجكم من بُطونِ أمهاتِكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدة لعلَّكم تشكرون)[3] .

وفي صدد بيان الصفة الثانية يقول (ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهم من الطَّيِّباتِ وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلًا)[4] .

والإنسان في القرآن ، أخيراً ، عبد لله ، خلق ليكون مظهراً لألوهية الله عز وجل . وما صفة الخلافة فيه وتكريمه على سائر المخلوقات وتسخير الكون له إلا وسيلة لأن يحقق عبوديته لله تعالى بالكسب والممارسة والاختيار كما خلقه عبداً له بالجبر والاضطرار وفي بيان ذلك يقول (وما خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ما أريد منهم مِّن رزقٍ وما أريد أن يُطعمون)[5] .

---

(١) الطارق : ٥ و ٧

(٢) يس : ٧٧

(٣) النحل : ٧٨

(٤) الاسراء : ٧٠ .

(٥) الذاريات : ٥٦ و ٥٧

نظرة القرآن إلى الحياة :

القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من جانبين :

الجانب الأول من حيث قيمتها الحقيقية ، وعلاقتها بما وراءها ، ومركزها من قصة الوجود بأسره والحياة كلها .

الجانب الثاني من حيث مايجب أن يكون عليه حالة الانسان تجاهها ، ومدى ماينبغي أن يستفيده منها .

فالحياة الدنيا — من حيث قيمتها الحقيقة — حياة فانية ، وظل زائل ، ومعبر إلى الحياة الباقية الأخرى والقرآن يظل يلح على بيان هذه الحقيقة وتجسيدها وتنبيه الناس اليها . فيقول مثلاً (إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعب ٌولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حُطاماً)[1] ويقول : (وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور)[2] .

أما الحياة الدنيا — من حيث ماينبغي أن تكون عليه علاقة الانسان بها — فهي وسيلة إلى تقويم معاشه ومعاده ، وسبب لابد من مباشرته لإصلاح أمره واسعاد نفسه وبني جنسه . ولذلك فالقرآن يأمر الانسان بالاستفادة من الحياة ، على أن لاتكون همه الأول ، وعلى أن يتخذ منها وسيلة للغاية الكبرى التي خلق من أجلها ، وسببا يضمن لنفسه به السعادة الآخرة . فهو يقول في هذا الصدد (وابتغ فيما آتاك اللهُ الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)[3] ويقول محذراً من معارضة الفطرة الانسانية بالانقطاع عن متعة الحياة الدنيا وطيباتها (يا أيها الذين آمنُو لا تُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لكم ولا تعتَدُوا إنَّ الله لا يُحبُّ المعتدين وكُلوا مما رَزقكُمُ اللهُ حلالاً طيبا واتَّقوا اللهَ الذي انتمُ به مؤمنون)[4] ويقول (ليس عليكُم جناحٌ أن تبْتغوا فضْلًا مِّن ربكم)[5] .

---

(١) الحديد : ٢٠

(٢) آل عمران : ١٨٥

(٣) القصص : ٧٧

(٤) المائدة : ٨٧ و ٨٨

(٥) البقرة : ١٩٨

وهكذا ، يأمر القرآن الإنسان بالإقبال على الحياة للتمتع بطيباتها والاستفادة من نعيمها ، على أن يقف قبل ذلك على حقيقة هويتها ، ويصحو من الاغترار بظهرها ؛ وذلك كي يكون هو المسيطر عليها والمسير لها إلى ما تقتضيه مصالحه وسعادته ، ولا تكون هي المسيطرة عليه أو المسكرة له فيغرق في نعيمها وينسى أي معنى للوجود من ورائها .

. . .

فإذا ما تأملت في هذا التقويم القرآني ، لكل من الكون والانسان والحياة أدركت أن محور المخلوقات كلها في الرتبة والأهمية إنما هو الإنسان ، وأن الغاية التي خلق من أجلها أن يكون مظهراً لحكمة الله تعالى وعظمته وعدالته في الأرض بما يلتزمه من منهج العبودية له تعالى ، وأن محور الوجود كله إنما هو الدار الآخرة فالدنيا بكل ما فيها والحياة بكل صورها وأشكالها مقدمة بين يدي تلك الحياة الأبدية الأخرى ، تلك الحياة التي لا تكاد تجد صحيفة من القرآن خالية عن التذكير بها والتحذير من جحودها .

فتلك هي أسس الحضارة الانسانية التي جاء بها القرآن ، والتي أرادها للانسانية دستوراً ومنهجاً في هذه الحياة .

هل من الممكن ترجمة القرآن

تحدث العلماء عن ترجمة القرآن من النواحي التالية :

أولاً : هل من المستطاع ترجمة القرآن إلى لغة أخرى ؟

ثانياً : إذا كان ذلك مستطاعاً فهل يجوز الإقدام عليها شرعاً ؟

ثالثاً : وإذا جاز ذلك شرعاً فهل تقوم الترجمة مقام القرآن الأصلي ، في التعبد بتلاوتها وفي صحة الصلاة بها ؟

فأما الحديث عنها من الناحيتين : الثانية والثالثة ، فهو مما يهم الباحث في الشريعة الاسلامية وأحكامها ، وليس كتابنا هذا — كما قد علمت — موضوعاً لبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بكتاب الله تعالى .

ولكن الذي يتعلق بغرضنا في هذا الكتاب ، هو التحقيق في الناحية الأولى من هذه المسألة ، وهي : هل من المستطاع أن يترجم القرآن إلى أي لغة أخرى ؟

ولا ريب أن الإجابة على هذا السؤال إنما تعتمد على دراساتنا السابقة للغة القرآن وأسلوبه وخصائصه التعبيرية والبلاغية .

غير أنه ينبغي لنا قبل أن ندخل في الاجابة على هذا الموضوع ، أن نعرّف الترجمة ، ونوضح الفرق بينها وبين التفسير ، فكثيراً ما يقع الوهم في معالجة هذا البحث بسبب التباس هاتين الكلمتين على الباحث وتداخل مفهومها عنده .

والكلمتان — في الاصطلاح الذي نحن بصدده — مختلفتان في المفهوم والمدلول وبينهما فرق كبير في المعنى ، وان وقع التوسع والتسمح فيها عند إرادة المعنى اللغوي العام [1] .

---

(١) انظر مناهل العرفان : ٢/٦ وما بعدها

فاما الترجمة : فهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى عن طريق التدرج من الكلمات الجزئية إلى الجمل والمعاني الكلية . أي أن الوسيلة التي تتبع في نقل المعنى العام – عند الترجمة – هي نقل معنى كل كلمة على حدة والتعبير عنه بكلمة مقابلة ، ثم تركيب مجموع الكلمات وتأليفها حسب المعروف في اللغة المترجم إليها .

أما التفسير : فهو نقل المعنى القريب أو البعيد المقصود من الألفاظ ، إلى لغة أخرى مختلفة ، أو إلى ألفاظ أخرى في نفس اللغة ، دون النظر إلى الألفاظ الجزئية التي تألف منها المعنى واتضح بها المقصود .

وبذلك تعلم أن الترجمة تختلف عن التفسير ، في نقطتين أساسيتين :

أولاهما : الاهتمام بالكلمة والأداة التعبيرية في الترجمة دون التفسير .

والثانية : أن الترجمة لا تكون إلا نقلاً لمعنى الألفاظ من لغة إلى لغة أخرى ، في حين أن التفسير يكون كذلك ويكون تعبيراً عن المعنى بألفاظ أخرى في نفس اللغة .

وهناك فروق ثانوية أخرى بين الكلمتين لا داعي إلى اطالة البحث بذكرها في هذا المقام [1] .

• • •

بعد بيان الفرق بين الترجمة والتفسير نعود فنقول :

أمن الممكن أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى ؟

والجواب : أن ذلك مستحيل ، وإذا وقع ما قد يسمى ترجمة من حيث الصورة ، فهو في الحقيقة ليس إلا تشويهاً لمعاني القرآني ، وتلبيساً للمقصود بغيره وتمزيقاً لأحكامه وحججه .

وإنما أسرعنا في الحكم بهذا الشكل ، لأنه نتيجة بدهية لدراساتنا السابقة عن

(١) أنظر هذه الفروق في كتاب مناهل العرفان : ٢/١٠

أسلوب القرآن ومنهجه وخصائصه ، وجدير بمن وقف على كل ما قد ذكرناه وأوضحناه أن يعلم بنفسه هذه النتيجة ويدركها .

فقد تبيّن لك مما مضى أن القرآن يتبع منهجاً فريداً في التعبير عن المعاني ، وهو منهج تجسيد المعاني وتصويرها أمام مخيلة القارىء ، وهو كما قلنا منهج مطرد في القرآن يظهر في كل أبحاثه ومواضيعه .

كما تبيّن لك أنه يعبر عن المعاني المتعددة المختلفة بلفظة واحدة ، وهي ظاهرة تتجلى في الكثير من آيات القرآن وألفاظه ، وقد مرت بك أمثلة كثيرة لذلك عند حديثنا عن أسلوب القرآن وإعجازه .

وبدهي أن منهجاً تعبيرياً بهذا الشكل ، يستعصي على الترجمة . إذ الترجمة كما قلنا هي نقل المعنى العام من خلال نقل معاني الكلمات الجزئية . والكلمات الجزئية التي تتألف منها الجمل القرآنية ، إنما تصور المعنى المقصود – على الغالب – بأسلوبها وليست تنقل المعنى المراد بدلالاتها اللغوية الأصلية المجردة .

فإن ذهبت تنقل معاني الكلمات ، مع ذلك ، كما هي ، تألّف لك منها معنى آخر غريب غير مقصود ولا صحيح إطلاقاً .

وإن ذهبت تتجاهل الكلمات ، وتهتم بالمعنى العام المقصود من وراثها عن طريق التجسيم والتخيل وما إلى ذلك ، فقد تحولت عن الترجمة إلى التفسير . وهو بحث آخر .

فالقرآن الكريم مثلاً يقول (ولا تجْعلْ يدَك مغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبسُطها كلَّ البسْطِ ، فتقعُد ملوماً محسوراً) [1] وأنت ترى أن الألفاظ هنا ، ليس شيء منها يدل على المعنى المقصود بطريق الدلالة اللغوية الأصلية ، وإنما هي تكشف عن المعنى المراد بواسطة التصوير والتخيل ، والاداة المستعملة لذلك جملة من المجازات والتشبيهات والاستعارات المختلفة . فكيف يمكنك أن تترجم هذه الآية

---

(١) الاسراء : ٢٩

ترجمة سليمة لا تفسد المعنى ولا تخرج عملك فيها من الترجمة إلى التفسير ؟!.

والقرآن يقول : (نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) [١] وقد مر بك أن « مقوين » تحمل معنى : الجائعين ، المقيمين في البيداء ، المستمتعين . ويقول (أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً) [٢] و « قراراً » بيان لكل الأسباب التي بها أمكن أن يستقر الانسان على الأرض ، ويقول (والأرض بعد ذلك دحاها) [٣] ودحى بمعنى : وسّع ، وبسط ، وكوّر ،ودوّر ، كما قد مر بيانه فيما مضى . وقال عن وصف الخمرة في الجنة (لا يصدّعون عنها ولا ينزفون) [٤] وقد نفى بهاتين الكلمتين جميع عيوب الخمرة المعروفة من ذهاب بالعقل وإذهاب للمال ، ونفاد للشراب ، وتقزز من طعمه وحرقته .

فكيف يتأتى ترجمة هذه الألفاظ الى الفاظ أخرى تحمل نفس المرونة في الدلالة ، وتحمل نفس المعاني المختلفة المتنوعة التي لابدّ من دلالة اللفظ عليها جميعها لتتم الترجمة ، إذ هذه المعاني كلها مقصودة معاً في البيان القرآني ؛ مع العلم بأنك لو رحت تشرح دلالات كل لفظة في شرح مطول من الألفاظ والبيانات ، فأنت حينئذ مفسر ولست بمترجم .

وإليك مايقوله في بيان هذا المعنى ابن قتيبة رحمه الله :

« .. وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ، ولذلك لايقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الانجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله تعالى ، لأن العجم لم تتسع في المجاز إتساع العرب » .

« ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى (وإمّا تخافَنّ من قَوْمٍ

---

(١) الواقعة : ٧٣

(٢) النحل : ٦١

(٣) النازعات : ٣٠

(٤) الواقعة : ١٩

خيانةً فانبِذْ إليهم على سَواء) [1] لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ماشرطت لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على إستواء » .

« وكذلك قوله تعالى (فَضَربْنا على اذانِهم في الكهْفِ سنينَ عدداً) [2] إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت : أنمناهم سنين عدداً ، لكنت مترجماً للمعنى دون اللفظ » .

« وكذلك قوله تعالى (والـذين إذا ذُكّروا بآيات ربّهم لم يَخِرُّوا عليْها صُمّاً وعُمْيانا) [3] إن ترجمته بمثل لفظه استغلق وإن قلت : لم يتغافلوا ، أديت المعنى بلفظ اخر » [4] .

• • •

فإذا أدركت أن ترجمة القران غير ممكنة بمعناها الصحيح ، علمت الجواب عن الناحيتين الثانية والثالثة لهذه المسألة أيضاً . ذلك أن الشيء الذي لايستطاع إنجازه يعتبر باطلاً من حيث وجوده ، ويعتبر محرماً من حيث ممارسته لما فيه من الفساد والإفساد . وإذا كان الأمر فيه كذلك فلا شك أنه لايصح التعبد بالترجمة ولا تصح الصلاة بها . ولا داعي إلى أن نطيل في ذلك من النواحي الشرعية ؛ بعد أن عرفت فساد الأمر من الناحية اللغوية ومن حيث الامكان .

• • •

بعد هذا نقول : إن المتأمل ليعجب ، عندما يرى – مع وضوح هذا الذي

---

(١) الانفال : ٥٨

(٢) الكهف : ١١

(٣) الفرقان : ٧٣

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص :

ذكرناه ـ دعوة ملحة ، لاتزال تنبع من ههنا وهناك ، تنادي بضرورة ترجمة القرآن إلى اللغات المختلفة ، وتحتج لذلك بالضرورة الداعية الى إطلاع الأمم المختلفة على حقائق القران وأحكامه ومحتوياته . وهي دعوة بدأت تلحّ وتشتد وتجادل عن نفسها منذ أوائل عهد الاحتلال البريطاني لمصر (١) بزعم حاجة العالم الاصلاحية إلى ذلك !..

فإن كان المقصود ، إطلاع العالم على حقيقة القرآن وعظمته . فإن القرآن ليس قرآناً إلا من حيث إنه كتاب عربي مبين ، وقد علمت في أول هذا الكتاب أن القرآن هو : اللفظ المنزل على رسول الله ﷺ ، واللفظ الأعجمي ليس هو الذي أنزل ، فهو ليس بقرآن ألبتة . وأما عظمته وروعته ، فإن شيئاً من ذلك لايبقى أو يظهر عند تقديمه مترجماً إلى الناس ، بل يظهر منه عند ذلك ، معان سقيمة مشوهة وتعابير غريبة غير مفهومة . فلا القرآنية تبقى لدى الترجمة ولاعظمة القرآن تتجلّى وتظهر .

وإن كان المقصود ، أن تطلع الأمم المختلفة على ماتضمنه القرآن من مبادىء وشرعة وأحكام ، فإن ذلك يمكن أن يتم بأجلى مظهر وبأيسر طريق ، إذا مافسر القرآن تفسيراً وافياً واضحاً باللغة المطلوبة ؛ فالتفسير هو الذي يفي بهذا الغرض لا الترجمة المزعومة .

وهكذا ، يتجلى للمتأمل ماتنطوي عليه هذه الدعوة العجيبة من الدخيلة والريب . وحسبك دليلًا على ذلك أن تعلم أن الحاجة إلى مايسمى بـ (ترجمة القرآن) لم تظهر عند أي فئة من الناس ولم يدع إليها أي مفكر أو باحث ، خلال القرون المنصرمة كلها ، الى هذا القرن الذي نحن فيه ، مع أن الأسباب التي يُتذرع بها اليوم كانت موجودة بأجلى المظاهر بالأمس .

(١) يجدر بالقارىء أن يرجع إلى مجلة الأزهر (نور الاسلام) السنة الثامنة : العدد الثاني وما بعده ، ففيها إثارة لموضوع ترجمة القرآن ، أثاره الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر إذ ذاك ، وناقشه في ذلك جمهور كبير من الكتاب والباحثين . ومعلوم أن مصطفى المراغي نصب شيخاً للأزهر بعد (الإصلاح) الذي أدخل عليه بتخطيط من اللورد كرومر إذ ذاك . راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، ومقدمة كتاب تجربة التربية الاسلامية في ميزان البحث لمؤلف هذا الكتاب .

القسم الثالث

دراسات تطبيقية

تمهيد

والآن وقد انتهينا من عرض هـذه الأبحاث النظرية المتعلقة بكل من تاريخ القرآن وعلومه ، ومنهج القرآن وأسلوبه ؛ نستعيد صورة ذلك كله في نماذج من النصوص القرآنية ، نأخذها من مختلف المواضيع والأبحاث ، ونشرحها شرحاً يجلي لنا حقيقة كل ماقد ذكرناه .

وعملنا الأخير هذا ، هو المقصود من كل ماأسلفنا الحديث عنه ، فليس يكفي أن تعي الذاكرة مسائل شتى من أبحاث علوم القران وآدابه ، مع البعد عن فهم النصوص القرآنية ذاتها ، فضلًا عن التزطن والتكسير في قراءتها .

ومن هنا تعلم أن الذي هو أهم من معرفة معاني النصوص القرآنية ، معرفة تلاوتها وإتقان أدائها . وليس في الأمور المستهجنة والمستقبحة شيء أهجن وأقبح من منظر إنسان يزعم أنه أديب يعلم العربية وآدابها ، ومع ذلك فهو يدير بين فكيه لساناً أعجمياً لدى قراءة القرآن ، لايضبط أصله تلاوة ولا يتقن وصفه ترتيلًا وأداء !..

وما رأيت شيئاً أبعث للغثيان في النفس من مظهر ذاك الذي يقف من وراء المذياع فيصطنع الجلال والضخامة العربية في صوته ، فإذا ماأراد أن يقرأ آية من القرآن ، التوى عليه لسانه وراح يتعثر في تلاوتها العثرات المضحكة المتوالية ! ..

إنني أهيب باخواني الذين يهتمون بدراسة العربيـة وآدابها ، أن يبذلوا أقصى ما لديهم من جهود في سبيل التخلص والانعتاق من الرطانة اللغوية العالقة بألسنة كثيرين منهم ، وهم أولئك الذين لم يتوفروا على الاكثار من تلاوة القرآن في عهد

الصبا حتى تصقل بذلك ألسنتهم وتنطبع بالطابع العربي نطقاً وأداءاً . وإلا فإن كل جهودهم الأخرى تظل مشوهة ناقصة معيبة .

وبعد فقد اخترنا خمسة نصوص من الكتاب المبين للدراسة التطبيقية ، وأردنا أن يكون كل منها نموذجاً لموضوع معين من المواضيع القرآنية . فاخترنا نصاً في (الإلهيات) وأخر في (الوصف) ، وثالثاً في (المبادىء والانسانيات) ورابعاً في (القصص) وخامساً في (الحجاج والنقاش) . وعليك أن تعكف بعد ذلك على مختلف كتب التفسير القديمة والحديثة لتواصل السير ولتتم دراستك التطبيقية لكتاب الله كله ، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير .

في الإلهيات

(من سورة الرعد ، من آية : ٨ الى آية ١٤)

قال الله عز وجل (اللهُ يعلَمُ ماتحمِلُ كلُّ أنثى وماتغيضُ الأرحامُ وما تزْدادُ وكلُّ شيء عنْدهُ بمقْدار . عالِمُ الغيبِ والشَّهادَة الكبيرُ المُتعَالْ . سواءُ منكُمْ منْ أسرَّ القوْلَ ومنْ جهَر به ومنْ هو مُستخْفٍ بالليْلِ وساربٌ بالنَّهار . لَه مُعقبِّاتٌ منْ بين يديْه ومِنْ خلْفِه يحفَظُونَه منْ أمرِ اللّه انَّ اللهَ لايغيِّرُ ما بِقَوْم حتى يُغيِّروا مابأنفُسِهم واذا أرادَ اللهُ بقومٍ سُوءاً فلا مردَّ له وما لهُم من دُونِه مِن وَّال . هو الَّذي يُريكمُ البرْق خوفاً وَّطمعاً وَّيُنشِئُ السَّحابَ الثِّقالْ . ويُسبِّحُ الرَّعْدُ بحمده والملائكةُ مِنْ خِيفَته ويرْسِلُ الصَّواعِقَ فيُصيبُ بها من يَّشاء وهمُ يجادِلوُن في الله وهُوَ شديدُ المحَال . له دعْوةُ الحق والذين يدْعُون من دُونِه لايستْجيبُون لهم بشيءٍ الا كباسِطِ كفَّيْه الى الماء ليَبْلُغَ فاه وما هُو ببالِغه وما دُعاءُ الكافرين الا في ضَلال).

تعريف عام بالآيات :

هذه الآيات تأتي بعد قوله تعالى متحدثاً عن الكافرين : (وإن تعجبْ فعجبٌ قولهُم أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلْقٍ جديد !) فهي ردٌّ على تعجبهم من أن يبعثوا مرة أخرى الى الحياة بعد أن تتفتت أجزاء جسومهم في طوايا التراب ؛ والآيات ترد على عجبهم وتستنكره من خلال عرض صفتين من أهم صفاته الالوهية في ذاته سبحانه وتعالى .

الصفة الأولى : أنه مطلع على دقائق الأشياء كلها لاتخفى عليه منها خافية مهما

صغرت وتضاءلت ومهما اختفت من خلف الغياهب والحجب ، ومنها ذرات جسوم الناس بعد ضياعها في بطن الأرض أو في جوف البحار .

الصفة الثانية : قدرته الباهرة وسطوته القاهرة ، اللتين بهما دخل الكون كله تحت سلطانه . ففيم العجب من أن يعاد الناس الى خلق جديد بعد موتهم ، وقد أخبر بذلك من خلقهم أول مرة ، ومَن يعلم أين تذهب كل ذرة من جسومهم ، ومن كان الكون كله داخلًا تحت نطاق قدرته وسلطانه .

شرح الآيات :

● تبدأ الآية الاولى ببيان أن الله عز وجل لاتخفى عليه خافية ، وأنه يرى ويعلم كل غيب مجهول وكل ضائع مستور . فيجسد حقائق الغيب في أبرز نموذج له لايزال الانسان يرى فيه أول مثال للمجهول الذي لاولن يطوله علم الانسان واطلاعه ، وهو تخلق المولود في رحم الانثى بدءاً من أول مرحلة فيه الى آخرها ؛ ثم يثبت البياني القرآني أن الله هو وحده المطلع على هذا الغيب العالم بأمره وحقيقته . وذلك كناية عن أن الله عز وجل مطلع على كل غيب وخافية ، اذ كان غيب مافي الارحام أبرز نموذج لها .

ولك في تقرير هذا المعنى أن تعتبر « ما » المتكررة في الآية موصولة ومصدرية ؛ ولا ريب أن المصدرية أبلغ في الدلالة . والمهم أن تتأمل الشمول الذي يتجلى في قوله « كل انثى » : شمول بواسطة الاداة ، وشمول في عموم الانثى ، ثم أن تتأمل الصورة التي ترسمها في الذهن جملة « وماتغيض الارحام وما تزداد » . والغيض هو النقصان ، يأتي فعله لازماً ومتعدياً . تقول : غاض ماء البئر وغضت من مائه ، فالله يعلم كل ماينقصه الرحم أو يزيده في جثة المخلوق أو في مدة حمله له . وهو معنى واسع دلت عليه الآية كما ترى بجملة صغيرة ذات دلالة تصويرية معينة .

ولكن هل الامر في هذا بالنسبة لله عز وجل مجرد علم واطلاع ؟ يجيب آخر الآية على هذا السؤال الذي يثيره أوّلها بقوله عز وجل : وكل شيء عنده بمقدار . فليس ماقد يتخلق في الرحم من شتى المخلوقات ، وليس ماقد يعتريه من غيض أوفيض في الجثة أو الزمان – ليس شيء من ذلك مظهراً لصدفة أو اضطراب أو تحول

ذاتي يأتى كما يتفق له ؛ بل كل ذلك انما يتم وفق نظام شامل دقيق وطبق ارادة الهية جازمة . وانظر كيف عبر البيان القرآني عن هذا بقانون الهي شامل يعم شأن الخلق والكون كله ، لكي تفهم أن تقلب حال المخلوق في الرحم ليس مردّه الا الى قانون تنظيمي للكون كله .

● ثم تأتي الآية الثانية لتضع القاعدة العامة : عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

غيب وشهادة : مبالغة عن غائب ومشاهد ، فالأول منهما مالا يقع تحت ادراك شيء من الحواس ، والثاني مايخضع لحاسة منها . واليهما تنقسم موجودات الكون كله . فمن أنبأك بأنه لايؤمن الا بما يقع تحت حسه فاعلم أنه لايؤمن الا بشطر من الموجودات .

غير أن الإنسان لانحباس كيانه ضمن سلطان حواس معينة محدودة ، لا يدرك مباشرة من الموجودات إلا ما تبصّره به هذه الحواس . والله وحده هو الذي يستوى في علمه الغائب والشاهد .

وانت تبصر كيف أن الآيه جاءت خبراً لمبتدأ محذوف ، اقتضى حذفه التهويل والتعظيم ، إذ الآية الاولى من شأنها أن تملأ فكر القارىء المتدبر بعظمة الله تعالى ومظهر ربوبيته ، فالمبتدأ ماثل في الذهن لم يغب عن الخاطر والبال ، وتأتي الآية الثانية خبراً جديداً يؤكد ما استقر في الذهن من عظمة الإله جل جلاله .

● أما الآية الثالثة ، فتجسد كلًا من الغيب والشهادة في مثالين ، وتكشف للمتأمل كيف أن المثالين والحالين مستويان في علم الله واطلاعه : «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار» . فالمثالان الأولان ، ما تسره من القول في نفسك وما تجهر بـه بلسانك ، إن الامرين والحالين سواء في علم الله عز وجل ، انه يسمع خلجات نفسك كما يسمع صوت كلامك . والمثالان الآخران : ذاك الذي أخفى نفسه في مكان مستور ضمن ستر آخر من ظلام الليل ، وذاك الذي يسير بارزاً في طريق مكشوفة تحت وضح النهار ، فليس الفرق بينهما موجوداً إلا في حساب المخلوقات ؛ أما الله عز وجل فكلاهما في علمه سواء .

وتأمل في الطريقة التصويرية الدقيقة التي تعبر بها الآية : مستخف بالليل ، ادخل الهمزة والسين على الفعل ليصور لك شدة الطلب والبحث عن وسائل الاختباء والاختفاء المختلفة ، فضلاً عن أن الليل بطبيعته ساتر ، ثم : سارب بالنهار ، كلمة تصور لك الشيء اذ يسرب على وجه الأرض ظاهراً بارزاً ، فأنت تقول : سرب الماء ، أي جرى في سجيته على وجه الأرض متشعباً يبرق ويلمع . والكلمة ، زيادة على ما فيها من جمال التعبير تصور لك شدة وضوح وظهور هذا الإنسان مقابل شدة اختفاء واستتار ذلك الآخر ، تقريراً لتساويهما في احاطة الله وعلمه .

● أما الآية الرابعة فتأتي تأكيداً لما تضمنته الآية التي قبلها . فهي توضح أن الله عز وجل ليس مطلعاً فقط على الغيب والشهادة ، بل إن له ملائكة حفظة يتعاقبون على هذا المختبىء في تلافيف الظلام والسارب في وضح النهار ، من قبل الله عز وجل وبأمره يحيطون به رعاية وحفظاً ويحصون افعاله واقواله كتابة وتسجيلاً فهذا هو معنى قوله عز وجل : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . فالضمير في له عائد الى الله عز وجل ، والمعقبات صفة للملائكة المحذوفة وهو جمع معقّبة ، ومعقبة جمع معقب . فالكلمة جمع الجمع ، والضمير في يديه عائد الى الإنسان المفهوم من الآية السابقة ، والجار والمجرور في : من أمر الله متعلق بيحفظونه على أن من للسببية ، أي يحفظونه بسبب أمر الله لهم بذلك .

ومع سياق الحديث عن رعاية الله للانسان وحفظه له في غدوّه ورواحه ، تذكر الآية قاعدة جرت عليها سنة الله في الكون : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . أي ان الله عز وجل لا يغير ما تلبّس بقوم من النعمة وما قد حف بهم من الرعاية التي وصفها ، حتى يغيروا ما قد استقر في نفوسهم من فطرة الاستقامة على الحق ، التي فطر الله الناس عليها ، فيجنحوا الى نقائضها من الآثام والشرور . واذا تأملت في صياغة هذه الجملة ودقة سبكها ووجيز ألفاظها مع شمول واتساع معناها ، رأيت من ذلك عجباً لا ينتهي الا عندما تتذكر أنه بيان الله وكلامه المعجز .

ولما كانت هذه القاعدة تحمل في طيها الوعيد والإنذار الى جانب ما فيها من الوعد والتبشير ، أعقب ذلك بما يؤكد هذه الحقيقة من بيان مدى قدرة الله تعالى التي لا تغلب ولا تقهر ، فقال : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال » . أي انهم اذا غيروا ما بأنفسهم من الخير واستبدلوا به الانحراف والشر ، فأراد الله عز وجل بهم سوءاً من أجل ذلك ، فلا ردّ لقضائه وحكمه وليس لهم غيره من مفرّ وملاذ . فليفروا الى الله في عبودية وضراعة وليصلحوا ما أفسدوه من نفوسهم ان أرادوا أن يكشف عنهم السوء والبلاء .

ومع اثبات هذه الحقيقة ، تتهيأ المناسبة للانتقال من الحديث عن الصفة الأولى من صفتي الألوهية التي تعرضها هذه الآيات ، وهي صفة « اطلاعه على كل خافية وغيب » الى الحديث عن الصفة الثانية وهي « عظيم قدرة الله تعالى وباهر سلطانه » فتأتي الآيات التالية مشتملة على أمور فيها دلائل على قدرة الله تعالى وعظيم تدبيره أمور فيها مظاهر من النعم والإحسان الى جانب ما فيها من مظاهر القهر والتخويف وهي واقعة موقع التأكيد لما تضمنه قوله تعالى : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، من الوعد والايعاد ، والتخويف والإطماع .

● وأول أمر من هذه الأمور الدالة على قدرة الله تعالى ، آيتان كونيتان لا تزالان تنبهان الى قدرة الله تعالى وباهر حكمته ، هما الرعد والبرق : هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينشىء السحاب الثقال .

لم يعبر بالاسم الظاهر ، كي لا ينفصل الكلام عن سابقه ، ولكي يستجمع الضمير : « هو » في الذهن جمع الصفات التي سبق ذكرها في الآيات الماضية ، فيضيف إليها مظاهر أخرى من باهر القدرة وجليل التدبير . وقال : يريكم البرق. هكذا : يريكم .. لتصور لك الجملة بل الكلمة لمعة البرق الخاطف أمام عينيك ، حتى إذا قامت الصورة في خيالك ، أضافت الآية منبهة أن ذلك إنما يكون تخويفاً مما قد يعقبه من الصواعق المحرقة ، أو الأمطار المغرقة ، وتطميعاً لما قد يبشر به من الغيث المفيد . فخوفاً وطمعاً منصوبان على أن كلا منهما مفعول لأجله ، إما

على تقدير : إرادة الخوف والطمع ، أو على تقدير : تخويفاً وتطميعاً . ولعل هذا أقرب ما قد يقال من وجوه الاعراب في هاتين الكلمتين .

وينشىء السحاب الثقال : يخلقها من لا شيء ، فتنسحب في الجوّ تتألف وتتراكم وقد أثقلها ما تحمله إلى الأرض من المياه . وأنت تعلم أن ليس في أصل السحاب ثقل ولا خفة وإنما هو إخراج للمعنى الاعتباري المجرد في مظهر متخيّل محسوس .

● أما الآية التي بعدها ، فتتألف من عدة جمل ، كل واحدة منها تحضر في الذهن صورة محسوسة مجسمة لجانب من مظاهر ألوهية الله تعالى في آفاق الكون :

ويسبح الرعد بحمده : جملة فعلية فعلها مضارع مصوغ للحال والاستمرار ، بياناً للدوام واستحضاراً للصورة في الذهن ؛ واسند التسبيح إلى الرعد ، ليوضح بأن زمجرة الرعد من خلال السحاب مهما ترجمت إلى لغة مفهومة فإنها إنما تعني تنزيه الله عما يلغو به الجاحدون والمبطلون ، وتعلن عن وجود الخالق العظيم قهار السماوات والأرض .

والملائكة من خيفته : صوّر كيف أنه يتألف تسبيح الرعد المزمجر مع تسبيح الملائكة الخاشعين لعظمة الله وسلطانه ، ليتجلّى فيما بينهما غرور الإنسان الجاهل إذ يظلم نفسه فيمشي مكباً على وجهه بين سمع هذا الكون وبصره غافلاً عن كل هذا الذي يحيط به .

ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء : جملة فعلية ثالثة ، إريد منها كما قلنا استحضار الصورة في الذهن . والصواعق جمع صاعقة ، وهي تلك النار المحرقة التي تنقض في وقع وصوت شديدين . فإذا ما أرسلها الله عز وجل إلى الأرض أهلك الله بها من يشاء . وإنها لمظهر مخيف لعظمة الله تعالى وقوة سطوته مهما جمّعت حول هذه الظاهرة من التعليلات الطبيعية والعلمية ، فإن كل مظاهر البطش والجبروت الأخرى خاضعة أيضاً لسلسلة العلل والاسباب الجعلية المخلوقة .

وهم يجادلون في الله : جملة أخرى صدّرت بواو الحال ، فهي حال من الكفرة الذين تضمنهم الخطاب في قوله : هو الذي يريكم .. والجملة تصور لك عجب أمر

هؤلاء الذين يرون آيات الله كلها ويبصرون دلائل وجوده ووحدانيته ، فيظلون مع ذلك يجادلون في شأن الله : وجوده ووحدانيته وقضية البعث من بعد الموت !!.

وإنما التفت الخطاب عنهم في هذه الجملة إلى الغيبة ، بعد أن كان الكلام موجهاً إليهم مع سائر الناس في الجمل السابقة ـ إيذاناً باسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عن لغوهم وباطلهم الذي يخوضون فيه . وأسند جدالهم إلى الذات الإلهية مع أن الجدال لا يكون في الشيء نفسه وإنما حول حكم متعلق به ، ليشمل كل ما يجادلون فيه وينكرونه مما تنزل به البيان الإلهي المبين .

وجاءت الجملة الأخيرة : وهو شديد المحال ، على وزان التي قبلها ، فهي أيضاً حال .. ولكنها حال من الله عز وجل ، نزّلت من التي قبلها منزلة المقابلة ، لتكون بذلك أقوى تعبير عن الانذار والوعيد ، لأولئك الذين لم تنفعهم الآيات والبراهين والدلائل الكونية المختلفة الناطقة بوجود الله تعالى ووحدانيته ، فظلوا مع ذلك يجادلون عن غيهم وباطلهم ؛ فلئن كان حالهم ، وهم يرون هذه الأدلة كلها ، هي الجدال في الله ، فإن حال الله عز وجل ، مع كل مانشر في الكون من هذه الأدلة ، أنه شديد المحال . أي شديد القوة ، وشديد الأخذ في غفلة وعلى حين غرة ، وشديد القدرة على مكايد الظالمين بابطال كيدهم وأخذهم بباطلهم .

● وآخر ما تعرضه الآيات من الصفات الدالة على عظيم قدرة الله تعالى وألوهيته أنه وحده عزو وجل ، صاحب الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها أي أنه وحده الذي إذا دُعي سمع واجاب الدعوة . فإضافة الدعوة إلى الحق من اضافة الشيء إلى صفته أو جنسه كقولك : كلمة الحق .

أمّا ما قد يُدعى من دون الله عز وجل من سائر المخلوقات ، أيا كان ، فإن دعاءهم باطل لا يُتوقع من ورائه استجابه ولا فائدة . ولما كان الحكم على دعائهم بالبطلان وعدم الاستجابة معنى سلبياً اعتبارياً لا يمكن أن تتجسد له صورة في الذهن ، قلب البيانُ القرآنيُ المعجزُ السلب إلى صورة إثبات مستعملاً لذلك

أداة الاستثناء وصورته ليتجسد مظهر البطلان وعدم الاستجابة في صورة محسوسة متخيلة تتجسد فيها بلاهة أولئك المغرورين وضلالهم ، فقال: « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه» فقد صور لك عدم استجابة الآلهة أو المخلوقات التي تُدعى من دون الله مع استمرار أولئك المغرورين والمبطلين في التعلق بها بحالة ظمآن راح يبسط كفيه نحو ماء بعيد يلمع في قاع بئر أو يبرق له وسط مغارة ليستجيب الماء لدعاء كفيه ويأتي فيبلغ فاه ، وأنى له أن يبلغ ؟ !.. وبذلك تعلم أنه ليس في الآية استثناء حقيقي ولكنه صورة استثناء اقتضاه الاسلوب القرآني العجيب ، وهو إخراج المعنى الاعتباري المجرّد في صورة متخيلة محسوسة يلمسها الشعور بل تكاد تراها العين .

وتُختم الآيات بهذه الجملة الأخيرة : وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . ومعناها العام واضح كما ترى ، ولكن انظر إلى صياغة الجملة وما أحدثه فيها حرف الجر : « في » من الصورة التي تمتد بالخيال في آفاق واسعه محسوسة . أنها تصور لك دعاءهم الباطل وكيف يذهب في دروب ضائعة خاسرة ، إنه كما يقولون : صيحة في واد ونفخة في رماد . وأين هذا المعنى التصويري الرائع مما لو قال : وما دعاء الكافرين إلا ضلالاً ؟ ..

والله سبحانه وتعالى أجل وأعلم .

* * *

في الوصف

(من سورة غافر . من آية ١٠ الى آية ٢٠)

قال الله عزوجل :

(إنّ الذين كفروا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ الله أكبرُ من مَّقتِكم أنفسَكم إذ تُدْعَوْنَ إلى الإيمان فتكفرون . قالوا ربَّنا أمتَّنا اثْنتَيْن وأحيَيْتنا اثْنتَيْن فاعترفنا بذُنوبنا فهل إلى خُروجٍ مِّن سبيل ، ذلكم بأنَّه إذا دُعِي اللهُ وحدَه كفرتم وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا فالحكمُ لله العليِّ الكبير . هو الذي يريكم آياتِه وينزِّلُ لكم مِّن السماء رزقاً وما يتذكَّرُ إلا من يُنيب . فادعُو الله مخلصين له الدِّينَ ولو كره الكافِرون . رفيعُ الدَّرجات ذو العرش يُلقي الرُّوحَ من أمرِه على من يَّشاءُ من عِبادِه ليُنذِرَ يومَ التّلاقِ . يومَ هم بارزونَ لا يَخْفى على الله منهم شيء . لِمن المُلكُ اليوم . للهِ الواحدِ القهّار . اليومَ تُجْزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلمَ اليومَ إنّ اللهَ سريعُ الحساب . وأنذِرْهم يومَ الآزِفَةِ إذ القلوبُ لدى الحناجِرِ كاظِمين ما للظالمينَ من حميمٍ ولّا شفيعٍ يُطاع . يعلمُ خائِنَةَ الأعْيُن وما تُخفي الصُّدور . واللهُ يَقْضي بالحقِّ والذين يدْعُون من دُونِه لا يَقضون بشيء إنّ الله هو السَّميعُ البصير) .

تعريف عام بالآيات :

في الآيات التي قبل هذه حديث عن المؤمنين وعن أن حملة العرش من الملائكة يظلون يستغفرون لهم ويدعون الله لهم بالرحمة وأن يدخلهم جنات عدن التي وعدهم بها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .

ومن عادة الأسلوب القرآني – كما بيّنا – أنه يضع آية الشدة الى جانب آية الرخاء . ويتبع الحديث عن احدى طائفتي المؤمنين أو الكافرين بالحديث عن الطائفة الأخرى ، للأسباب التربوية التي ذكرناها فيما مضى . فناسب أن يُردف الحديث عن المؤمنين ودعاء الملائكة لهم بالحديث عن الكافرين وما يقولون ويقال لهم يوم القيامة . وبعد أن تعرض الآيات لهذه الصورة من حال الكافرين يوم القيامة ، يتناول البيان القرآني وصف يوم القيامة بصورة عامة مخيفة يتضاءل أمر الكافرين وشأنهم من خلال هولها . وتجد أنه أدخل ضمن هذا البيان آيات يتجه فيها الخطاب إلى الناس بالموعظة والتذكير واعداد العدة لهذا اليوم قبل فوت الأوان ، وذلك حسب الطريقة القرآنية المتبعة من إقحام آيات الوعظ والإرشاد والتوجيه خلال المواضيع والأبحاث الأخرى لأسباب تربوية ذكرناها فيما سبق .

شرح الآيات :

● تصف الآية الأولى ، بأسلوب فريد ، مدى كراهية الله للكافرين يوم القيامة ، فتجعل المقياس الموضح لذلك مدى كراهية الكافرين لأنفسهم إذ أودت بهم إلى هذا المصير الهائل الأليم ، وإنها لكراهية شديدة إذ ذاك . إن مقت الله لهم في ذلك اليوم أكبر وأشد من مقتهم الشديد لأنفسهم ومن مقت بعضهم لبعض . ولئن كان سبب مقتهم أنفسهم أنها أودت بهم إلى هذا المصير ، فإن سبب مقت الله لهم أنهم طالما دُعوا في دنياهم إلى الإيمان وظلو يجحدون ويكفرون . فهذا هو معنى قوله : ان الذين كفروا ينادَون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون . أي : لمقت الله إياكم اليوم أشد من مقتكم أنفسكم ، و « إذ تدعون .. » علة لمقت الله عز وجل . وأنت خبير أن مقت الله إياهم ليس خاصاً بذلك اليوم بل هو موجود في الدنيا أيضاً ، ولكن لما ظهر أثره يوم القيامة أسند إلى ذلك اليوم . على أنه يجوز عدم تخصيص المقت إياهم بذلك اليوم وحده ، فتكون الآية بياناً لما استحقّوه من المقت منذ أن كفروا في دار الدنيا .

● وتصف الآية الثانية مدى ذلهم وضراعتهم في ذلك الموقف حيث يقولون : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا » . أي أمتّنا إماتتين اثنتين وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، والإماتتان هما الإماتة السابقة على الوجود في الحياة الدنيا ، والإماتة السابقة على الحشر يوم القيامة . والحياتان هما الحياة التي عاشوها في الدنيا والتي بعثهم الله اليها يوم الحشر . وعبر عن العدم الأول بالإماتة مع أنه عدم أصلي غير مسبوق بوجود ليصور لك أن ذلك إنما هو أيضاً بجعل الله وتقديره ، كما تقول : سبحان من صغر البعوض وعظم الفيل ، مع أن البعوض صغير من أصله .

ويقولون بعد ذلك : فاعترفنا بذنوبنا ، ليمسحوا بهذه الضراعة جحودهم السابق ، وليجعلوا من ذلك تمهيداً وتوطئة لرجائهم الذي يتقدمون به : فهل إلى خروج من سبيل ؟. وأنت إذا تأملت في هذه الجملة وجدتها تصور أبلغ حالات الضراعة والاسترحام والذل : فقد عبروا عن رجائهم بهل وهي — كما تعلم — استفهام عرض ورجاء ، ثم عبر عن الرجوع إلى دار الدنيا بمطلق الخروج من هذا الموقف ، ونكر الكلمة بياناً لتعلقهم الشديد بأي خروج من هذه الورطة ، ونكر السبيل وزاد من تنكيرها وتعميمها بتسليط « من » عليها ، ليصبح المعنى هل إلى أيّ خروج من هذا المأزق سبيل ما من الممكن تصوره ؟.. وهو كما ترى كلام من غلب عليه القنوط واليأس وأسقط في يديه ، فراح يتعلق بحبال واهية من الرجاء والضراعة والذل .

● والآية التي بعدها معرضة — كما ترى — عن الجواب على استرحامهم هذا ، تنبيهاً إلى استحالة مايؤملونه وإلى وضوحه بحيث لاحاجه إلى التحدث فيه والإجابة عنه ، ولكنها تكشف لهم عن علة هذه الاستحالة وسببها ، إذ تقول : ذلكم الذي انتهيتم إليه من العذاب الذي لامردّ له ، إنما هو بسبب أنكم كنتم إذا دعيتم إلى الله في دار الدنيا بادرتم إلى الجحود والكفر ، وإن لاحت لكم دعوة إلى باطل أو شرك سارعتم فيه وآمنتم به .

وتأمل في دقة التعبير القرآني عن هذا المعنى : « ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا » عبر عن حال الدعوة إلى الله بإذا الدالة على التحقيق والتكرار ، وعن حال ظهور الشرك أمامهم بإن الدالة على المصادفة في الوقوع وعدم التكرار ، وعبر بالدعوة في الحالة الأولى وأهمل ذكرها في الحالة الثانية ، ليصور في الذهن مدى ما انتهى إليه حالهم من السوء ، فهم لاينصتون إلى شيء من الحق مهما ذكروا به ودعوا اليه في حين أنهم يسرعون إلى الكفر والجحود مهما لاحت لهم أي صورة منه على البعد .

فمن أجل ذلك ، لامردّ ولا رجوع ؛ والحكم لله العلي الكبير وحده .

● ويلتفت السياق هنـــا ، بعد أن تصوّر القارىء المتأمل رهبة الحشر والحساب يوم القيامة ، وتصور حالة الندم التي يستغرق فيها الكافرون إذ ذاك دون أي فائدة ، لينبه الناس — وإن الوقت لم يفت بعد وإن هذا الموقف لايزال غيباً في علم الله — إلى أن يتداركوا فيصلحوا أحوالهم ويؤمنوا بالحق القائم جلياً أمام بصائرهم . فيقول الله عز وجل مخاطباً عباده في دار الدنيا : « هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب » . فأما الآيات ، فهي تلك الدلائل الجلية على وجود الله ووحدانيته والتي بها تستقر العقيدة الصحيحة في القلب فتتحق مصلحة الدين للناس في الحياة ، وأما الرزق الذي ينزل من السماء فهو كناية عن سببه وهو المطر الذي به تحيا الأرض وتوجد الأرزاق ، والذي به تتحقق مصلحة الدنيا للناس في الحياة ، فالآية تبين أن الله عز وجل قد أقام لعباده في الدنيا كلًا من أساسي مصلحة دينهم ومصلحة دنياهم .

ولكن رغم ذلك كله ، فإنه لايتذكر هذه الحقيقة الواضحة ويستيقظ إليها إلا من تخلص من شوائب أهوائه وأغراضه ورجع إلى عقله المتجرد الحر يستمع الى حكمه ويأخذ بهديه .

● فإذا كان الأمر كذلك ، فاستقيموا أيها المؤمنون على عبادة الله تعالى وأخلصوا الدين له ، ولا تلتفتوا الى مايغيظ الكافرين من ذلك ، فهم انما يكرهون

ذلك منكم وينكرونه بسائق من شهواتهم وأهوائهم النفسية ، لابوحي من عقولهم الحرة الطليقة .

● ولما أمر الله المؤمنين بالاستقامة على عبادة الله ، أتبع ذلك ببيان بعض مايتصف به الله عز وجل من صفات الربوبية تأكيداً لما تضمنته الآية السابقة من الامر بعبادة الله عز وجل . فقال : « رفيع الدرجات ، ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء عباده لينذر يوم التلاق » .

فأما : رفيع الدرجات ، فهي بمعنى مرتفع الصفات فلا يلحق به فيها غيره . ولعل هذا خير من القول بأن رفيع بمعنى رافع وأن المعنى : رافع درجات من شاء من عباده ، ذلك أن الأشبه برفيع أن تكون صفة مشبهة لا اسم فاعل .

وأما : ذو العرش ، فمعناه مالكه وخالقه وانما أفرده بالذكر لأنه من أعظم مخلوقاته وأجلّها ، والعرش من الغيب الذي أخبرنا الله عنه ولم يطلعنا عليه ، فهو مما يجب الإيمان به غيباً . والصفتان خبران لمبتدأ محذوف تقديره : هو ، حذف اكتفاء بما يدل عليه وتوجيهاً للفكر كله إلى التأمل في هذه الصفات .

و « يلقى الروح من أمره .. » خبر آخر أيضاً ، فهي صفة ثالثة ، أي انه يرسل الوحي الذي هو بمثابة الروح لحياة الإنسان ، اذ ان مضمون الوحي الإلهي انما هو روح للحياة الحقيقية التي يحتاجها الانسان أشد من حاجته الى الغذاء وتأمل في التعبير بـ « يلقي » وانظر الى الكلمة كيف تصور انطلاق الوحي من الله عز وجل الى من شاء من عباده في القاء سريع ، فلا يمكن أن يلحقه أي تبديل أو تحريف ، وهو ما يؤكده مضمون قوله : من أمره ، أي يلقى الروح ناشئاً ومنطلقاً من أمره ، فمن للابتداء والجار والمجرور متعلق بمحذوف منصوب على الحالية .

وفي قوله « على من يشاء من عباده » دلالة على أن النبوة لاتأتي بالكسب والترقي في مدارج الصلاح والتقوى ، وانما هي اختيار الهي محض .

أما الوظيفة التي يتضمنها الوحي ويكلف بها الرسول فهي أن ينذر يوم التلاق ، أي يوم القيامة .

ولم يذكر المفعول الأول لينذر ، ليكون الإنذار عاماً للناس كلهم في مختلف الأعصار والأمصار ، ولم تزد الآية على أن أطلقت على يوم القيامة اسم : يوم التلاق ، دون أن تعين المقصود بالتلاقي الذي يكون فيه ، لتشمل كل تلاق يكون في ذلك اليوم .. إذ فيه تتلاقى سلسلة أجيال البشر كلها على صعيد واحد بعد أن كانت مفرقة على عمر الدنيا كلها ، وفيه يتلاقى الناس بالملائكة وأهل السماوات بأهل الأرض ، وفيه يتلاقى الناس مع ماقدموه من أعمال ..

انه حقيقةً يوم التلاق .. التلاقي بمعناه الشامل العام وبكل مافي الكلمة من معنى ، وانه لتلاق عجيب رهيب !!..

ومع الحديث عن آخر هذه الصفات يعود السياق ، كما ترى ، الى أول البحث ؛ وهو الحديث عن يوم القيامة وحال الكافرين فيه ؛ فتصف الآيات التالية جوانب من مظاهر يوم التلاق :

● « يوم هم بارزون ، لايخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » : ثلاث صفات من أهم صفات يوم الحشر ، تصورها هذه الجمل الثلاث تصويراً يملأ المشاعر ويأخذ بالقلب .

يوم هم بارزون : بدل من يوم التلاق ، أي لينذروهم ذلك اليوم .. يوم هم خارجون من قبورهم الى ظاهر أرض مستوية لايسترهم فيها شيء من جبل أو بناء أوواد أو أكمة . اذ هي كما قال الله عز وجل : قاع صفصف لاترى فيها عوجا ولا أمتا .

لايخفى على الله منهم شيء : استئناف فيه مزيد من التقرير لبروزهم ووضوحهم في ذلك الموقف ، وفيه مزيد من نسخ ذلك الباطل الذي كان عالقاً برؤوس الكافرين منهم في الدنيا من أن الأرض اذا التقمتهم وأصبحوا تراباً فهيهات أن

يحشروا مرة أخرى ، فهاهم اليون بارزون ظاهرون ، يموجون تحت سلطان الله وفي قبضته وأمام نظره .

لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار : صفة ثالثة جاءت بهذا الأسلوب التصويري المثير . فمن أجل ذلك حذف لفظ القول من جملتي السؤال والجواب معاً ، لأن المقصود ليس اخباراً عن كلام سيحصل ، وانما المقصود تصوير ذلك المشهد الرهيب في أخص مظاهره وأحواله .

فالسؤال منبعث من وحي المشهد : لقد برز الناس جميعاً من قبورهم الى هذا الملتقى ، ولقد تقطعت عنهم أسباب دنياهم وعلاقات مابينهم وانسلخت عنهم مظاهر الملك والجاه والسلطان وجاءوا لا يسوقون معهم الا جسومهم العارية . فيرتسم السؤال من وحي الحالة وهول المشهد ومن ذكرى الغرور الدنيوي الذي طوي عهده : لمن الملك اليوم ؟ ليرتَسِمَ من ورائه الجواب الذي يملأ سمع الزمان والمكان وينطبع في كل أذن وفكر : لله الواحد القهار .

● « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب » : ثلاث صفات أخرى ليوم القيامة توضح أهم خصائص ذلك اليوم ، وهو الحساب الذي تلاقيه كل نفس على ماقدّمت .

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت : تعطى جزاء كل ماقد فعلته من خير وشر ، وفي تقديم « اليوم » وتصدير الجملة بها إيحاء بأن الناس طالما أُمهلوا من قبل حتى ظن كثير منهم أنه لاجزاء ولاحساب !..

لاظلم اليوم . سيبلغ اليوم كل حق مداه ، وسينصف كل مظلوم ويقتص من كل ظالم ، ولكن هل كان في دار الدنيا ظلم حتى يكون نفيه خاصاً بهذا اليوم ؟ إن الجملة صيغت بهذا الشكل رداً وتبكيتاً لأولئك الذين طالما تساءلوا في دار الدنيا عن أسباب تفاوت الناس في مظاهر السعادة ووجود مظاهر البؤس والفقر إلى جانب مظاهر النعمة والترف ، ونسبوا إلى الله من أجل ذلك الظلم والجور ، قصدا إلى الالحاد في ذاته وادعاء عدم وجوده ؛ فالجملة تخاطب هؤلاء

الناس – على سبيل التبكيت والتأنيب –: تستطيعون أن تطمئنوا اليوم إلى أن مثقال ذرة من العدالة لن يهدر وإلى أن أحداً من الناس لن يظلم ؛ إن حياتكم التي مرت لم تكن إلا فصلًا صغيراً من قصة الوجود الإنساني كله ، والحكم على القصة ما كان ينبغي أن يكون من خلال مايترا آى من فصل واحد صغير فيها ، وسترون من مجرى الحساب والجزاء اليوم أنّ عين العدالة لم تغفل عن الانسان لحظة واحدة في دنياه التي خلت .

فلما كانت هذه الحقيقة إنما تتجلى وتنكشف للناس يوم القيامة ، أسند نفي الظلم إلى ذلك اليوم تصويراً لهذه الحقيقة كلها .

إن الله سريع الحساب : لن يعجزه أن يحاسب هذه الخلائق المتجمعة كلها في آن واحد ، وأن يفرغ من حسابهم في أسرع وقت فهو تعالى لايشغله شأن عن شأن . ولئن كان وقت الحساب يطول أمده على الناس ، فإنما هو لعظم الهول الذي يحيط بهم وليس لعجز الله عن الاسراع في محاسبتهم !..

● « وأنذرهم يوم الآزفة ، إذ القلوب لدى الحناجر ، كاظمين ، ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » عود إلى وصف يوم القيامة بأسلوب مختلف ، وبأنواع أخرى من الصفات الهائلة المخيفة .

والحديث هنا يتحول الى مخاطبة رسول الله ﷺ ، قائلًا : أنذر الناس يامحمد يوم القيامة، فيومَ مفعول ثان لأنذر . ولقد سمى القيامة هنا بيوم الآزفة ، بعد أن سماها في الآيات السابقة : يوم التلاق . وكلا الاسمين وصف صادق وهائل ليوم القيامة. وهي من أزف الأمر إذا دنا ، واضافة اليوم اليها من اضافة الشيء الى صفته ، أي اليوم الآزف . وإنما سماها الله « الآزفة » تنبيهاً الي أن ذلك اليوم قريب وإن استبعد الناس مداه واستأخروا قدومه . ولقد وصف الله هذا اليوم بعكس ماهو متصور في أذهان الناس كي يتنبهوا الى خطأ تصورهم هذا ، ولكي يعلموا أن كل ما هو كائن فهو قريب .

ولك أن تقول : ففيم انثت الآزفة ، وهي كما تقول صفة لليوم ؟ والجواب — كما قال القفال وغيره — أن سائر أسماء القيامة جارية على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوهما تضميناً لها معنى الداهية ، أي فالتأنيث للتهويل .

اذ القلوب لدى الحناجر : استحضار لصورة الكرب الشديد العالق بنفوس الناس اذ ذاك ، والكرب معنى اعتباري مجرد ، ولكن الآية تبرزه في أروع صورة محسوسة مجسمة ، وصورة الكرب هنا هي تلك القلوب التي ارتفعت من أماكنها حتى التصقت بالحلوق ، فلا هي تعود فيستروحوا ولا تخرج فيستريحوا . وانظر الى الشمول الذي دلت عليه كلمة « القلوب » و « الحناجر » !.. فهو لم يضف القلوب والحناجر الى أناس بأعيانهم ، بل قطعها عن الاضافة والتخصيص وعبّر بصيغة الجمع وأدخل « الـ » عليها ، لتفهم أنها غاشية عامة من الضيق والكرب تمتد الى كل من يزدحم بهم ذلك الموقف المريع .

كاظمين : حال من أصحاب تلك القلوب وهم وان لم يذكروا في الآية ولكن صورتهم ماثلة في المخيلة . والكاظم هو المنحبس على حال من الغم والغيظ امتلأت بها نفسه ، وهي صورة أخرى للكرب الشديد في ذلك اليوم ليس عنه أي متنفس ولا مهرب !...

ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع : كشف للحالة التي قد يتساءل عنها الفكر والذهن : أليس ثمة من ملجأ أو شافع أو معين ؟ لا .. ليس للظالمين أي ملاذ ، إنه الكرب الذي لا مفر منه ولا مخلص ، فليس ثمة قريب شفيق ، ولا شفيع يطاع قوله أو ينظر في شفاعته . ونفي وجود القريب الشفيق إنما هو تصوير لعدم اهتمام المرء اذ ذاك الا بنفسه . فالأقارب لا يزالون أقارب لبعضهم إذ ذاك ولكن أحداً منهم لا يتعرف على الآخر ، فكأن الانساب قد قطعت مما بينهم حينئذ فلا وجود لها كما يقول الله عز وجل (ونفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) .

● « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » أسلوب آخر في التعبير عن مجازاة الله ومحاسبته للناس إذ ذاك ، وفي التعبير عن عدم تمكن الكافرين والجاحدين يومئذ من المكر أو الكذب أو إخفاء الحقائق .

إن الله عز وجل مطلع على كل ما قد يجترحه أو يكسبه الأنسان ، سواء كان ذلك بجوارحه الظاهرة أو بنفسه ووساوسه الخفية . وتأمل كيف عبر البيان القرآني عن النوع الأول بـ : خائنة الاعين وعن الثاني بـ : ما تخفي الصدور . لقد كنى عن اعمال الجوارح بأدق مثال لها ، وهو النظرة المريبة بالعين وعبر عنها بخائنة الاعين ، أي الأعين الخائنة ، على أن الخائنة اسم فاعل ، أو بمعنى : خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية والعاقبة . كأن العين تخون صاحبها فتنم عما أضمر في نفسه ، أو هي تخون الحق والامانة إذ تغمز وتسترق النظرة المحرمة .

وكنى عن أعمال القلوب ووساوسها بما تخفي الصدور ؛ والصدور هي مستكن الاسرار والخفيات .

فكيف يستطيع الظالمون مع ذلك اخفاء الحقائق ، أو الكذب على الواقع ؟! أم كيف يعجز الخالق جل جلاله عن محاسبتهم على كل ما اجترحوه من صغير وكبير ؟ !

● وتختم هذه الآيات الوصفية المتضمنة لطرف من أهوال يوم القيامة بتقرير الحقيقة التي يريد الله عز وجل من عباده أن يتنبهوا إليها قبل فوت الأوان ، وهي أن الله وحده الذي يقضي بالحق الذي يشاء على مخلوقاته كلها في الدنيا والاخرة ، فهو وحده المؤثر في خلق العالم وطبائع الاشياء ، وهو الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى ، وإليه مردّ الناس كلهم ليقضي فيهم قضاءه المبرم الذي لا قضاء فوقه .

وهيهات أن يكون لشيء من المخلوقات الأخرى التي يؤلهها الكافرون والجاحدون من الأصنام أو الناس أو طبائع الأشياء ، أي صفة من هذا القبيل : « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير » .

والله تعالى أعلم .

في المبادئ والإنسانيات

(من سورة الإسراء من آية : ٢٣ إلى آية : ٣٩)

قال الله تعالى :

(وقضى ربك ألّا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدَيْن إحساناً ، إمّا يبلُغَنّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقُلْ لهما أُفٍّ ولّا تنهرْهما ، وقُل لهُما قولاً كريماً ★ واخفضْ لهما جناحَ الذُلِّ من الرّحمة وقُل ربِّ ارحمهُما كما ربّياني صغيراً ★ ربُّكم أعلمُ بما في نُفوسِكم إن تكُونوا صالحِينَ فإنّه كان للأوّابين غَفُورا ★ وآتِ ذا القُربى حقَّه والمِسْكينَ وابنَ السبيلِ ولا تُبذِّر تبذيراً ★ إنّ المبذّرين كانوا إخْوانَ الشّياطين وكان الشيطانُ لرَبِّه كفُورا ★ وإمّا تُعرِضَنّ عنهُمُ ابتغاء رحمةٍ من ربِّك ترجُوها فقُل لهم قولاً ميّسوراً ★ ولا تجْعلْ يدَك مغلُولةً إلى عُنقِك ولا تبسُطْها كلَّ البسط فتقْعُدَ ملُوما محّسُورا ★ إنّ ربَّك يبسُطُ الرزق لمن يّشاء ويقْدِرُ إنّه كان بعباده خبيراً بصيرا ★ ولا تقتُلوا أولادَكم خشْيةَ إملاقٍ نحْنُ نرزقهُم وايّاكم إنّ قتلهُمْ كان خِطْأً كبيراً ★ ولا تقْربُوا الزّنا انّه كان فاحِشةً وسّاء سبيلا ★ ولا تقتُلوا النّفْسَ التي حرّم اللهُ الا بالحق ومن قُتِل مظْلوماً فقد جعلْنا لوليّه سُلطانا فلا يُسرِفْ في القتل انّه كان منصوراً ★ ولا تقْربوا مالَ اليتيم الاّ بالتي هي أحسنُ حتّى يبلُغَ أشُدَّه وأوفُوا بالعهد انّ العهد كان مسْؤُولا ★ وأوفُوا الكيل اذا كِلْتُم وزنُوا بالقسطاسِ المستقيم ذلك خيرٌ وّ أحسنُ تأويلًا ★ ولا تقفُ ما ليس لك به علمٌ انّ السّمع

والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤُولا ★ ولا تمشِ في الأرض مرَحاً إنك لن تخْرِقَ الأرض ولن تبلُغَ الجبال طولا ★ كل ذلك كان سيئهُ عند ربِّك مكرُوها ★ ذلك مما أوحى اليك ربُّك من الحكمة ولا تجعلْ مع الله إلهاً آخرَ فتُلقى في جهنّمَ ملُوماً مدْحوراً ★

تعريف عام بالآيات :

تعرض هذه الآيات لبيان أحد عشر مبدأ من أهم المبادىء الانسانية العامة . مبتدأة ومختتمة بمبدأ التوحيد والتزام العبودية لله عز وجل . وتأتي هذه الآيات بعد آيات سابقة تتحدث عن أهمية القرآن في اصلاح حياة الانسان ودلالته على النهج القويم ، وعن حدود المسؤوليات ونظامها وقيمة كل من الحياتين الدنيوية والاخروية .

فهي تأتي بعد منبّهات وحوافز تهيىء كلا من النفس والذهن لقبول ما تتضمنه هذه الآيات من المبادىء الانسانية بقبول حسن .

شرح الآيات :

● وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . أي أمر ربك ألا تعبدوا الا إياه ، وقد استهلّ الخطاب بجملة إخبارية للرسول ﷺ ، وهي : وقضى ربك . ثم التفت بالخطاب إلى الناس كلهم حينما تحول من الاخبار الى الانشاء ، وذلك في قوله : الاّ تعبدوا الا إياه . وذلك لأن الجملة الأولى حكاية فناسب أن يتجه الخطاب فيها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وأما الثانية فأمر وتوجيه ، فناسب أن يتجه الخطاب فيها الى عامة الذين يتجه هذا الأمر اليهم .

فهذا أول مبدأ من المبادىء العشرة ، وهو أخطرها وأهمها .

ثم اتبعه بالمبدأ الثاني قائلاً : وبالوالدين إحساناً ، أي وأن تحسنوا بالوالدين احساناً ، تقول : أحسنت به وأحسنت اليه . وإنما جعل رتبة بر الوالدين إثر رتبة توحيد الله وعبادته ، لأن الله هو السبب الحقيقي لوجود الانسان وعيشه وارتزاقه ، والوالدان هما السبب الجعلي والظاهري لكل من الوجود والعيش ،

فلئن كان المقتضي لعبادة الله أنه الخالق والمنعم الحقيقي فإن المقتضي لبر الوالدين ما اقتضته حكمة الله من أن يكون وجود الإنسان بهما ونشأته عن طريق رعايتهما .

ثم شرح المقصود بالاحسان فقال : اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . وأصل الجملة : إن يبلغ عندك الكبر ... فركب ان مع ما التي يسمونها زائدة لتصوير المبالغة في استقصاء الظروف والأحوال ، وأدخل نون التوكيد على الفعل لنفس الغرض أيضاً ، فأصبحت الجملة تقول لك بكل من جرسها ومضمونها : مهما وجدت الشيخوخة قد دبت الى أحد من أبويك فليكن موقفك منهما في كل الظروف والأحوال موقف الراحم الشفوق والخادم المحب .

وكان من الممكن لسلامة أصل هذا المعنى أن تستغني الآية عن كلمة « عندك » بأن تقول : أما يبلغن الكبر أحدهما أو كلاهما ... لولا أن « عندك » هذه تثبت في احساس المخاطب معنى هائلاً يثير فيه النزوع الى الشفقة والرقة والعطف فالآية تصور بهذه الكلمة كيف أن الكبر والضعف قد وضع كلاً من الوالدين في كنف الابن وتحت رعايته بعد أن كان الابن هو الضعيف الذي يعيش في كنفهما وتحت رعايتهما .

والقصد الى تصوير هذا المعنى هو الذي اقتضى تقديم لفظ « الكبر » ، وهو مفعول ، على لفظ : احدهما وهو فاعل ، ولو اختلف نسق هذه الألفاظ وترتيبها اختلافا ما لاختفت الصورة وبطل أن يكون في الآية شيء من هذا الايحاء .

ثم انظر كيف نهتك الاية عن أن تضيق ذرعاً بهما في داخل شعورك ونفسك كما نهتك عن ايذائهما في شيء من عملك ومعاملتك ، ثم كنّت عن الأول بأقل مظهر له وهو التأفف ، وكنّت عن الثاني بأدنى مظهر من مظاهره وهو القسوة أو الانتهار في القول ، فنهت عن كل ذلك بدلالة النص ، اذ النهي عن أدنى افراد الشيء ابلغ نص في الدلالة على عموم النهي عن الجنس كله .

● ثم زاد الأمر بالإحسان الى الوالدين تأكيداً ، فصور لك ما ينبغي أن تكون عليه حال الولد مع والديه دائماً ، وأخرج معنى الرحمة بهما والإحسان إليهما والتواضع لهما في مظهر شيء متخيل محسوس مبالغة في الإلزام به والدعوة اليه ، فقال : واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . فقد صور الذل المأمور به بطائر خرّ هاوياً الى الأرض ثم صور مبالغة وضوح الذل والتواضع بنشر هذا الطائر مع ذلك جناحيه يخفضهما نحو الأرض .

بيد أنه استدرك ، كي لا تحسب أنه ذلّ الحطة والصغار ، وهو ما ينهى عنه الاسلام ولا يمكن أن يأمر به ، فقال : من الرحمة ، أي بسبب وبعامل الرحمة بهما ، وهو شرف لك وليس بصغار عليك .

ومع ذلك ، فلا تقتصر على أن تعاملهما برحمة من عندك ، بل ادع الله لهما أيضاً أن يشملهما برحمة من عنده . وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً أي رحمة كرحمتهما بي اذ كنت صغيراً ، أو في مقابل رحمتهما بي اذ ذاك .

● ولما بالغ هذه المبالغة في الأمر ببر الوالدين ، حتى إنه لم يرخص في أدنى كلمة قد تتفلت من المتضجر ، أعقب ذلك ببيان رفع الحرج عمن أساء ثم أسرع فتاب ، ولم يكن قلبه منطوياً إلا على الخير والبر والتزام أمر الله عز وجل ، وتأمل في الأسلوب الذي أخرج به هذا المعنى إذ قال : ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً . وفيه تقرير بأن التوبة الكاذبة باللسان لاتخدع الله عز وجل لاطلاعه على ماستقر في النفوس ، وفيه تأكيد بأن الله يقبل توبة الآيب إليه النادم على ماقد كان منه .

● وينتقل البيان القرآني إلى المبدأ الثالث ، وهو الوفاء بحق القرابة والرحم خاصة وبحق عموم الفقراء والمساكين عامة ؛ وهو مبدأ وثيق الصلة والمناسبة بالذي قبله وهو بر الوالدين . وليس الأمر هنا بالإحسان والرفق ، ولكنه أمرٌ باعطائهم الحق الذي لهم عليه ، حتى لاتتصور أن لك بذلك عليهم منة وأنك تمنحهم من حقك الذي هو لك .. وعن هذا المعنى تعبر صياغة الآية : وآت ذا القربى حقه

والمسكين وابن السبيل . أما الأمر بالإحسان إلى الوالدين فليس فيه مثار لهذا التصور ، وذلك لأن الولد مهما بالغ في الاحسان إلى والديه فإنه لن يفي لهما بجزء من حقهما السابق عليه .

ولما كان الوفاء للأقارب والمعوزين بحقوقهم يقتضي حجز المال عن تبديده في الجهات الباطلة نهى الله عن ذلـــك بقوله : ولا تبذر تبذيراً . والمفعول المطلق لبيان النهي عن التبذير الذي لامبرر له إلا التبذير المجرد ، وذلك لاخراج صور من الانفاق قد تظهر في مظهر التبذير ولكنها ليست في الحقيقة كذلك إذ يقتضيها مصالح وأسباب مشروعة معينة .

وبالغ في النهي عن هذه العادة بقوله مخبراً : إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . أي كانوا قرناء للشياطين ، وفيه إلماح الى أن عادة تبذير المال وتبديده إنما تتمكن بتغلب الوساوس الشيطانية لا أكثر إذ ليس من ورائه أي غاية أو مصلحة يحتاجها الانسان .

● ولكن أرأيت لو لم يكن الانسان موسراً بالمـــال الذي يعطي منه حق القرابة والمحتاجين فأعرض عنهم عجزاً عن العون لا استكباراً عن اداء الحق ؟.. لقد عالج البيان الإلهي العظيم هذه الحالة باسلوب بالغ الروعة إذ قال : « وإمّا تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولاً ميسوراً » . أي مهما اضطررت إلى الإعراض عنهم بسبب الفقر والعوز الذين تتأمل بهما فرج الله ورحمته ، فقل لهم في مكان ذلك كلاماً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً ، فالميسور هنا مفعول بمعنى الفاعل ، أي يسّر ضرّهم عليهم بكلامك الجميل لهم .

● ولما أمر الله عز وجل في الآيات التي ذكرناها بالوفاء بحق الأقارب والمحتاجين ونهى عن تبديد المال فيما لاحاجة إليه ، حتى لايفوت بذلك أداء هذا الحق والقيام به ، ناسب أن ينتقل الحديث إلى تقرير مبدأ جديد يتعلق بتنظيم الانفاق ويضع قانوناً عادلاً له . والمبدأ الالهي الذي يخاطب بـــه كافة العباد في ذلك هو أن

يكون الانفاق قائماً على العدل بين التقتير والبخل المعيب من جانب ، والاسراف والتبذير المقيت من جانب آخر . ولكن الأسلوب القرآني لايعبر عن هذا المعنى بهذه الطريقة المألوفة ، وإنما يخرجه في صورة محسوسة متخيلة فيقول : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . فقد صور البخل في مظهر اليد المربوطة إلى العنق فهي لاتكاد تنفك عنه ، ومعلوم أن اليد أبعد ماتكون عن الآخرين حينما تكون مقيدة بهذا الشكل الغريب ، وصور الاسراف بتلك اليد التي تظل ممتدة ومبسوطة لاتكاد ترجع إلى صاحبها أو تنقبض على شيء ، ثم هدد من يلتزم ذاك التفريط أو هذا الافراط بأن سيأتيه يوم يعود من دأبه هذا ليقعد منقطعاً عن أسباب العيش والرزق يتلقى لوم الله والناس له على ماأفرط أو فرّط .

● وتأتي الآية التي بعدها ، واقعة موقع التعليل مما قبلها وهي : إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . أي فإذا كان مصدر رزقك هو الله عز وجل يبسطه إذا شاء ويضيقه عندما يريد ، فالتزم وصيته في آداب الانفاق وكيفيته ، إذ لا البخل هو الذي يحفظ لك مالك ويربيه ولا التبذير والاسراف يمنعانك من أن يعاقبك الله بذلك فيقدر عليك رزقك الذي تتقلب وتمرح فيه . ثم يقول : إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ، إشعاراً بأنه يراقبهم بصدد مايأمرهم به من هذه المبادىء ، هل ينفذونها أم يعرضون عنها ؟

● وتتهيأ المناسبة — مع الحديث عن آداب الانفاق وتقرير أن الرزاق للعباد هو الله وحده — لعرض مبدأ خامس ، هو وثيق الصلة بكل ماقدمر . فيقول الله عز وجل (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) أي لاتقتلوهم مخافة فقر تتوهمونه ، وأصل أملق بمعنى التصق بالملقات، وهي حجارة رقاق ملساء ، فكُني به بعد ذلك عن الفقر والحاجة . ثم علل النهي بتأكيد ماقد ذكره في الآية السابقة فقال : نحن نرزقهم وإياكم ، أي لستم أنتم الذين ترزقون أولادكم حتى تحاروا في أمرهم فتندفعوا بذلك إلى قتلهم ، بل

نحن الذين نرزقهم وإياكم جميعاً ، وبالغ في إظهار هذا المعنى مع شيء من التأنيب حينما قدم ضمير الأطفال في الرزق على الآباء ، إذ أشعرهم بذلك بأن رزق أطفالهم مقدر ومهيأ لهم من قبل رزقهم هم ، فلا يتوهموا أن لهم أي تأثير في رزقهم حتى ولا التأثير الشكلي الذي يتجلىّ في مظهر كونهم وسطاء لهم في الرزق والرعاية .

وحينما نهى الله في سورة الانعام عن قتلهم أولادهم من أجل وقوع الفقر بهم فعلاً قائلاً : ولا تقتلوا أولادكم من املاق — لم يقدم ضمير الأطفال كما فعل هنا، ذلك لأن خوف الآباء هناك إنما هو على أنفسهم وأولادهم معاً ، أو هو على أنفسهم قبل أولادهم فلا داعي إلى إشعارهم بهذا المعنى على ذلك التقدير .

ومن أجل وضوح كل ذلك ، فقد كان قتلهم خطئاً كبيراً . وخِطْأ بكسر الخاء مصدر خطىء يخطأ كأثم يأثم وزناً ومعنى ، فهي أبلغ وأشد من الخطأ بفتح الخاء والطاء ، إذ هو الاتيان بما لاينبغي من غير قصد .

● ويجر الحديث عن الأولاد وحرمة قتلهم الى الحديث عن أهم وأخطر مبدأ من المبادىء المتعلقة بالأسرة ، وهو المبدأ السادس في سلسلة هذه المبادىء الانسانية فيقول الله عز وجل : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلاً » والمنهيّ عنه في الآية أصالة انما هو الزنى ، ولكن الآية لاتنهى عن مباشرة ارتكابه فقط كما في الآيات السابقة ، وانما هي تنهى هنا — كما ترى — عن مجرد قربه والدنو إليه ؛ ففي الآية تقرير واضح للنهي عن مباشرة أسبابه وذوائعه ومقدماته ، كالاختلاط وخلوة وتبرج ونحـوه ، ذلك لأن القرب ليس إلا كناية عن هذه الدوافع والأسباب . وفي الآية تقرير أيضاً لخطورة هذه الفاحشة وأن عدم مقارفتها لايكون إلا بالتباعد عن أسبابها وذرائعها القريبة والبعيدة ، أما بعـد اقتحام الأسباب والذرائع فإن الدوافع البشرية تجمح بصاحبها نحو الشر الذي تعرض له وهيهات أن يقوى عندئذ على كبحها والتغلب عليها .

« وفاحشة » في الآية صفة لمحذوف . أي كان فعلة فاحشة ، وساء سبيلاً ،

أي بئس طريقاً طريقه ، لما فيه من الخطر على الأسرة والمجتمع ولما فيه من مختلف الشرور الأخرى .

● ومع النهي عن الزنا ، تحين المناسبة للنهي عن القتل ، فهما جريمتان متقاربتان ومتشابهتان في الخطورة والضرر على المجتمع وكل منهما يشبه الآخر من بعض النواحي ، وهو المبدأ السابع فيما توصي به هذه الآيات : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » لا تقتلوا النفس ، أيّ نفس كانت ، ما دامت أنها نفسٌ أي روح .. إلا أن يكون ذلك لحق يستوجبه ويقتضيه . وهكذا تدلك صياغة الآية على أن الأصل في كل روح أن تكون مصونة عن الإزهاق ، وما يخالف هذا الأصل إنما يأتي لعارض .

« ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً » من قتل بدون مبرر من الحق المذكور فقد جعلنا لمستحق دمه تسلطاً على القاتل في الإرادة والحكم ، فإن شاء طالب بالقصاص وإن شاء بالدية وإن شاء عفا

« فلا يسرف في القتل ، إنه كان منصوراً » عبر بهذا النهي عن كل ما قد يقوم به وليّ المقتول من مظاهر الانتقام المختلفة ، بأن يقتل في مكان الواحد اثنين أو ثلاثة كما كانوا يفعلون ، أو بأن يمثل بالقاتل أو يزيد إلى القتل سلباً ونهباً ، أو بأن يقتل غير قاتله ، أو غير ذلك مما يدخل في باب التشفي ويتجاوز القصاص والحق . عبر عن النهي عن كل ذلك بهذه الصيغة الجامعة : فلا يسرف في القتل .

والآية لا تنهى ولي المقتول عن هذا الاسراف إلا وهي تُطمئنه إلى انه واصل الى حقه وأنه واجد في الشريعة والقائمين على تنفيذها نصيراً له في أخذ حقه ، وعبرت عن ذلك بصيغة الماضي مصدّرة بإن المؤكدة : « انه كان منصوراً » تأكيداً للوقوع ومزيداً من التطمين لخاطر صاحب النفس الملتاعة الثائرة .

● وتنتقل الآيات الى مبدأ ثامن ، هو الرأفة باليتيم والنظر في ماله بالحفظ

والصيانة . وهو مبدأ يهتم به القرآن اهتماماً كبيراً ، لما له من آثار خطيرة في المجتمع سلباً وايجاباً ، إذ التفريط فيه من أسوء مظاهر الظلم والخيانة .

وفي ذلك يقول الله عز وجل « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » نهى حتى عن مجرد قربانه ، مبالغة في النهي عن التعرض له بأي سوء . وإنما اقتضت المبالغة في النهي هذا الأسلوب ، لان أكل مال اليتيم له هو الآخر ، كالزنا ، أسباب وذرائع ، إذا تهاون ولي اليتيم بالوقوع فيها يوشك أن يقع من ورائها في أصل المنهي عنه .

واستثنى من عموم النهي أن يعالج له ماله بالحفظ والاستثمار والتجارة التي لا مغامرة فيها ، وعبر عن مثل هذه المعالجات المحمودة بقوله : إلا بالتي هي أحسن أي إلا أن يكون ذلك متلبساً بالخصلة التي هي أحسن من الابتعاد والترك .

وختم هذا الأمر ، بتذكير ولي اليتيم بالعهد الذي قام بينه وبين والده ، وبأن عليه الوفاء بالعهد الذي أخذه على نفسه . ويقول بعد ذلك : إن العهد كان مسؤولاً ، أي أن العهد سيُسأل عما قد فُعل به من حفظ أو ضياع له ، صوّر العهد في صورة إنسان تجسدت فيه الأمانة وكلمة الشرف ليوجه إليه الخطاب والسؤال وذلك تأكيداً للعدالة الإلهية التي تراقب أعمال الناس ومعاملاتهم لبعض ، وتجسيداً لدقة محاسبة كل على ما قد فعل . وأسلوب الآية في هذا جار على غرار قوله عز وجل : وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت .

● ومع الحديث عن الأمانة وضرورة الوفاء بالعهد يوصي الله عز وجل بمبدأ تاسع ، هو من أهم ما يتعلق بالأمانة والعهد فيقول « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلًا » أي أتموا الكيل ولا تخسروه ، حينما تريدون أن تكيلوا للمشترين ، فالخطاب هنا للبائعين ، إذ هم الذين يكيلون ، أما المشتري فإنما هو يكتال ، أي يطلب أن يُكال له .

ومن أجل ذلك قيد الأمر بالوفاء عنده إرادة الكيل ، اذ الكائل هو الذي تراوده نفسه بخسران الكيل . ثم أمر بنحو ذلك عند التعامل بالوزن ، ولما

كانت طريقة الوزن مختلفة عن طريقة الكيل خالف في التعبير عن الوفاء بكل منها .

وعلل هذا الأمر بأنه أفضل للبائع ، وبأنه أحسن عاقبة ، وإنما قال ذلك ، ليزيل الوهم العالق بأذهان البعض من أن الظاهر المحسوس أن التلاعب بالكيل والوزن خير للبائع إذ هو يزيد في دخله وربحه . فكأنه يقول : انه وإن خيل إليكم ذلك في أول الأمر فإن العاقبة تأتي بعكس ما تتخيلون ، إذ كل ذلك سرعان ما يتبدد وينمحق ، عندما يُعلم شأن هذا المحتال وعادته بين الناس .

● ويأتي المبدأ العاشر نهياً وتحذيراً عن اتباع أو تبني مالا تعلم حقيقته من الأمور . وهو مبدأ ذو علاقة كبرى بتربية الفرد والمجتمع ، وإليه يعود أمر معالجة معظم المشاكل والقضايا التي يشكو منها الباحثون والمفكرون في كل عهد وظرف .

ولكن انظر إلى الأسلوب الذي أخرج به البيان الإلهي هذا المعنى : « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسؤولا » وتقف بمعنى تتبع من قفا أثره أي اتّبعه . فهو يقول : لا تكن في اتباعك لما لا تعلم حقيقته من عقيدة أو قول أو فعل مثل من يتبع سبيلاً مجهولاً لا يدري إلى م سيوصله . فهو يشبّه المجهول الذي يسارع فيه الانسان دون علم حقيقي به بالطريق التائهة التي لا يُدري نهايتها إذ يقتحمها سالكٌ ظاناً بمجرد وهمه أنه سيصل منه إلى بعض ما يبتغيه .

ثم يعلل هذا النهي الخطير ، بأن كلاً من السمع والبصر والعقل انما هو أمانة استودعتها أيها الانسان لتستعملها في درك الأمور والتحقق منها قبل الخوض فيها . ولاجرم أنك ستسأل عن هذه الأمانة وستحاسب على تضييعها وعدم استرشادك بها .

ثم ان الجملة في دلالتها على هذا المعنى تحتمل أحد تأويلين :

الأول : أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان مسؤولاً عن نفسه يوم

القيامة فاسم كان ضمير عائد الى كل من السمع والبصر والفؤاد . والآية على هذا التأويل جارية على غرار ما قلناه في « إن العهد كان مسؤولاً » و « وإذا الموؤودة سئلت » وقد علمت المعنى البلاغي فيه .

الثاني : أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان الانسان عنه مسؤولاً . فاسم كان على هذا ضمير عائد على الإنسان ، والمعنى فيه واضح .

وقد نزّل الله عز وجل هذه الأعضاء الثلاثة منزلة العقلاء ، بسبب أن قوام عقل الانسان وفكره بها ، فمن أجل ذلك أشار إليها بما يشار بـــه إلى العاقل وهو : أولئك .

● والمبدأ الأخير مبدأ أخلاقي ذو اتصال مباشر بالذي قبله ، بل وبينهما تلازم في السلب والايجاب . وهو تحذير الانسان من أن يسلم نفسه للغرور الذي ينسيه حقيقة ذاته فيتعاظم ويتكبر .. وكل ما حوله من الناس والمخلوقات مما لا موجب للتعاظم عليه . واسمع ما يقوله الخطاب الالهي في ذلك : « ولا تمش في الارض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » والآية كما ترى تفيض بالصور المختلفة التي تسخر من هذا الذي يمشي متكبراً على الأرض .

فمن ذلك أنه قيد المشي بالأرض ، وهو شيء معلوم ، إشعاراً بأن هذا الذي يمشي على الارض لا يليق بحاله أن يتكبر من فوقها .

ومن ذلك أنه أخبر بما هو معلوم ، وهو قوله : انك لن تخرق الأرض .. تنزيلاً للمتكبر المتجبر منزلة من غابت عنه هذه الحقيقة الواضحة ، فهو يحتاج إلى من ينبهه إليها ! ..

ومن ذلك هذه الصورة الساخرة التي تتركها الجملة في الذهن : إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . انها تصور لك ما يفعله المتعاظم في سيره اذ يضرب بقدمه الأرض كأنه يفاخرها ويتكبر عليها ، ويرفع رأسه متطاولاً كأنما يريد أن يطاول بهامته ذرى الجبال ، مع أنه هوهو ، ذلك المخلوق الضعيف الذي لن يخرق أرضاً ولن يطاول جبلًا ..

وبعد أن انتهى الحديث عن تفصيل هذه المبادىء الهامة في حياة الانسان ، عاد الخطاب الإلهي الى رسول الله ﷺ مشيراً الى كل هذه المبادىء قائلاً : ذلك مما أوحى إليك ربّك من الحكمة ، أي من معرفة الحق ، فالحكمة ، هي اكتشاف الحق الذي قد يخفي على غير ذي البصيرة . وكان الخطاب من قبل ذلك متجهاً الى الانسان عموماً ، فمرة يخاطبه بصيغة الجماعة كما في قوله : ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ، ومرة يخاطب فيه الفرد المتكرر كما في قوله : ولا تقف ما ليس لك به علم ...

ثم يختم هذه المبادىء بما قد بدأ به ، وهو مبدأ الايمان بالله عز وجل ووحدانيته قائلاً : ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ، إشعاراً بأن ملاك هذه المبادىء كلها وضمان تطبيقها الوحيد هو الايمان بالله عز وجل ايماناً صادقاً فما لم يوجد الايمان به فإن هذه المبادىء لن تنفذ كما ينبغي مهما آمن الناس بأنها حق لا مرية فيه اذ أن مجرد الإيمان بالفضيلة لا يكفي دافعاً الى التمسك بها . وكم في الناس ممن يؤمن بان الحق حق ومع ذلك فهو لا يقوى على تنفيذه ، ويومن بأن الباطل باطل ومع ذلك لا يستطيع التخلص من ظلمه :

والله سبحانه أعلم .

* * *

في القصص

(من سورة هود ، من آية ٣٥ الى آية ٤٩)

قال الله تعالى :

(وأوحِيَ إلى نوحٍ أنه لن يُؤمنَ من قومك إلا مَن قد آمنَ فلا تبتئِس بما كانوا يفعلون . واصنعِ الفُلكَ بأعيُنِنا ووحيِنا ولا تُخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون . ويصنعُ الفُلكَ وكلَّما مرَّ عليه ملأٌ مِّن قومِه سخِروا منه قال إنْ تسخَروا منَّا فإنَّا نسخرُ منكم كما تسخرون . فسوفَ تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخزيه ويحِلُّ عليه عذابٌ مُّقيم . حتى إذا جاء أمرُنا وفارَ التنّورُ قُلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلكَ إلا مَن سبق عليه القولُ ومَن آمنَ وما آمنَ معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسمِ الله مَجريها ومُرساها إنَّ ربي لغفورٌ رَّحيم . وهي تجري بهم في موجٍ كالجبالِ ونادى نوحٌ ابنَه وكان في مَعزِلٍ يَا بُنيَّ اركب معَنا ولا تكن مَّع الكافرين . قال سآوي الى جبلٍ يَعصِمُني من الماء قال لا عاصِمَ اليومَ من أمر الله الا من رَّحِمَ وحالَ بينهما الموجُ فكان من المُغرَقين . وقيل يا أرضُ ابلعي ماءكِ ويا سماءُ أقلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضي الأمرُ واستوتْ على الجُوديّ وقيل بُعداً لِّلقومِ الظالمين . ونادى نوحٌ رَّبَّه فقال رَبِّ انَّ ابني من أهلي وانَّ وعدكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين . قال يا نوحُ انَّه ليس من أهلِكَ انَّه عملٌ غيرُ صالِحٍ فلا تسألنِ ما ليس لك به عِلمٌ اني أعِظُكَ أن تكون من الجاهلين . قال ربِّ اني أعوذُ

بكَ أن أسألك ما ليس لي به علمٌ والاّ تغفر لي وترحمني أكن منَ الخاسرين . قيل يا نوحُ اهبط بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليكَ وعلى أممٍ ممّنْ معكَ وأممٌ سنمتّعهم ثم يمسّهم منّا عذابٌ أليم . تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمُها أنت ولا قومُك من قبلِ هذا فاصبرْ انّ العاقبةَ للمتقين) .

. . .

تعريف عام بالآيات :

هذه الآيات تمثل مشاهدَ من قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وانما تركنا المشهد الأول منها فقط ، وهو الذي يصور فيه البيان القرآني الحوار الذي كان بين نوح وقومه وأسلوبه في دعوتهم الى الله عزوجل . واذا تأملت هذه الآيات التي نقلناها لك وجدتها تتألف من خمسة مشاهد — والقصة القرآنية كما قد علمت تضع أمامك مشاهد من صورها ، وليست تخبرك بمعان من أحداثها — .

تجد في المشهد الأول مظهر الغضب الإلهي على قوم نوح بعد أن طالت دعوتهم الى الله والايمان به دون جدوى وأمر نوح بأن ينصرف الى اعداد سفينة .

وتجد في المشهد الثاني صورة من سخرية قومه به وهو عاكف على صنع السفينة .

ونجد في المشهد الثالث صورة من أحداث الطوفان وكيف أخذت السفينة تمخر بالمؤمنين من عباد الله جبالاً من الأمواج .

وتبصر في المشهد الرابع سكون الغضب واختفاء الماء وهدوء الدنيا وعودة كل شيء الى ما كان .

أما المشهد الخامس والأخير فتبصر فيه مناجاة نوح لربه بشأن ابنه ثم هبوط الناس الى دنيا أعمالهم وعيشهم مرة أخرى .

هذا تعريف سريع بالآيات ومحتواها وموقعها مما قبلها . أما تفصيل ذلك ففيما يلي :

شرح الآيات :

● تضعنا الآيتان الأوليـان أمام أول مشهد من الأحـداث العظيمة في هذه القصة ، وذلك بعد أن مرّ دهر طويل على نوح وهو يدعو قومه الى الله ويناشدهم الانصياع الى منطق العقل ووحي الضمير ، دون جدوى :

« وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » فقد أخبر الله إذاً أنه لامطمع في إسلام أحد من قومه بعد اليوم ، فلينفض يده من الاهتمام بشأنهم ، ولايحزن عليهم بمـــا يظلون عاكفين عليه من غواية وضلال .

وليس هذا فقط ، بل إن عليه أن ينصرف عن دعوتهم بعد اليوم ، وعليه أن يشرع في صنع سفينة !..

ولكن كيف يصنع السفينة وهو لم يمارس هـذا العمل من قبـل ، وكيف يتأتى أن يفعل ذلك باطمئنان وفي سلام ، وإن قومه الذين لم ينفكوا يؤذونـه سيفسدون عليه عمله ؟!..

والجواب تراه في قوله عز وجـل : « واصنـع الفلك بأعيننا ووحينـا » أي أصنعه ولا يقلقنك أمر قومك ، فإنما ستصنعه متلبساً برعايتنا وحفظنا ؛ ولا تؤرق الفكر في مشكلة جهلك بصنعه ، فإنما ستصنعه من وراء وحينا وإلهامنا .

ويختم الوحي الالهي خطابه لنوح بقوله عز وجل : ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ؛ لاتكلمني في شأنهم باسترحام ودعاء بعد اليوم . فقد قضي الأمر باغراقهم وسينفذ قضاء الله فيهم وشيكاً . ولبيان ضرورة نفاذ هذا القضاء عبر بصيغة الماضي : إنهم مغرقون .

● وينطوي هذا المشهد ، ليظهر من ورائه مشهد آخر ، نبصر فيه نوحاً عليه السلام وهو منهمك في صنع الفلك وإعداده . وانظر كيف يصور البيان القرآني هذه الصورة في قوله عز وجل : ويصنع الفلك ... هكذا ، بصيغة المضارع الحاضر ، إحياء للصورة في الذهن وتحضيراً للمشهد أمام المخيلة .

ثم نبصر في هذا المشهد قوم نوح وهم يمرون ، جماعـــةً إثر أخرى ، وهم يضجون سخرية به وبعمله الجديد هذا . ولك أن تتصور ماشئت من مظاهر هذه السخرية وأقاويلها ، فالقرآن ترك تصور ذلك لخيالك ، وتأمل في ذلك قوله عز وجل : وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه . جملة حالية تصور لك الأمر مستمراً متكرراً ؛ ذلك أنهم رأوا في عمله هذا مادة جديدة هائلة للسخرية ، خصوصاً وإنه يقوم بهذا العمل في مكان لاحاجة ومحل فيـه للسفن إذ كانت القصة مابين بـلاد الشام والعراق . فهم كلما مروا من عنده وقفوا يسخرون منه . ولكنه لم يكن يزيد في جوابه لهم على أن يقول – وهو منكبّ على عمله – : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، أي سوف تجدون عاقبة سخريتكم هذه بلاء يتلبس بكم .

ثم يقول ، مؤكداً المعنى المقصود بقوله ، فإنا نسخر منكم : « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم » أي فسوف ينكشف لكم الحجاب عن الفريق الذي يفجؤه عذاب يخزيه في الدنيا ثم ينزل به عذاب لاينفك عنه في الآخرة . ولك أن تعتبر « من » في الجملة موصولة في محل نصب مفعولاً لتعلمون ، ولك أن تعتبرها استفهاماً سدت مع خبرها الذي بعدها مسد مفعول تعلمون .

● ويُطوى هذا المشهد أيضاً ، وتمر أحداث لاتتحدث عنها الآيات ولا تعرّج عليها ، إعتماداً على سير المخيلة والفكر ؛ فقد انتهى صنع السفينة وفرغ نوح منهـا ولبث ينتظر الميعاد الذي لن يتخلف ثانية واحدة عن أجله المحتوم ، حيث يظهر المشهد الرابع مع قوله تعالى :

« حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين . . » الآية .

فحتّى هذه ، تشير كما ترى الى الأحداث المطوية بين المشهدين ، أي وظـل نوح عاكفاً على صنع السفينة ومر زمان على ذلك ، حتى جاء الميقات المحـدد في علم الله ، وفار التنور .

والتنور معروف ، والماء لم ينبـع من التنور وحده بل فاض من أنحاء الأرض كلها ، ولكنه إنمـا اكتفى بالنص عليه وحـده ، اشعاراً بالغاية ودلالة على أن

الماء اذا كان قد فار من منبع النار ، وهو التنور ، فلأن يفور ويفيض من عامة الأماكن الأخرى أحرى وأجدر .

فعندما تفجرت الأرض بالمياه أوحى الله الى نوح أن يحمل في السفينة من كل صنف من أصناف الحيوانات زوجين اثنين ، أي ذكراً وأنثى ، والعرب تسمي كل واحد من اثنين لايستغنيان عن بعض زوجاً ، يقولون : زوجا نعل وزوجا حمام .

كما أوحى اليه أن يحمل فيها أفراد أهله ، الا من سبق فى علم الله استمراره على الضلال منهم وهو ابنه وامرأته ، وأن يحمل فيها عامة المؤمنين به ؛ ويلتفت البيان القرآني ، هنا ، عن سياق القصة ليخبر قائلًا : وما آمن معه الا قليل ، وفي هذا الالتفات دلالة مؤثرة دقيقة يشعر بها الحس وتتأثر لها النفس ويحزن لها القلب ! . .

وأقبل نوح الى أهله والمؤمنين من قومه يقول لهم : اركبوا فيها ، متكلين على الله الذي آمنتم به ، ولا يهمّنكم كيفية سوقها الذي ليس فينا من يتقنه ولا مكان اتجاهها ورسوّها الذي لانعرفه ، فإن السائق والموجه هو الله ، بأمره تجري وبأمره سترسو .

فاركبوا فيها ، جملة مستقلة ؛ وباسم الله مجريها ، جملة مستقلة أخرى من مبتدأ متأخر وخبر مقدم .

ولا شأن للبيان القرآني بوصف كيفية الركوب أو كيفية تلاقي الحيوانات المختلفة ، فمجرى القصة القرآنية كما يريده القرآن لاغرض له بشيء من ذلك . وعلى كل فقد تم ماأراده الله وركب المؤمنون في السفينة وتلاقى فيها من كل صنف من الحيوانات المختلفة زوجان اثنان ، وجرى الفلك يخر عباب بحر لاعهد للبشرية به .

ويصف البيان الإلهي هذا المشهد بقوله : « وهي تجري بهم في موج كالجبال» وتأمل كيف صور لك الأمواج التي هي من العلو والضخامة كالجبال في صورة طريق تجري فيه السفينة ، وفي هذا بيان لمدى طغيان الماء على الأرض وبيان

لمدى تغلب السفينة بحفظ الله على ذلك الطغيان الهائل !...

ولنتأمل الآن في هذا المشهد المؤثر : نوح على ظهر السفينة ، وابنه في خارجها بعيداً عنه ، وقد اعتلجت رحمة الأبوة في قلب الوالد الذي يريد لابنه الخير والنجاة ، فناداه من بعيد : يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

ويجيبه الابن من معزله البعيد غير مبال بتأثر الوالد وشفقته : سآوي الى جبل يعصمني من الماء . أي سأعتصم من الطبيعة بالطبيعة ، ومهما كان من طغيان طبيعة الماء فإن في طبيعة الجبال أعظم معتصم منها ! .. وذلك هو منطق الإلحاد لايبصر صاحبه مما هو أمامه سوى أرنبة أنفه .

ويصور القرآن ردّ الوالد عليه في جملة فيها الأسى والحزن ، وفيها منطق الايمان يردّ على غرور الجحود والإلحاد : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . لم يقل لاعاصم اليوم من الماء ، على نحو ما قال ابنه ، إشعاراً بأن المشكلة ليست ماء . إنها مشكلة أمر الله عز وجل خالق كل شيء والمسير لكل شيء ، فهيهات أن تجد معتصماً من أمر الله في جبل أو أرض أو سماء ، اللهم إلا من رحمه الله بهدايته فمعتصمه هو رحمة الله فقط ، فإلا في قوله « إلا من رحم » بمعنى لكن ، أي لكن من رحمه الله معصوم برحمته .

ويسدل البيان إلاهي ستاراً على هذا الحوار بين منطق الإيمان وغرور الإلحاد ، إذ يقول بعد ذلك : وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

ولكأني أرى في هذه الجملة الرهيبة صواعق من مظهر الغضب الإلهي وهي تنقض على الجهل المتعالم والغرور المتطاول تسحقه فإذا به أثر بعد عين .

إن الجملة لتقول بأبين دلالة : ما كاد هذا المسكين يتمم النطق بكلامه المغرور وما كاد يطرف ببصره بحثاً عن الجبل الذي سيعتصم فيه ، حتى أسرعت اليه موجة فالتقمته ، وكأن لم يكن !..

● وفي غمرة هذه الأحداث التي تصورها الآيات ، وبين صخب الأمواج التي تنحسر وتمتد في بحرٍ هو الأرض كلها — ينطوي هذا المشهد فجأة ، لترى من

ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدنيا ورجوع كل شيء إلى نظامه السابق ؛ فقد هدأت الزمجرة وسكنت العاصفة وولدت الدنيا كما كانت من جديد .

وتعال فلنتأمل في اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ؛ وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

إن هذه الجمل القرآنية العجيبة ، تصور لك هذا الكون الهائل الفسيح من سماء وأرض وبحار وجبال في صورة أنموذج صغير من القطع المركبة إلى بعضها مما يوضع بين أيدي الأطفال ، جاءت يد إنسان فنثرتها وفصلت أجزاءها ، ثم ماهو إلا أن عاد فركبها إلى بعضها كما كانت في اسرع وقت .

وهي تصور لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله بل القابض عليه كله ، تتصرف به كما تشاء ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير . ألا ترى كيف علقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كان عليه بعد أن التقت مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف — على كلمة صغيرة هي : « وقيل » لتصور لك سهولة الأمر وأنه لايحتاج إلا لهذا القيل الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها .

ثم انظر إلى دقائق التعبير المصور :

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك » أرأيت أنه لم يقل : جففي ماءك ، مثلاً ، مع أنه هو التعبير المتفق مع طبيعة الأرض وشأنها ، وإنما قال : ابلعي ماءك ، ليصور لك بأن الأرض لما اتجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت مسامها وشقوقها كأفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعاً : فهي لم تنفذ الأمر بالطبيعة المألوفة لها وإنما بالانقياد لأمر خالقها جل جلاله .

« ويا سماء أقلعي » وأنت إذا تأملت في كلمة أقلعي — وهي بمعنى كفي وأمسكي — تصورت كم كانت منفتحة على مياه تنصب إلى الأرض ، وحسبك أن

تتأمل الآية الأخرى في وصف ذلك : وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، لتتصور هول تلك المياه المنهمرة من أبواب السماء .

ثم انظر كيف اسند الخطاب إلى كل من السماء والأرض مع أنهما مخلوقان جامدان ، ليصور لك سرعة استجابتهما لأمر الله عز وجل حتى كأنهما منقادتان بسماع الأمر وفهم الخطاب .

« وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ». ثلاث جمل فيها مظهر الاستجابة السريعة لأمر الله ، فقد غيض الماء أي فلم يبق إلا ما كان على وجهه من قبل وقضي الأمر فهلك أولئك الكافرون والجاحدون ونفذ فيهم حكم الله عز وجل ، وها هي ذي السفينة قد رست على جبل الجودي (١) .

« وقيل بعداً للقوم الظالمين » . وهو قيل ينطق به حال الكون كله بعد انقشاع الغمة وزوال المصيبة ، فقد فتح الكون عينه ليرى كيف ذهب أولئك الظالمون في تلافيفها ومضوا مع مضيّها ، فقال بلسان الحال : بعداً للقوم الظالمين ، أي ليزدادوا ابتعاداً وهلاكاً ، وماظلمهم أحد ولكنهم كانوا هم الظالمين .

● والتقط المؤمنون أنفاسهم بعد انقشاع البلاء ، وأخذوا — وقد استقرت السفينة بهم هادئة فوق الجودي — يتأملون معتبرين ، وتذكر نوح ابنه ، وتمنى لو كان فيمن سلمهم الله من هذه الطامّه ، وتذكر وعد الله اياه بإنجاء أهله . فرفع رأسه يقول في ضراعة وأدب :

« رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » .

أسلوب فيه غاية الأدب ، إنه يسأل ولكن سؤالاً مطوياً ضمن مايقرره من وصف العدالة والحكمة الباهرة لله جل جلاله ، أي فلماذا لم يكن من الناجين وقد وعدتني - ووعدك الحق — بأن يكون أهلي في المرحومين من ذلك البلاء ؟

وجاءه الجواب وحياً من الله عز وجل : يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح .

---

(١) هو جبل في شمالي العراق داخل في الحدود التركية .

أي انه ليس داخلًا في أهلك أصلًا ، لأن اكرام قرابتك انما مـــداره على الإيمان الذي هو الأصل والسبب في اكرامهم ، فإذا انتفى الايمان الذي هو الأصل لم يبق أثر للأهل الذي هو الفرع .

أو هو ليس داخلًا في أهله الذين وعد الله بنجاتهم ، اذ هو خارج عنهم باستثناء الا من سبق عليه القول .

ثم علل نفي الأهلية عنه بجملة استئنافية ليكون فيها معنى التعليل والاخبار معاً فقال : انه عملٌ غير صالح . أي انه ذو عمل غير صالح ، وانما أخبر عنه بالعمل نفسه مبالغة في الصاق السوء به وبيان أن العمل السيء لم يكن يفارقه .

وإذ قد وقفت على جلية الامر فلا تسألن سؤال طلب ماليس لك به علم ، أي لاتطلب مني شيئاً لاتعلم أن الحكمة متفقة معه أم لا ، فليس كل ما يظهر لك هو وحده الحقيقة .

إني أعظك أن تكون من الجاهلين ، أي أنهاك عن مثل هذا وأحذرك ، لئلا تكون من الجاهلين أو كراهية أن تكون من الجاهلين .

وأمام جواب الله لنوح عليه السلام وقف متذللا لحكمه وقضائه ملتزماً حدود العبودة والرضى قائلًا : رب إني أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الجاهلين . وأنت ترى كأنه ذنب عظيم ذاك الذي فعله نوح بسؤاله فهو يستغفر ويتوب منه ، وما هو بذنب في الحقيقة ولكن رتبـــة المقربين تقتضيهم مزيداً من الرهبة والاجلال ، وهذا هو شأنها في النفس .

والآن .. وقد هُيئت الأرض مرة أخرى للعيش فوقها وعادت أسباب الرزق والكدح من فوقها كما كانت من قبل ، فليهبط نوح ومن معه من الشاهق الذي أرستهم السفينة عليه إلى الأرض سالمين مطمئنين ينعمون بخيراتها وثمارها ، يشترك في ذلك الصالح منهم والطالح إلى أن يأتيهم ميقات يوم معلوم ، ففيـه يلاقي كل جزاءه وأجره . وانظر إلى البيان القرآني كيف يقرر هذا المعنى :

« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم » .

وإنما قال : وعلى أمم ممن معك ولم يقل . وعلى من معك ، لأن الحديث ليس عن الذين كانوا مع نوح وحدهم ، وإنما الحديث عنهم وعن الذين سيتكاثرون من ذرياتهم ، وإن فيهم المؤمن وغيره ، فخص السلام والبركة بالبعض وهم المؤمنون وليس الذي يلقاه الكافرون أيضاً من أسباب العيش والخير سلاماً وبركة في الاصطلاح الالهي ، وانما هو « تمتيع » أي ترك وامهال مؤقت ، حيث ستطوى الحياة عما قريب ويفد الكل الى الرحمن عباداً صاغرين ، فهنالك يقام الحساب والميزان للجميع .

في الحجاج والنّقاش

(من سورة النمل ، من آية ٥٩ إلى آية ٦٦)

قال الله تعالى :

(قُل الحَمْدُ لله ِ وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصْطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ★ أمَّنْ خلَق السَّموات ِ والأرْضَ وأنزَل لكم مِّن السَماء ماءً فأنْبتْنا به حدائِقَ ذاتَ بهجةٍ مّا كان لكُم أن تُنبِتُوا شجرها أإلهٌ مَّع الله بل هُم قومٌ يّعدلون ★ أمَّن جعَلَ الأرْض قراراً وجعلَ خِلالَها أنْهاراً وجعل لها رواسيَ وجعل بيْن البحرَيْنِ حاجزاً ، أإلهٌ مَّع الله بل أكثرُهم لا يعلمون ★ أمَّن يُجيبُ المضْطرَّ اذا دَعاه ويكْشِفُ السُّوء ويجعلكُم خُلفاء الأرْضِ ، أإلهٌ مَّع الله ، قليلًا مّا تذكّرُون ★ أمَّن يَّهديكم في ظُلماتِ البرِّ والبحْر ومن يُرسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بيْن يدَيْ رحْمتهِ أإلهٌ مَّع الله ، تعالى اللهُ عما يُشرِكون ★ أمَّن يَّبْدأُ الخلقَ ثُم يُعيدُه ومن يّرْزُقُكم مِن السَّماءِ والأرض ، أإلهٌ مَّع الله ، قُلْ هاتُوا برْهانَكم ان كُنتُم صادِقين ★ قُل لّا يعلمُ من في السموات ِ والأرْضِ الغيْبَ الّا اللهُ وما يشْعُرون أيَّانَ يُبْعثُون ★ بل ادّارَكَ عِلمُهم في الآخرة بل هم في شكٍّ مِّنْها ، بل هُم منْها عَمُون) .

تعريف عام بالآيات :

تأتي هذه الآيات بعد عرض مفصل لقصص بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم الذين بعثوا اليهم وكيفية اهلاك الله لتلك الأمم بسبب عتوهم وطغيانهم في الأرض .

ولما كان في هذه القصص عبرة لأمة محمد ﷺ وفيه الدليل على وحدانية الله تعالى ووجوده والرد على الباطل الذي يتمسك به الكافرون والجاحدون – عقب الله عليها بالالتفات الى هؤلاء الكافرين يستنهض عقولهم للعبرة والتأمل ، ويناقشهم في باطلهم الذي يحتضنونه ، بمختلف البراهين والأدلة القاطعة التي يرونها من حولهم .

والآيات تعرض أربعة أصناف من الأدلة تناقش الكافرين على أساسها :

الصنف الأول : أدلّة تتعلق بمجموع الكون بما فيه من سماوات وأرض ..

الثاني : أدلة تتعلق بكثير من خصائص الأرض وسماتها التي يبصرونها بأعينهم أو عقولهم .

الثالث : أدلّة هامة تتعلق بذواتهم وأنفسهم والنعم الحاصلة لهم .

الرابع: دليل النشأة الأولى ، وما يستلزمه من دليل الاعادة بعد الموت .

وكما ترى ، فإن اسلوب النقاش والاحتجاج على الكافرين بهذه الأدلة ، قائم على أساس الاستفهام المتكرر وما يليه من أجوبة عنهم عليها ، فيها تقريع وتأنيب ودفع الى التأمل .

شرح الآيات :

• تأتي الآية الأولى في هذا النص ، فاصلًا بين قصص الأنبياء السابقين التي ظلت الآيات السابقة تعرضها من أول السورة وبين ما سيليها من مواجهة الكافرين بالمناقشة والمحاجّة .

والخطاب في هذه الآية الفاصلة موجه الى النبي عليه الصلاة والسلام ، يأمره فيها – وقد سمع ما أخبر به عن قصص تلك الأمم التي حاق بها الهلاك والدمار وأولئك الأنبياء الذين لاقوا من أقوامهم صنوف الإيذاء – أن يحمد الله عز وجل على أن خصّ أمته هذه بالرحمة واللطف فقضى أن لا يهلكها بمثل ما أهلك به أولئك الآخرين ، رغم تشابه الإعراض والإيذاء في كثير من الحالات ، وأن يسلم على أولئك الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته فعذبوا واضطهدوا ولم يمنعهم ذلك من القيام بأمر الله عز وجل .

ثم يأمره بعد هذا أن يتوجه إلى المشركين الذين من حوله سائلا : هل الايمان بالإلـه الحق الذي فعل كل ما قد ذكر بالأمم السابقة أفضل أم الايمان بما تؤلّهونه من المخلوقات أيّاً كانت ؟ وهذا الاستفهام جار على قصد التقريع للمشركين وتسفيه آرائهم السقيمة ، وإلا فمن الواضح أنه لا يوجد أيّ تلاق في جنس الخيرية بين الأوثان التي يؤمنون بها والإلـه الواحد جل جلاله ، حتى يتصور معنى التفاضل والسؤال عن الأفضل منها ، فهو كما تقول لمن سلك مسلك الغواية والشقاء : ويحك هل الشقاء خير أم السعادة ؟ !

ولمّا كانت هذه الخيرية ، رغم وضوحها ، خفية عن أذهان الكافرين ، أو كالخفية عنها بسبب تكبرهم وعنادهم في الباطل الذي لا يريدون التحول عنه ، عقّب الله هذا الاستفهام بآيات تكشف عن مظاهر ألوهية الله عز وجل وتفرده في الخلق والإبداع والتحكم في مقاليد الكون ، ليتضح للمشركين أيها خير : الله عز وجل أم ما يؤلهونه من المخلوقات أياً كانت :

● أمّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتناه حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون .

هذه أول آية من هذه الآيات التي سيقت مساق الكشف عن بعض مظاهر ألوهية الله جل جلاله ، تأتي بأسلوب الاستفهام ليكون فيها معنى الاحتجاج والمناقشة والدفع إلى التأمل وإعمال الفكر .

وأم التي في أولها ، أم المنقطعة ، بمعنى بل ، وهي للاضراب الانتقالي عن الكلام السابق ، ومن للاستفهام ، فكأن الآية تقول : بل دعك من هذا السؤال إلى سؤال آخر : من خلق السموات والأرض وأنزل لكم ... الآية .

والسماوات هنا كل هذه الأجرام العلوية بما فيها من كواكب وغيرها ، والسماء في قوله : وأنزل لكم من السماء ماء هو جهة العلو ، إذ كل ما علاك فأظلك هو في اللغة سماء .

وكان من مقتضى نسق الآية أن يقول : فأنبت به حدائق ، فلماذا وقع

الإلتفات عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ؟

إن الذي اقتضى ذلك هو أن أحداً لا ينسب إلى نفسه خلق السماوات وإنزال الأمطار ، فحسب السؤال عن خالقها ومنزلها ، بهذا الأسلوب ، منبهاً إليه جل جلاله . أما إنبات الزرع والاشجار فكثيراً ما ينسبه صاحب البذر والسقي إلى نفسه فيقول : أنبتُ الزرع والبستان ، فناسب الالتفات بـه إلى ضمير المتكلم تأكيداً لاختصاص الانبات بذاته تعالى وإشعاراً بأن ظهور النبات يشق باطن الأرض بألوانه الزاهية وطعومه المختلفة وخصائصه المتنوعة إنما هو من فعل الخالق جل جلاله ؛ ومن أجل المزيد من تقرير هذه الحقيقة قال بعد ذلك : مـا كان لـكم أن تنبتوا شجرها .

وجواب الاستفهام محذوف ، دلّ عليه حكم العقل والكون ، على أن الذي ينتظر منه الجواب هم المخاطبون . ولقد رتب الله على هذا الجواب المعلوم استفهاماً آخر متفرعاً عنه ومرتبطاً به : أإلـٰه مع الله ؟ أي أإله آخر يوجد مع الله الذي تفرد بهذه الافعال ؟ ونكّر المبتدأ من بعد الاستفهام الانـكاري لتعميم النفي، وليكون المعنى : أيوجد أي إلـٰه آخر مع الله جل جلاله .

ويلتفت الخطاب عنهم بعد ذلك ، مضرباً عن حديثه معهـم وسؤاله إياهم ، ليحكي صفتهم وحالهم العجيبة للآخرين قائلًا : بل هم قوم يعدلون . أي كأنـه يقول ملتفتاً : ولكن ما الجدوى من نقاشهم والبحث معهم ؟ إنهم قوم يعدلون عن الحقّ ، أو هم يعدلون بالله غيره من الأوثان والمخلوقات !..

● أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين بين البحرين حاجزاً أإلـٰه مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون .

إضراب آخر ، أريد به الانتقال إلى دليل كوني آخر متعلق بكثـير من خصائص الأرض وسماتها الواضحة من حولهم وأمام أعينهم . أي لنترك أمر السماوات وحديث المطر والإنبات إلى حقيقة أخرى . من هذا الذي جعل لـكم الأرض قراراً ؟ وكلمة « قراراً » هذه تعني كل ما قد أودع الله الأرض من الخصائص

التي تجعلها قارة بنفسها وتجعل الناس متمكنين من القرار عليها ، سواء فيما يتعلق بليتها وصلابتها وطبيعة الانبات المودعة فيها وضبط ثقلها وخفتها ومدى بعد الشمس عنها ، ونظام الجاذبية التي فيها ، وغير ذلك مما لا يزال العلم يكتشفه ويتنبه إليه كل ذلك عبر عنه البيان الآلهي بالكلمة الجامعة : قراراً .

ومن جعل على وجه الأرض أنهاراً تتخللها كتخلل الشرايين في الجسد إذ تمده بالقوة والحياة ؟

ومن أقام عليها جبالاً ثوابت ثقالاً تمنعها أن تميد بأهلها ، وتتكون في باطنها كنوز المعادن وتحتفظ في جوفها بالينابيع الثرة من المياه ؟ وعبر عن الجبال بكل ما فيها من الصفات ، بالرواسي وهي جمع راسية ، أي مستقرة وثابتة ، وأنت لا تطلق هذه الكلمة على كل ما يستقر إلا اذا كان ثقيلًا جسيماً ، فلا تقول أرسيت الكأس مثلًا ، وإنما تقول أرسيت الصخرة أو البناء أو نحو ذلك .

ومن جعل بين البحرين حاجزاً ؟ وتثنيته البحرين على التغليب ، أي البحار والأنهار ، ومعلوم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون البحار أخفض من مستوى الأنهار حتى لاتنصب فيها مياه البحار فيفسد طعمها، وحينما تنصب مياه الأنهار في البحر فإنها تتخذ لنفسها في عرضه طريقاً مستقلًا يمتد أشواطاً كثيرة دون أن يمتزج كل من الماءين بالآخر . والذي اقتضى ذلك اختلاف طبيعة الماءين التي قدرت بخلق الله وحكمته الباهرة حتى تؤدّي كل من البحار والانهار خدمات نوعية مستقلة لهذا الانسان .

وتقف الآية هنا أيضاً عن الإجابة على هذا السؤال انتظاراً لاجابة المخاطبين ، وإتاحة للفكر المتأمل أن يصمت خاشعاً إلى الجواب ينبعث من فم الكون كله : إنه الله وحده .

ويأتي السؤال مرة أخرى مرتباً على هذا الجواب المقدر المعروف : أإله مع الله ؟!.. أبعد هذا كله يوجد أيّ إلـه آخر الى جانب الله جل جلاله ؟

ويلتفت الخطاب عنهم مرة أخرى ليحكي حالهم العجيبة للآخرين : بل اكثرهم

لا يعلمون ؛ ولما كانت المسائل المستفهم عنها هنا يتوقف الفهم والتقدير التام لها على العلم ، قال في حكاية حالهم المسببة لغرورهم وجحودهم : بل أكثرهم لايعلمون. وفيه ما لا يخفي من حمل الناس على التأمل في دقائق الكون ومعرفة ما يقوم عليه من النظام ودقة الخلق والصنع » .

● « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلهم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، قليلًا ما تذكرون » .

وينتقل الحديث باضراب ثالث الى أدلة من نوع آخر ، قائمة في كيانهم ومستقرة في نفوسهم .

انّ من خصائص الإنسان أنه اذا نزلت به شدة من الشدائد وحزبه أمر من بلاء أو مصيبة ، والتفت من حوله فافتقد الوسيلة المنقذة والصديق المساعد وضاق عليه الخناق ، أخذ يرمق بطرفه السماء يدعو الله عز وجل في ضراعة وذلّ ، ولعله كان لايعرف الله في أوقات الصفو والرخاء .

وهذه الطبيعة الكامنة في الانسان من أعظم الأدلة على أنه مفطور في حقيقته على العبودية لله عز وجل والإيمان به ، وأن كل انحرافاته التي تبعده عن هذه الفطرة انما يأتي بسبب غاشية من الغفلة أو سكرة من الكبرياء الكاذب أو الشهوات المتأججة ، وسرعان ما يرتد الى فطرته الأصيلة اذ يهتز كيانه بسبب بلاء خانق أو كرب مطبق فيتساقط عنه كل ما قد تعلق به من غواشي الغفلة ومسكرات الشهوات والأهواء .

فمن الذي يستجيب لهذا المضطر اذا دعاه متضرعاً له آيباً إليه ؟ فالسؤال فيه تذكير كما ترى بهذه الفطرة الانسانية ، وفيه بيان ان الانسان اذا أصابه ضر شديد ضلّ كل من يدعوه ويعتمد عليه الا الله جل جلاله ، و«أل» في المضطر للجنس لا للا ستغراق ، فلا يلزم أن تكون الاستجابة من الله عامة لكل الداعين من المضطرين .

ومن الذي يكشف السوء عنكم بكل أصنافه ومظاهره ؟

ومن الذي يجعلكم خلفاء الأرض ؟ ، أي تتوارثون سكناها والتصرف فيها جيلًا بعد جيل وقرناً بعد قرن ؛ وكم في هذه الظاهرة من دلائل العظمة الالـهية في تنظيم حياة هذه الخليقة على وجه الأرض !.. دفعة من بني الانسان تأتي اثر اخرى هذه تأتي من باب الولادة ، وتلك تمضي من باب الموت . ولو تجمعت هذه الدفعات البشرية مع بعضها لضاقت بها الأرض وفسد نظام الحياة ، وتخلفت الحكمة الكبرى من الايجاد والخلق . وانظر ، فإن في هذه الجملة المختصرة المثيرة للفكر : ويجعلكم خلفاء الأرض ، تعبيراً عن هذه الحقيقة كلها ، فما أعجب البيان القرآني وما أروع !...

وتقف هذه الآية أيضاً عن الجواب الذي تنطق به الفطرة الانسانية في أوضح بيان .. ليكرر السؤال المترتب على الجواب المعرف : أإلـه مع الله ؟ وهنا أيضاً يحكى حالتهم التي تصدهم عن الإيمان بالبدهيات ، ولكنه لا يقول هذه المرة : بل اكثرهم لا يعلمون ، كما ذكر في الآية السابقة ، ذلك لأن هذه الدلائل القائمة في فطرة الانسان وكيانه ، لا تحتاج الى علم مجهول ، وانما تحتاج الى تذكر شيء معلوم ملتبس بالإنسان نفسه ، ولذلك قال : قليلًا ما تذكرون ، أي تذكراً قليلًا تتذكرون :

وهو تعبير خاص أريد به عدم التذكر مطلقاً .

● « أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإلـه مع الله ، تعالى الله عما يشركون » .

اضراب انتقالي الى نوع آخر من الأدلة يحاجج بها الجاحدين ويناقشهم .

من المعلوم أن الانسان يتعرض لتيه من الضلال تتضاءل عنده حيلة الانسان ويظهر فيه ضعفه في حالتين اثنتين : عندما يغشيه الظلام المطبق بليلٍ في فلاة ، وعندما يتيه في زرقة لا حدود لها من زرقة البحر والسماء . وما رؤي الانسان اقرب الى التعرف لحقيقته الضعيفة وعبوديته لله عز وجل ، منه في احدى هاتين الحالتين . فمن الذي يهدي الانسان في كل من هاتين الظلمتين . ولك أن تفهم من الظلمات معناها

الحقيقي وذلك اذ يلتقي تيه كل من الفلاة والبحر بظلمة الليل البهيم ، وأن تفهم منها معناها المجازي ، اذ جعل مفاوز البر التائهة ولجج البحار الهائلة كأنها ظلمات مطبقة يضل فيها الانسان ولا يقع على علم يتعلق به أو يهديه .

ومن يرسل الرياح بشراً ، مقدمة مبشرة بالخير ، بين يدي رحمة الأمطار أذ يبعثها الله على الارض لتخرج ما في بطنها ولتقدم خيراتها لمن على ظهرها ؟ والرياح تطلق على ما يأتي منهابالخير من المطر وغيره ، فإذا قلت : ريح فهي ما يحمل في طواياه الشر على اختلاف درجاته وأشكاله ، ولقد كان من شأن النبي ﷺ كلما رأى هبوب الهواء أن يقول : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً .

ويعيد البيان الإلهي نفس السؤال السابق : أإلـه مع الله ؟ ويلتفت عن الخطاب عنهم مرة أخرى ، ليقرر تنزيه الذات الإلهية عن لغو الجاحدين وضلالهم قائلًا : تعالى الله عما يشركون .

● « أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

نوع آخر من الاستدلال والتنبيه ، تنطوي فيه قصة هذه الخليقة في بدأها ومستقرها ، وفيه — مع اختتام ألوان الحجاج والنقاش — إلماح بالانذار والتهديد وتأكيد ليوم البعث والحساب .

والسؤال هنا عن ذاك الذي بدأ الخلق من العدم ، ثم يعيده مرة أخرى الى الوجود .

فأما الشطر الأول من السؤال فواضح ، والشأن فيه أن يكون معلوماً لكل عاقل أنه الله عزوجل ، وأما الشطر الثاني ، فيرد عليه — في الظاهر — أن الجاحدين لا يؤمنون بالإعادة فكيف يتجه السؤال إليهم عن ذلك ؟ غير أن التعبير القرآني يريد أن يوضح للأذهان المتأملة أن الإيمان بالخلق الأول يستلزم الإيمان بالإعادة ، ذلك لأن الإعادة أهون من البدء فيما يقرره العقل ، ولأن قصة هذه الحياة الدنيا تظل ناقصة ، وتظل — بأحداثها ووقائعها — فصلًا واحداً من قصة طويلة . إذ في

هذه الحياة طغاة لم يجدوا القصاص العادل في حقهم ، وفيها مستضعفون مظلومون لم يصلوا الى ما ينصفهم من ظالميهم . ولا ريب أن الذي أبدع هذه الخليقة وتركها تتصرف كما تشاء في حرية وإرادة ، سوف يعيدها إلى حياة أخرى يحق فيها الحق ويستقر فيها العدل .

فمن أجل ذلك أظهرت الآية الرابطة المتمكنة بين الخلق الأول والاعادة الثانية .

ثم تسأل الآية : ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أي بأسباب سماوية وأرضية مرتبة على بعضها ، وأنت تعلم أن اليها مرد كل الأرزاق التي يعيش عليها الإنسان .

أإلـه مع الله بعد كل ذلك ؟. ويأتي الالتفات عنهم هنا ليختم هذه الحجاج والبراهين السابقة كلها بقوله مخاطباً الرسول ﷺ : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .. أي هذه هي براهين وجود الله ووحدانيته وألوهيته ، يقرها العقل ويدركها المنطق ؛ فقدموا بدوركم براهينكم التي تعتمدونها في جحودكم وإنكاركم لهذه الحقائق .

هذا ، ولك أن تذهب في إعراب « أمَّن » التي صدرت بها الآيات السابقة ، مذهباً آخر ، فتعتبر من موصولة على الابتداء ويقدر خبره على ضوء الجملة الأولى في أول الآيات : (آلله خير أم ما يشركون) فيكون المعنى : بل أالذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً .. خير أم ما يشركون ، وتحمل سائر الآيات الأخرى على هذا التقدير . وقد ذهب معظم المفسرين هذا المذهب في إعراب الكلمة .

غير أن الذي ألحظه من سياق الآيات ، وأشعر به من ذوق المعنى ومقتضاه ، أن الطريقة التي اعتمدناها في اعراب الآيات من اعتبار « من » استفهامية ، أقوى دلالة وأقرب استساغة وأبعد عن التكلف ، وإذا دارت الجملة بين التقدير وعدمه فعدم التقدير أولى ، ومثله في القرآن قوله عزوجل في سورة الملك « أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إنِ الكافرون إلا في غرور » .

● ولما ختم الحديث عن البراهين على وجود الله ووحدانيته بالحديث عن عود

الناس الى الحياة من بعد الموت ، وكان في هذا ما ينهض الجاحدين الى استبعاد الحشر والمطالبة ببيان الأدلة والعلامات التي توضح ميقات ذلك اليوم وأجله . قال جل جلاله مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون » ، أي ليس لأحد أيّ مطمع في الاطلاع على ما استأثر الله بعلمه من المغيبات ، ومن أهمها الميقات المحدد في علم الله لقيام الساعة ، وليس الإيمان بها متوقفاً عقلاً على معرفة زمانها وميقاتها .

● ثم تختم الآيات بهذه الآية الأخيرة التي فيها التحليل والوصف الدقيق للاضطراب الفكري الذي يطوف في أذهان الملحدين ، وفيها التقريع العجيب لهم والسخرية بجاهلهم : « بل ادّارك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

ففي الآية – كما ترى – إضراب عن كل ما قد سلف من النقاش ، ليقول من ورائه باسلوب الحكاية عنهم : ان هؤلاء قد تجمعت لديهم أقصى ما يمكن أن يفهموه عن الآخرة وأدرك بعضه بعضاً ، ووصلوا من ذلك الى الغاية التي لا حاجة لهم عندها الى علم جديد يُلقّونه ويُبصّرون به ؛ وهذا تصوير لبعض الحالات التي تعتري الملحد من الاعتداد بفكره وفهمه حتى ليخيل اليه أنه قد تدارك وتجمعت في ذهنه الحقائق العلمية كلها .

ولكنه لا يلبث أن يضرب عن هذا الوصف ، ليصفهم بحالة أخرى : بل هم في شك منها ، ان الظنون والأوهام تأخذهم وتردُّهم في أمرها : ألعل ما يقوله المؤمنون هو الحق ؟! لا ليس كذلك !.. ولكن من المحتمل !.. وهو مظهر للاضطراب الفكري القلق الذي يبعث في النفس عذاباً لا يتصور شدته إلا من يعانيه . وهذا تصوير لحالة أخرى تنتاب الجاحد والملحد ...

ثم ينتقل البيان الى آخر وصف ؛ هو الوصف الثابت الحق في شأنهم ، وهو مدار الحالات الأخرى التي تعتريهم : بل هم منها عمون ، انهم من أمر الآخرة في عماهة مطلقة يتخيلون معها ذبذبات الظلام علماً وفهماً ، ويتصورون معها انهم حينما يشكّون ويضطربون انما يبحثون ويتأملون . وهيهات منهم ذلك .

والله سبحانه أعلم .

كلمة أخيرة

والآن ، وقد انتهينا من هذه السياحة العجلى في رحاب هذا الكتاب العظيم ، ووقفنا على خلاصة سريعة من خصائصه ومظاهره ودقائقه — أريدك يا أخي القارىء أن تمحض الفكر والرويّة والتأمل الحرّ في قصة هذا الكتاب ومصدره .

ألم تقف في كل ماقد مررت ووقفت عليه من خصائص ، على مايدلك أن هذا الكتاب ماينبغي أن يكون من صنع بشر ؟

ألم تدرك ، فيما قد اطلعت عليه من تأريخه وعلومه ومنهجه ، أنه ماينبغي أن يكون أكذوبة كذّب بها محمد ﷺ على ربه ، بعد أن غير من حياته أربعين عاماً يتوقى فيها الكذب على الناس ؟

ألم تستشعر في كل ما قد تأملته من نصوصه وآياته أنك من هذا الكلام أمام أحاسيس ومشاعر لايمكن أن تأتي إلى النفس مما يتكلم به سائر البشر ؟

ألم تدرك في أعماق وجدانك ، حقيقة الاعجاز الثابتة في هذا الكتاب ؟

أسئلة ، لا أشك أن أي متأمل بفكر حر ، يتردد في الجواب عليها بإيجاب قاطع .

فإذا كان كذلك ، أفليس مما يوجبه العقل ، ويفرضه كل من المصلحة والمنطق أن تتدبر هذا الكتاب وتتهيأ لما قد وضعك في سبيله ؟

أمَا إن هذه الحياة ستطوى عما قريب ، وإن كل ما ترى من مغرياتها وملاذها ليوشك أن ينتهي ويزول ؛ وقسماً بالعقل الذي ميز الله به الانسان ، إن من وراء ذلك لحياة أخرى ستتفتح لها العين ويمتلىء بها الشعور ويفيض بها الإحساس ،

وما كان القرآن ليكذب على الناس في تأكيد هـذه الحقيقة بشتى الاساليب المؤكدة . أفترى أن شيئاً من الأغراض أو الأهواء أو المقاصد المستكنة في نفسك اليوم تغنيك إذ ذاك أو تفيدك فائدة ما ؟!..

تخيل نفسك ، وقد ولى عنها الشباب ، وولّت في أعقابها الكهولة ، وجاءتك الحقيقة التي لامردّ لها ولا سلطان في الأرض يستذلّها : حقيقة الموت وسكرته ، وسائلْ نفسك التي بين جنبيك : ماذا عسى أن تجني إذ ذاك من كل هذا الذي تكبّل اليوم عقلك به ، أياً كان مظهره وحقيقته ومرماه ؟!..

إنّ من الخير لك أن تحتاط .. وإن من أسمى أغراضك ومصالحك التي يجب أن تأخذ نفسك بها أن تتأهب لذلك اليوم ، وإن من أهم مايجب عليك ، أن تقف على هوية نفسك وحقيقة ذاتك القائمة في خضم الكون المائج ، فكم من إنسان يمشي مكبّاً على وجهه في دروب الحياة ، وهو يحسب أنه قد أبصر الحقيقة من حيث ضل عنها الآخرون ، وهو انما ضل عن نفسه فلم يقف على شيء من هويتها وحقيقتها ، وسوف لايستفيق الى ذاته الا بعد أن يتعثر ويكبو ، وحينئذ ينظر بعين جديدة أخرى ويطلع على حقيقة كانت غائبة عنه ، ويتذكر الماضي الأليم ، وأنى له الذكرى ؟

ثم فيم الابتعاد يا أخي القارىء عن الحق ؟

أفتحسب أنه يحرمك سعادتك التي تحلم بها ؟ .. ان ذلك هو الوهم العجيب الذي يظلّ عالقاً برؤوس بعض الناس . ان الله عز وجل لم يشرع لعباده هذا المنهج الحق الا اصلاحاً لشأنهم وتحقيقاً لسعادتهم . ومما لاشك فيه أن الجاحدين والملحدين في الدنيا يشْقَون حتى بالنعيم ويختنقون حتى في أسباب السعادة ، وانظر تجد مصداق ذلك ماثلاً أمامك ومن حولك ، وأن المؤمنين يظلون في نعيم السعادة حتى وان تألبت عليهم الدنيا ونال منهم الضر والبلاء . واسمع قول رب العالمين : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون) .

ان خير ما أختم به كتابي هذا ، ان أقدم اليك – وأنت أخي الذي لا والله لا أريد له الا ما أريده لنفسي – هذه العبرة والنصيحة ، فإن قبلتها فذلك حظك من هذا الكتاب وهو حظي من كل ما قدّمت ، وان لم تقبل فلا أملك الا أن أتجه الى الله العلي القدير استمنحه الرحمة لي ولك ، وأسأله لنا جميعاً الهداية الى الحق والتجافي عن الباطل .

وحسبي الله ونعم الوكيل ، واليه المنقلب والمآب ، وهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

دمشق في ٣٠ ذي القعدة ١٣٨٧ هـ
الموافق لـ ٢٨ شباط ١٩٦٨ م

محمد سعيد بن ملا رمضان
البوطي

. . .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	تمهيد : أهمية القرآن في الأدب العربي
١٣	**القسم الأول : تاريخ القرآن وعلومه**
١٥	القرآن : تعريفه وحقيقته
١٥	تحقيق في معنى الوحي
٢٢	نزول القرآني منجماً
٢٧	أسباب النزول
٣٢	كيفية جمع القرآن وكتابته والأدوار التي مرت على ذلك :
٣٢	أولاً : ترتيب القرآن وكتابته في عهد الرسول
٣٥	ثانياً : ماجد من ذلك في عهد أبي بكر
٣٧	ثالثاً : ماجد من ذلك في خلافة عثمان
٤٢	رسم القرآن والمراحل التحسينية فيه
٤٨	الأحرف السبعة
٥٣	**(علوم القرآن) :**
٥٣	تمهيد
٥٨	التفسير : حقيقته ، نشأته ، مذاهبه ، شروطه
٧٠	المكي والمدني : تعريفهما ، خصائص كل منهما ، الفائدة من معرفة ذلك
٧٦	المبهم والمتشابه في القرآن
٨٨	القراءات والقراء

الصفحة	الموضوع
٩٥	**القسم الثاني : منهجه وأسلوبه**
٩٧	أسلوب القرآن : نظرة عامة في خصائصه
١٠٩	اعجاز القرآن : تعريفه ، وجوهه ، دليله ، مظاهره
١٣٩	موضوعات القرآن وطريقة عرضه لها
١٤٤	التصوير في القرآن : مظهره ووسائله
١٥٧	القصة في القرآن : أغراضها ، خصائصها
١٦١	منهج القصة في القرآن
١٧١	القيمة التاريخية لقصص القرآن
١٧٦	المنهج التربوي في القرآن
١٨٢	النزعة الإنسانية في القرآن :
١٨٢	أولاً : من حيث الموضوع
١٨٧	ثانياً : من حيث الشكل والأسلوب
١٩٠	فلسفة القرآن عن الكون والإنسان والحياة :
١٩٠	نظرة القرآن إلى الكون
١٩٢	نظرة القرآن الى الانسان
١٩٤	نظرة القرآن الى الحياة
١٩٦	**هل من الممكن ترجمة القرآن ؟**
٢٠٣	**القسم الثالث : دراسات تطبيقية**
٢٠٥	تمهيد
٢٠٧	في الإلـٰهيات

الصفحة	الموضوع
٢١٥	في الوصف
٢٢٥	في المبادىء والانسانيات
٢٣٧	في القصص
٢٤٧	في الحجاج والنقاش
٢٥٧	كلمة أخيرة

★ ★ ★

من

منشورات المكتب الإسلامي

زاد المسير في علم التفسير	لابن الجوزي
روضة الطالبين	للامام النووي
مشكاة المصابيح	للخطيب التبريزي
المنازل والديار	لاسامة بن منقذ
الوجود الحق	للدكتور حسن هويدي
صفة صلاة النبي	للشيخ ناصر الدين الألباني
حجة النبي	للشيخ ناصر الدين الألباني

من آثار المؤلف

في سبيل الله والحق	تجربة التربية الاسلامية في ميزان البحث
مم وزين	فقه السيرة النبوية
دفاع عن الاسلام والتاريخ	ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية

(جميع الحقوق محفوظة للمؤلف)